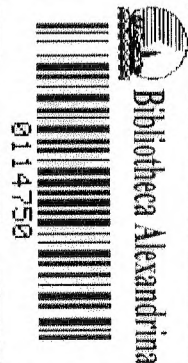


السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذين معه



عبد الحميد جوده السحار

السيرة

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

النبي

عبد محمد جوده السخار

بسم الله الرحمن الرحيم

« والضحي * والليل اذا سجي * ما ودعك ربك وما قلى *
والآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك
يتيما فأوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما
اليтим فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث » +
(قرآن كريم)

— ٩ —

سجى الليل ، وراحت الشهب صغيرها وكبيرها تتزاحم فى
 رقعة السماء وتتنافس فى التآلق واللمعان ، فبدت كبساط زمرد
 نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم ، وأحدقت نجوم الثريا بالهلال
 كأنها تريد أن تسبقه ، وبات الهلال فى معصم الظلام سوارا وعلى
 مفرق الدجى اكليلا ، ومحمد بن عبد الله جالس تحت الشجرة فى
 أعالي مكة يرنو الى السماء وفى ذهنه انبهار ، وفى نفسه عجب
 واعجاب ، وفى وجدانه أشراق ، يستشعر كأنه ذاب فى الوجود ،
 أو كأن الوجود كله قد انسكب فى فؤاده .

كان يسير مع أمه حليلة وأبيه الحارث فى طريقه الى مكة ،
 لتعيده حليلة الى أمه آمنة بنت وهب بعد أن شب ومضى من عمره
 أربع سنوات ، وقد سقط عليهم الليل وهم فى أعالي مكة ، وتدفق
 سيل الحجيج الى بيت الله العتيق ، وجرف الركب الصغير فاذا
 به يجد نفسه فى بحر من الناس ، فراح يتلفت فلم يجد حليلة
 ولا الحارث وضل الطريق ، فلم يفزع ولم ينخلع قلبه رعبا ، بل
 راح يشق طريقه فى الجموع ، حتى اذا ما بلغ شجرة جالس تحتها
 هادىء النفس ينتظر أوبة حليلة ، أو مجيء من يحمله الى أهله
 عند الحرم .

وراح محمد يقلب وجهه فى الكون وهو مسرور ، كأنما كانت
 روحه الفتية القوية تمتص حكمة الوجود . وأرهف سمعه ، وأصاح

للأصوات المنبعثة من وقع أقدام الناس وارتطام حوافر الدواب
بالأرض وحنين الابل ووسوسة النسيم فى أوراق الشجر ، فانشرح
صدره وتهال بالفرح قلبه ، لكأنما كان يصغى الى ترانيم
وتسبيحات ♦

لم يعرف الوجود الغمض ولم تغمض عينا الصبى ولم يقف
ذهنه ولم ينم قلبه ، بل راح يتذكر أيامه فى بنى سعد ، تلك الأيام
السعيدة التى أمضاها فى دار حليلة مع اخوته عبد الله وأنيسة
والشيماء ، وقفزت الى ذهنه لعبته المفضلة ، لعبة العظمة البيضاء
التي كان يلعبها مع أنيسة وعبد الله ، وقد كانوا يأتون بعظمة ناصعة
البياض ، وفى الليالى المظلمة يلقون بها بعيداً الى أقصى ما تستطيع
يد أحدهم ، فمن يبصر بها على بعدها يصبح رئيس الجماعة ♦
ورفت على شفثيه بسمة هادئة فقد رأى نفسه وهو زعيم أنيسة
وعبد الله ♦

وتذكر ذلك اليوم الذى كانت تحمله فيه الشيماء على ظهرها
تلاعبه وتداعبه ، وقد أسرفت فى ملاعبته فمال برأسه وعضها
عضة قوية فى ظهرها ، فندت منها صرخة أفزعته ، فغامت صفحة
وجهه الجميل بالأسى وهو تحت الشجرة ، فما كان يحسب فى ذلك
اليوم أن عضته تلك تسبب لأخته مثل ذلك الألم ، وقد ظل كلما رأى
أثر عضته فى ظهرها يتألم وتترقق الدموع فى عينيه ♦

وبات محمد فى شروده وأحلامه وتعاطفه مع الوجود وتناسقه
مع كل ما حوله ، بينا كان عبد المطلب وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو
ابن نفيل وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ومتعقبو الأثر من مشرقي

فى أعالى مكة ينقبون عن ابن عبد الله ، الذى أضلته مرضعته حليلة
فى ليلة شديدة الزحام •

كان عبد المطلب على صهوة فرسه ينطلق الى وادى تهامة ، وهو
يتلفت وقد انقبض صدره وربما خوفه خشية أن يكون محمد قد
انجرف مع تيار الحجيج ، أو أن يكون حاج غريب عن الديار قد
التقطه ، وزاد من قلق شيخ قريش لما وجد نفسه ضالا فى بحر من
الناس لا يعرف أين منطلقه ، ففرسه تدور مع الجموع ليس له
عليها سلطان •

وأحس عبد المطلب عجزه فرفع عينيه الى السماء وراح يبتهل
فى حرارة الى ربه أن يرد ولده محمداً ، وانسابت من فؤاده مشاعر
رقية ملأت جوانحه فسالت على خديه العبرات •

وسار ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل على راحلتيهما
يتلفتان فى الظلام ينقبان عن محمد بن عبد الله ، الصبى القرشى
الذى جاءت مرضعته تقول انها أضلته فى أعالى مكة ، وقد انطلق
ورقة وزيد معا فقد كانا صديقين لا يفترقان أبدا الا فى أمر
ما يعتنقان من دين ، اتفقا على تسفيه دين الآباء وأعرضا عن عبادة
الأصنام وساحا فى الأرض بحثا عن دين الحنيفية دين أبيهم
ابراهيم الخليل ، فقال لهما أحبار اليهود وكهان النصارى ان الذين
يعرفون ذلك الدين قد ذهبوا ، وأن نبيا سيعيد ملة ابراهيم قد
أظلم زمانه ، وأنه سيبعث فى البلد الحرام الذى جاء منه ،
فرأى ورقة أن يتنصّر الى أن يبعث ذلك النبى الأسمى ، وآثر زيد
أن يستمر على دينه وأن يجتهد فيه حتى ينقيه من الشوائب

والأساطير التى لحقت بالحنيفية السمحة ، لعله يصل ببصيرته الى ملة أبيهم ابراهيم •

وانساب أبو الحكم بن هشام على بغيره يقلب وجهه فى الجموع المتدفقة من أعالي مكة الى الحرم ، فاذا برأسه يدور وقد زاغ بصره ؛ كانت جحافل الناس تندفع الى البيت العتيق وقد ضجت بالتلبية لرب البيت وشركائه الذين يقربونهم اليه ، وقد ثار النقع وانتشر الغبار كأنما سحابة قد ملأت بين السماء الأرض ، فلم يملك أبو الحكم إلا أن يتلثم حتى يستطيع أن يتنفس ، ثم راح يجاهد لينأى بنفسه عن الكتل البشرية التى تشتد فى سيرها لتبلغ غايتها وتستكين نفوسها الى الأمن والسلام والراحة •

وانتشر منقبو الأثر فى الوادى المقدس ينقبون عن آثار أقدام محمد بن عبد الله ويشمون ريحه ، ولم يكن الأمر سهلاً فالحجيج يأتون من كل فج عميق يمحون كل أثر ويذهبون بكل ريح • وراح الذين خرجوا يلتمسون الصبى القرشى يضربون فى أرجاء الوادى ، وما دار بخلد أحدهم أن ذلك الصبى الذى يبحثون عنه هو دعوة ابراهيم وبشرى عيسى الذى تنتظر الأمم رسالته •

ووقف ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل عند الشجرة اليمنى بوادى تهامة ، فاذا بصبى قائم تحتها يجذب غصنا من أغصانها ، واذا بنور الكواكب ينعكس على وجهه الجميل فيزيد الصبى سحراً ، فراح ورقة وزيد يرمقان الصبى برهة ثم قال زيد :

— من أنت يا غلام ؟

— أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب •

فمال زيد واحتمله بين يديه ووضع أمامه على راحلته ، وسار به وورقة الى جواره وانطلقوا ليعودوا الى مكة .

وغارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤها وأكبرها ، ولم تبق نابتة الا فاحت روائحها وضحكت السماء من جوانبها ، ولم يبق طائر الا غرد . وبلغ الراكب الصغير الحرم فأناخ زيد راحلته ونزل عنها ، واحتمل محمدا بين يديه ثم وضعه على الأرض ، وهبط ورقة عن راحلته ، ثم انطلقوا قاصدين شيخ بنى هاشم .

كان بعض النسوة واقفات على باب المسجد وقد ارتفعت أصواتهن يلتمسن ثيابا طاهرة يطفن بها ، وراحت كل منهن تقول :

— من يعيرنا مصونا ؟

— من يعير ثوبا ؟

— من يعيرنى تطوفا ؟

وكان رجال يرتدون ثيابا طاهرة اكتروها من الحمس فى طريقهم الى الكعبة ، بينا كان رجال آخرون قد خلعوا ثيابهم وراحوا يطوفون حول الحرم عرايا ، اعتقادا منهم بأنه لا يجوز لهم عبادة الله فى ثياب أذنبوا فيها .

وراح رجال يسوقون الهدى أمامهم ليذبحوه عند اساف ونائلة قربانا للآلهة ، وراح آخرون يقدمون الفرع للذبح وقد زينوه وألبسوه ، والفرع أول نتاج الابل والغنم ، وكانوا يعتقدون أنه نصيب الآلهة .

وراح الصبى محمد بن عبد الله ينظر فى انبهار الى تلك الحشود الهائلة التى تكدست فى بيت الله ، ومد عينيه الى الأصنام التى وضعت خارج الكعبة ، فرأى تمثال أسد ولم تكن هذه أول مرة

العطايا والنذور ، وقد راح الناس يلقون فيها الدراهم والدنانير وبعض طرف جاءوا بها من الحيرة وبصرى ومنف وصنعاء وكل سوق من الأسواق التي نزلوا بها فى فارس والشام ومصر وجزيرة العرب •

وخرج ورقة وزيد والصبى من جوف الكعبة ، وما ان ألقى محمد بصره الى اساف وناثلة حيث يذبح الناس القرابين حتى رأى الأعراب يطوفون حول الذبائح ، ورأى أحواض الأدم التي وضعت عند زمزم وقد ملئت بالماء وبث فيها عبد المطلب التمر والزبيب ، وازدحم الناس حولها وراحوا ينهلون منها وقد لاح على وجوههم السرور •

وسار الثلاثة فى الحرم يبحثون عن عبد المطلب ، وجذب بصر محمد أكثر من مرة غلام صغير يرتدى صوفا أبيض فى الحر الشديد وقد ترك بالقرب من الكعبة وحده ، ولم يدر محمد حكمة ذلك ولم يعرف فى ذلك الوقت أن ذلك الغلام قد وهبه ذووه للكعبة وأنه ربيط ، وأنه اذا شب عن الطوق أصبح من طبقة الصوفية الذين يتولون خدمة البيت العتيق •

ولمح ورقة عبد المطلب قادما يشق طريقه فى الزحام فهتف فى فرح :

— عبد المطلب !

ومد زيد بصره الى حيث كان ورقة ينظر فألقى عبد المطلب يتلفت وفى وجهه أسى عميق ، فقد عاد من بحثه دون أن يعثر على حفيده أو يجد له أثراً • وأحس زيد شفقة نحو الشيخ الجليل توسع من خطوه وراح يجد فى السير ، ولولا ذلك الزحام الذى

يسد عليه الطريق لهرول الى شيخ بنى هاشم ليفضى اليه بنبأ
عثرهم على الصبى حتى يستريح قلب الشيخ الواله الحزين •
ودنا زيد من عبد المطلب وقال ورقة فى رقة :
— وجدناه •

وما ان مس الصوت أذننى عبد المطلب حتى طفرت من عينيه
الدموع وقال فى لهفة :
— وأين محمد الآن ؟

وما انتهى من قوله حتى كان ورقة بن نوفل وفى يده محمد
ابن عبد الله أمامه ، فمال عبد المطلب واحتمل محمداً بين يديه وضمه
الى صدره وراح يقبله فى حب شديد ، وقد سالت عبراته حتى
بللت لحيته •

وجاءت حليلة وزوجها الحارث ، وما كادت عيناها تقعان على
محمد وهو فى أحضان جده حتى خنقنها عبراتها وهتفت فى وجد :
— ولدى ! ولدى الحبيب !

وتناولت محمداً من جده وراحت تمطره بقبلاتها ، ثم سارت
به والحارث الى جوارها الى دار آمنة بنت وهب لترد اليها ابنها
وتؤديه اليها ، وببها هم سائرون أخذ محمد ينظر الى الحشود
التي فرغت من السعى بين الصفاء والمروة واتخذت طريقها الى
الكعبة ، والى قباب الجلود وقد جلس فى ظلها الحمس من أهل
مكة ، فما كان الحمس يستخدمون فى موسم الحج خيام الشعر
والوبر •

كان محمد ينظر الى ما يجرى حوله بعينين مفتوحتين وذهن
صاح ، فما يراه الساعة دنيا جديدة تختلف كل الاختلاف عن

دنياه التى عاشها فى صحراء بنى سعد ؛ كان يعيش هناك بين أحضان طبيعة خلابة ، يستنشق الحرية ويذوب فى الوجود بينا يشق هنا الجموع المتدفقة كالسيل ليصل الى داره عند الصفا ، جموعا جاءت من كل فج عميق من بلاد العرب لتتحج البيت ، وتقدم خضوعها وولاءها وعبوديتها لرب البيت •

ووقعت عينا محمد على دار أمه فعرفها وراح يعدو اليها فى لهفة وفرح وقد فاض قلبه بحنان وشوق الى أمه العزيزة ، وراح الحارث وحليمة يسرعان الخطا خلفه ليلحقا به •

ودق الباب فى لهفة ، وسرعان ما فتحت بركة الباب وما ان رآها حتى لف ذراعيه حول ساقها فى حب • وفطنت بركة اليه فتهللت أساريرها بالفرح ، ومالت عليه تقبله هنا وهناك وقلبها يخفق بالرحمة والحنان •

وانفلت محمد من بين أحضان بركة فى الوقت الذى وصل فيه الحارث وحليمة الى الدار ، وانطلق يجرى الى حيث كانت أمه وهو ينادى فى لهفة وشوق وحنان :
— أماه ••• أماه •

وانسكب صوت محمد فى أذنى آمنة عذبا لكأنه كان رحيق الوجود أو موسيقى السماء ، فتدفقت من كنز فؤادها مشاعر رقيقة حانية ، وسرت فى كيانها رجفة من أثر النشوة العارمة المفاجئة ، فما خطر لها على قلب أن يأتى محمد الحبيب الساعة ليملأ فراغ حياتها بهجة ، وظلام نهارها نوراً واشراقاً •

وهرعت آمنة اليه وقد بسطت له ذراعيها فارتمى فى أحضانها وهو سعيد غاية السعادة ، وراحت تلثمه فى حب وفاض تأثرها

فطفرت الدموع لتنفس عن المشاعر الرقيقة المواراة التى ضاق بها صدرها •

واستمرت آمنة وابنها الحبيب متعانقين مدة استشعرا فيها
أنهما الوجود كله ، بكل ما فيه من مشاعر حلوة ونبضات فرحة
مرحة • وأفانقا من نشوة اللقاء على صوت أقدام بركة وحليمة ،
فذهبت آمنة تستقبل مرضعته التى كانت حريصة كل الحرص على
أن يمكث محمد معها ، وإذا بها تعيده قبل أن ينقضى الأجل •

ورحبت آمنة بحليمة ثم قالت لها :
— ما أقدمك به يا ظئر (مرضعة) ولقد كنت حريصة عليه
وعلى مكانه عندك ؟

فأطرقت حليمة وقالت :

— قد بلغ والله وقضيت الذى على ، وتخوفت عليه الأحداث
فأديته اليك كما تحبين •

— ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك •

فراحت حليمة تنقص عليها قصة ميله الى الوحدة وصعوده
لمراقبة السماء ، وخشيته من أن يتردى فى الجبل أو تؤذيه
الشياطين ، فقالت آمنة وهى تبتسم :
— أفتخوفت عليه الشيطان ؟

— نعم •

— كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وان لبنى شأننا •

— ١٤ —

— ٢ —

كان أبو قحافة يطوف بالبيت وقد بدا في وجهه رقة وطيبة وهدوء ، ووقعت عيناه وهو في طوافه على عبد المطلب وهو في مجلسه في ظل الكعبة ومن حوله ندماؤه وبعض أبنائه وحفدته ، وابنه حمزة في حجره يعبث في لحيته ، فيميل عليه شيخ قريش ويقبله في حب وقد انبسطت أساريره تعبر عما في نفسه من سرور ، فإذا بأبي قحافة يستشعر حينئذ إلى الولد فقد ولدت له زوجة بنين وبنات ولكن لم يعيش له منهم أحد .

كانت الكعبة تموج بالأبناء والبنين فما من أحد من قريش الا وله قررة أعين ، فعبد المطلب قد عاش حتى رأى أبناء أبنائه وضمهم جميعا إلى صدره ، وأمية وان كان قد ذهب بصره فإنه يشم ريح أحفاده ، وها هو ذا حفيده أبو سفيان بن حرب يتأهب للزواج ، فان مد الله في عمره فسيحتوى بين ذراعيه حفيد ابنه حرب ، وسيطوف به البيت العتيق ، وهي أمنية عزيزة يحلم بها كل رجال مكة . ترى أيأتى ذلك اليوم الذي يطوف فيه بحفيد من حفدته وهو منشراح الصدر متهلل الوجه ؟

كان عثمان الذي عرف بأبي قحافة من قبيلة تيم . ويلتقى نسبه مع بنى هاشم وبنى أمية عند كعب بن لؤى . وعرفت قبيلة تيم بالركة وظهر فيها كثير من الشعراء ، وعرفت نساؤها بالخطوة عند الأزواج . ومارست القبيلة التجارة ولكن تجارتها لم تبلغ شأوا

تجارة بنى هاشم وبنى أمية ، ولكنها مكنت القبيلة من أن تحيا حياة كريمة لم تصل الى ما وصلت اليه حياة سرة قريش من ترف ، ولم تهو حياة المسغبة التي كان يقاسيها أغلب أهل مكة ، والتي كان ينتشلهم منها بين الحين والحين أجواد قريش •

انه جلس أكثر من مرة حول جفان عبد المطلب وجفان عبد الله ابن جدعان ، ولم يكن ذلك لفقره بل ليشارك قومه فى طعامهم وسرورهم ، فقد كانت أيام الطعام وما أكثرها بمثابة أعياد فى مكة يجتمع فيها الشباب للمرح ويتبادل فيها الشيوخ الآراء وكثيراً ما نسقت فيها أعمال القوافل المنطلقة الى بصرى أو منف أو صنعاء أو الحيرة •

كان أبو قحافة غاية فى الرقة والهدوء وقلما كان يثور ، ولكنه ان ثار ثار ثورة الحليم التي لا تبقى ولا تذر . ولم يكن صاحب مطامع كبيرة فقد كانت كل غايته أن يعيش أيامه فى سلام ، وأن يهب الله له ذرية تملأ حياته غبطة • ولم تشرئب أمانيه بعنقها ولم يشطح به الخيال ليرى ابنا من أبناؤه سيداً على قريش ، فكيف يفلت منه زمام أحلامه — وهو الرجل العاقل المتزن — ليرى أحد بنيهِ شريفاً فى مكة وفى القوم بنو هاشم وبنو أمية ؟

كان يرى المنافسة الظاهرة والمنافسة الخفية بين عبد المطلب وأميه وابنه حرب ؛ كان اذا أطعم بنو هاشم الناس سارع بنى أمية الى اطعامهم ، واذا واسى عبد المطلب فقيراً أو عاد مريضاً هرع حرب الى المواساة والزيارة ، واذا مدح شاعر شيخ بنى هاشم أو أحد بنيهِ أغرى شعراء آخرون بمدح بنى أمية واطهار مناقبهم ،

انها منافسة عائش عليها كثير من المكيين ولكن أبا قحافة آثر أن ينأى عنها *

انضمت تيم الى بنى عبد مناف يوم أن كادت الحرب تتشب بينهم وبين بنى عمهم عبد الدار على شرف حجابة البيت وحمل لواء قريش ، وقد غمس رجال تيم أيديهم فى جفنة الطيب التى وضعت ليقسموا عليها ويتحالفوا على حرب عدوهم فأصبحوا فى حلف المتطيبين على لعنة الدماء ، ولولا أن تداعى الناس الى الصلح لكان الثأر قائما بين عبد الدار وبنى تيم حتى الآن ، ومن يدرى ما الذى كان يحدث ، فلعل الخطاب كن يتربص بأبى قحافة ليقته أو لعله كان قد قتله وشفى غليل صدره !

وما دار بخلد أحد يوم أن تداعى الناس للصلح بعد أن امتشقوا الحسام للقتال أن الله قد حبيب اليهم الجنوح الى السلم ، لأن الله كان يدخر حفدة هؤلاء المتحرقين للقتال وسفك الدماء لرسالة عظمى ، بل لأعظم رسالة حملها البشر ؛ رسالة السماء *

كان هوى أبى قحافة مع عبد المطلب ، فقد كان عبد المطلب يمارس الحياة على سجيته دون أن يتكلف أو ينافق مجتمعه ، كان كريما بطبعه يسارع للخيرات بوحى من ضميره ، قد حرم على نفسه أشياء لم تحرمها شرائع قومه ولا تقاليدهم ، فما كان يشرب الخمر ولا يطوف على بيوت البغايا لأنه وجد أن فى مقارفة تلك النواقص حطا من قدره ونبيلا من كرامته وثلما لشرفه * ولعل مكارم بنى أمية كانت مجارة لسيد بنى هاشم ، لم تكن نابعة من وجدانهم بل خشية من أن يذهب منافسهم بالمجد كله وينفرد بالشرف وحده * وربط ذهن أبى قحافة بين أشراف قومه وبين ذلك الاعتقاد الذى

وقر فى عقول المهيين من أن المرأة التى لا يعيش لها ولد اذا مرت بقتيل شريف يقتل غدرا ، ووطئت ما حوله عاش ابنها • وان كل أمنيته أن يعيش له ولد ، ولكن أين ذلك الشريف الذى يقتل فى قومه لتتخطاه زوجه المقلاة سبع مرات لعل أولادها يعيشون ، فقد هذه الحزن على فقد أولاده ؟

وراح أبو قحافة يقول وهو منصرف من الكعبة الى داره :
تباشرت المقالت حين قالوا ثوى (عمرو بن مرة) بالحفير
ووسع أبو قحافة من خطوه فقد وافى ميعاد ذلك العراف الذى سيزوره فى بيته ليصنع لزوجه حميلة تنفر الجن وتبعد عنها أذى الشياطين ، وتحفظ له ولده الذى فى بطنها والذى أوشك على الميلاد •

ودخل أبو قحافة على زوجه فألفى الهدوء شاملا لا حركة ولا نائمة ، وقد جلست امرأته وقد وضعت رأسها بين كفيها شاحبة اللون يبدو فى وجهها خوف وقلق فقد بانئت تخشى أن يلحق البوار ذلك الجنين العزيز الذى تحس بحركته فى بطنها ، وراحت تتلفت كأنما تستعجل قدوم العراف الذى سيكتب لها التميمية المسحورة التى تحفظ حياة وليدها فلا يدهمه الموت كما دهم اخوته الآخرين •
وجاء العراف وقدمت له الضحية فذبحها فى مكان مظلم من الدار ليسكن الجن وتذهب الأرواح الشريرة ، ثم أخرج خرزة ملونة وراح يكتب عليها رموزا واشارات وينظر الى الأرض بين لحظة وأخرى ويتمتم كأنما يخاطب الجن الساكن تحت الثرى ، ثم وضع الخرزة فى تميمة وقدمها الى أبى قحافة لتعلقها امرأته فى عنقها •

وجاء شهرها التاسع فذهبت الى الكعبة لتبتهل الى الآلهة جميعا
أن تطيل في عمر وليدها • وبينما هي في طريقها لتبدأ الطواف
من الحجر الأسود رأت الأطفال الذين وهبهم أهلهم لخدمة البيت
الحرام فطافت بذهنها فكرة ، لماذا لا تتذر ما في بطنها للكعبة
ارضاء للآلهة ؟ ومررت يدها على التميمة التي تدلت على صدرها
فلم تحس تلك الراحة التي كانت تحسها كلما لمستها بل انبعثت
من أغوارها أصوات تهتف بها أن تجعل ابنها ربيطا للبيت الحرام
أن أرادت أن يعيش •

وتعلق بصرها بالحرم وقالت :

— اللهم انى وهبت لك ما فى بطنى فأطل فى عمره وأبقه لى •
وانهمرت دموعها على خديها •

وحان أوان الوضع فالتفت بها نساء بنى تيم مشرقات الوجه
على شفاههن ابتسامات تشجيع وفى صدورهن اشفاق وخشية أن
يموت الوليد ، وراح أبو قحافة يغدو ويروح فى الدار وهو قلق
ما ان يسمع وقع أقدام حتى يلتفت الى مصدرها فى ذعر ، وجاءت
اليه واحدة من بنى تيم هدأت من روعه وشرحت صدره عندما
قالت له :

— اذا جاء المولود غلاما فماذا تسميه ؟

واستراح أبو قحافة الى أنه لم يعد وحده فريسة لمخاوفه ،
فقال فى صوت ينم عما كان يكابد من قلق :

— عبد الكعبة •

— واذا كان أنثى ؟

وتغير لون أبى قحافة ولاح فيه شئ من الأسى وعدم الراحة ،
ثم قال :

— لم أختار لها اسما بعد •

وارتفع صوت المولود فتسمر أبو قحافة فى مكانه ، ثم رفع
بصره الى السماء وراح يدعوه ربه أن يكون المولود ذكرا ليرثه ويرث
آل تيم ، فانفلتت المرأة مهرولة لتعود اليه بالنبا المثير •
ومرت لحظات حسبها أبو قحافة دهرا ، ثم جاءت المرأة
بالبشرى نطق بها وجهها قبل أن يتحرك لسانها ، وقالت فى فرح
شديد :

— انه ذكر *** انه ذكر •

وفاض سرور أبى قحافة حتى انه دار فى مكانه من شدة
السرور ، ثم راح يقطع المكان صاعدا هابطا لا يستطيع أن يهدأ
أو يستقر حتى طلب اليه أن يدخل ليرى وليده ، فتقدم خافق القلب
وقد فاضت نفسه بالفرح والسرور •

ووقف برهة يرنو الى زوجه والوليد الذى نام الى جوارها
وقد تحركت عواطفه وجاشت الرحمة فى وجدانه ، وعجز عن أن
يكبح ذلك الحنان المتدفق من سويداء قلبه فمال وطبع على جبين
الموليد قبلة أودعها ذوب المشاعر الرقيقة المنبثقة من أغوار النفس
وأهماق الفؤاد •

وانفرج وجه زوجه الذابل عن ابتسامة عذبة ، ثم التفتت
الى ابنها الحبيب وقالت :

— انه جميل ، أليس كذلك ؟

فهز أبو قحافة رأسه وقال :

— بلى هو فى غاية الجمال •

وقد راحت أهازيج الفرح وأناشيد الحياة تخفق بين جنباته ،
فقد صار للدنيا طعم لذيذ جديد يرجو أن يدوم •
ومرت أيام وزوج أبى قحافة سعيدة كل السعادة بالصبى ،
وفجأة خطر على قلبها فكرة موت الوليد فانقبض قلبها وطافت
بها موجة من الرعب والفزع ، فاذا بها تخطف ابنها وتضمه الى
صدرها كأنما تحميه من غوائل القدر ، وكأنما لم يكن ذلك يكفى
فاستقبلت به الكعبة ثم قالت :

— اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لى •

وراح الخوف ينقشع رويدا رويدا ليحل الهدوء والطمأنينة
والأمن ، ولينبت الأمل فى الفؤاد الواجب ألوهان • ونظرت الى
وجه الصبى فاذا بوجهها يشرق بالابتسام ، واذا بها تهز وتقول :
— عتيق عتيق • • ومنظر أنيق •

فبدا لها كأن الكون كله يغنى غناء يفوق غناء كل قيان مكة ،
ولا غرو فغناء القيان ينسكب من الأذن الى القلب أما هذا الشدو
فهو من الروح الى الروح ، من قلب الوجود الى القلب الودود •
وفى اليوم الثامن من ميلاد الصبى حمل أبو قحافة ابنه على
ذراعيه وراح يطوف به حول الكعبة ، ثم دخل به الى جوفها وراح
يبتهل الى هبل أن يطيل فى عمره وأن يهبه له ، واستمر فى دعائه
وتحدرت دموعه على وجهه ، وتساقطت على الوليد الذى يضمه
الى صدره فى حنان •

وأولم أبو قحافة وليمة لبنى تيم ، فجاء الرجال والنساء يهتئون
بالمولود ، وقال النسوة الأمه :

— ٢١ —

— ما اسمه ؟

فقال الأم وقد توجت شفتيها بسمه حلوة ولاح فى وجهها
سرور عميق :

— عتيق •

وقال الرجال لأبيه :

— ماذا سميته ؟

فقال الأب فى انشراح :

— عبد الكعبة •

ولم يعرف الوليد فى مستقبل حياته بعتيق ولا بعبد الكعبة ،
بل عرف بأبى بكر الصديق •

— ٣ —

لاحت شعرة بيضاء فى الدجى ثم انتشر الشيب فى مفرق
الفجر ، وقام أبو طالب من نومه وراح فى عماية الصباح يتمسح
بتمثال الاله الذى كان قريبا منه ويدعوه أن يرزقه ، فقد كان
أبو طالب كثير العيال •

وانتشر فلق الاصبح وارتفعت الشمس غضة من وراء جبال
مكة ، فخرج أبو طالب الى الحرم وطاف بالبيت ثم انطلق الى
سوق مكة الضيق المسقوف ليفتح دكانه ، فقد كان أبو طالب
عطارا وكان خبيرا بأصناف الطيب والبخور والغوالى والندود ،
يفرق بين أنواع المسك ما ورد من التبت وهو أفضلها وأرفعها

وما ورد من الهند وما ورد من الصين ، وبين العنبر وأنواعه ومعادنه ، وبين العود وأنواعه وأصنافه وأوصافه من هندي وسمندوري وقماري ، كان يرى أن العود الهندي هو أرفع أجناس العود وأفضلها وأجودها وأبقاها على النار وأعلقها بالثياب ، ولم يكن ذلك العود معروفا لسواد الشعب بل كان لبعض الخواص من سادات مكة .

وكان أبو طالب يخرج في قوافل قريش لينتقى أجود أنواع العطارة والطيب ، وكان يترك دكانه في ذلك الوقت لبعض ولده ، وكان كهنة الكعبة يفضلون شراء البخور من عند أبي طالب ، فاللبان الذي يستورده من اليمن يفوق كل أنواع البخور الواردة من بلاد أخرى .

وقد وسعت مهنة العطارة معارفه عن البلاد فقد كان كل صنف من أصناف العطارة ينسب الى البلد الذي ورد منه ، فعرف التبت والهند ومدنها ، والصين ومدنها ، وفارس واليمن ومصر والشام ، وقد يسرت له رحلاته الاحتكاك بأهل البلاد التي نزل بها أو شدد الرحال اليها ، فعرف بعض عادات الشعوب وطباع البشر ، واستمد من تجاربه حكمة قلما كانت تتوفر لعربي جاور الحرم ولم يخرج عن نطاق مدينته المقدسة .

وجاء العباس بن عبد المطلب الى دكان أخيه يلتمس الخضاب لأبيه ، ووقف ينظر الى ما يفعله أبو طالب فلم تتشرح نفسه الى ذلك العمل ، فهو على الرغم من حداثة سنه يفضل أن يخرج في قوافل قريش حتى يصبح من أغنيائها ثم يقرض أمواله بالربا الى

المحتاجين من أهل بلدته ، فهو أحق بذلك من بنى ثقيف الذين يأتون من المطائف لا قراض بنى المغيرة وغيرهم •

وأخذ العباس الخضاب وأنساب فى السوق وهو يتلفت ، فما كان يهتم بحوانيت الأقمشة والأثاث والطرف الواردة من كل بلاد الأرض ، وكان يستوقف نظره الصيارفة والمرابون الذين يقرضون الأموال ، وقد يسر له حبه لهذه المهنة الوقوف على كثير من أسرارها ، بل كان ذلك الحب عوناً له على الاجتهاد فى تعلم القراءة والكتابة عند المنتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حتى يستطيع أن يبرم العقود ويوقع المواثيق فى مستقبل حياته •

وعاد العباس بالخضاب الى أبيه فراح عبد المطلب يسود شعره الأبيض الذى ينعى إليه نفسه ، ثم خرج الى الكعبة وذهب الى حيث فراشه •

كان ندماء عبد المطلب وبنوه يجلسون حول الفراش لا يجلسون عليه اجلالاً لشيخ بنى هاشم ، وكان محمد بن عبد الله وحمزة بن عبد المطلب بين الجالسين ، فقام محمد وجلس على الفراش فلما رأى أعمامه ذلك أخذوه ليؤخروه عنه ، وإذا بعبد المطلب قد أقبل ورأى ذلك منهم فقال :

— دعوا ابنى فوالله ان له لشأناً •

وجلس عبد المطلب وأجلس محمداً معه على فراشه وراح يمسح ظهره بيده وهو يحدث أصحابه ، وقام محمد ليلعب فجعل عبد المطلب يختلس النظر اليه بين لحظة وأخرى فيشرق وجهه بالابتسام ، فقد كان يسره كل ما يصنع •

وذهب عبد المطلب ليتناول طعامه ، وقبل أن يمد يده اليه تلفت فلم يجد محمدا فقال :

— على بابنى •

فأثابوا به اليه فراح عبد المطلب وحفيده يأكلان فى جفان واحد •
 وضاق محمد على الرغم من حداثة سنه بحياة الفراغ التى يحيياها بمكة ، أنه كان فى بنى سعد يخرج مع اخوته يرعى غنم حليلة ، وكان يذهب مسرورا ويعود مسرورا فقد كان يجد متنفسا لذلك الحنان الفياض فى نفسه ، وكان اذا ما مسح بيده على حمل وديع تحركت فى قلبه الرأفة ، واذا ضمه الى صدره أو على يديه أحس أن فؤاده قد لان ، وأن رحابة وجدانه كانت تزداد على مر الأيام وتمتلئ رحمة وسلاما •

انه يستشعر شوقا الى السماء ونجومها ، والى الجبال ووديانها ، والى المراعى الخضراء وانبلاج الفجر وغروب الشمس ، والى زفير النسيم وهبوب الرياح ، فهو محب لهذا الكون ، وانه كثيرا ما يذوب فيه حتى يحس أن نبضات قلبه أن هى الا بعض خفقات روح عظيمة تسرى فى كل الوجود •

وأففى الى جده برغبته فى رعى غنم أهله فرحب عبد المطلب وهو مسرور •

وتتنفس الصباح وخرج محمد من داره بعد أن قبل أمه وانطلق الى حيث كان رعاة بنى هاشم ، وذهب معهم ليرعى الغنم فى أجياد :
 وراح يرعى الغنم ويتعلم الصبر والأناة ويقضى على ذلك الظلم الغريزى الذى ركب فى بنى الانسان ، فقد كان يرعى أضعف البهائم ويتعاطف معها ويفيض عليها من كنوز قلبه ويعيد

شاردها الى القطيع فى هدوء ، فعمرت السكينة نفسه وتسربل قلبه بالوقار .

وصار محمد سعيدا بحياته ، يرتشف حنان أمه اذا ما آوى اليها فى الليل أو فى النهار ، وينتشى فؤاده بالعواطف الرقيقة التى تسبغها عليه بركة الحبشية جارية أبيه عبد الله ، وينعم بالحنان الدافق الذى يغمره به جده عبد المطلب ، وبالحب العظيم الذى يحوطه به أعمامه .

وكان حمزة بن عبد المطلب أقرب أعمامه الى قلبه فهو فى مثل سنه ، وكان يلعب معه اذا ما جاءت أمه لزيارة ابنة عمها آمنة بنت وهب ، وكان يحب عمه العباس فهو وان كان أسن منه بسنتين فكثيرا ما كان يمضى أوقات فراغه معه وكثيرا ما ذهب معه الى دكان عمه أبى طالب .

وحبه لعمه أبى طالب يفوق حبه لأعمامه الكبار ، فالساعات التى يقضيها فى رعاية أبى طالب كانت من أحب ساعات حياته ، كان يستشعر فيه حنان الوالد ، ذى القلب الكبير والحنان العظيم . كان أبو طالب عطارا وكان شاعرا من أفصح شعراء بنى هاشم ، فاذا ما سمر أبناء عبد المطلب كان أبو طالب يقوم فيهم ويلقى قصيدة من قصائده فتتهل الوجوه بالفرح ، فقد كانت القبيلة اذا تبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة وأجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن بالأعراس ، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم .

ولم يكن أبو طالب أول شاعر فى بنى عبد المطلب فقد كان

الزبير بن عبد المطلب شاعرا مثقلًا شديد العارضة قذع الهجاء ولكن محمدا لم يكن يحس راحة اذا ما سمع هجاء عمه الزبير ، فى حين أنه كان يستريح الى شعر عمه أبى طالب وان كان لا يهتم بتعلم الشعر وما ينبغى له •

وكان يستريح الى امرأة عمه أبى طالب ، فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف كانت تهش له وتبش فى وجهه وترحب به ترحيبا صادقا اذا ما جاء لزيارة أبناء عمه ووالدهم العظيم ، وكان شيخ بنى هاشم يظن الى علاقة الحب التى بين محمد وعمه أبى طالب وزوجه فاطمة ، فكان يبارك ذلك الحب ويعمل على تغذيته ليكفل أبو طالب حفيده من بعده •

واستمر محمد فى رعى الغنم لأهله فى أجياد ، واذا بالمراعى تذبل وتصفى ، واذا بالجفاف ينتشر فى الوديان وعلى سفوح الجبال فقد بخلت السماء فانقطع المطر وباتت الابل والغنم لا تجد ما تأكله ، ونزل بأهل مكة هم ثقيل فرأوا أن يفرعوا الى آلهتهم يستسقون بها السماء ويطلبون ببركتها الماء •

وطب الكهنة الى أصنام الآلهة وأطلقوا البخور وأقيمت الصلوات وارتفعت الدعوات وتجاوبت فى أرجاء مكة الابتهالات ، وراحت العيون ترقب السماء فاذا هى صافية لم تظهر فيها سحابة ولم ينسدل على وجهها نقاب ، فغامت وجوه أهل مكة بالأسى وانتشرت فى قلوبهم الأحزان •

وجاء السحرة يتوسلون بسخرهم ويرجون سقوط المطر ؛ فطالما انحبس فأنزله وطالما هطل حتى كاد ينزل بهم البوار فأوقفوه ، فأخذوا حطب السلع والعشر فحزموهما وعقدوهما فى أذنان بقرة

وأضرموها فيها النيران وأسعدوها فى جبل قبيس قبل المغرب ،
واندفع الناس خلفها يستمطرون آلهتهم ويدعون أحر دعاء وقد
شخصوا بأبصارهم الى السماء يترقبون أن تبرق وأن يبدو سنا
البرق كما بدا سنا النار التى تضطرم فى البقرة • وكتمت الأنفاس
وراحت العيون تجول فى لهفة فى القبة الزرقاء وهى تفيض
بالرجاء ، الا أن النار أكلت البقرة وخمدت دون أن يبرق البرق
أو يأتى الغيث ، فعاد الناس مطرقى الرؤوس قد خاب سعيهم
ومزقت الأحزان أحشاءهم •

ونزل بأهل مكة البلاء بعد أن راحت خيولهم وابلهم وغنمهم
تتنفق من قلة الطعام ، انها سنة جذب قد آذابت الشحم وأكلت
اللحم وأنقت العظم • ودخلت رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم
زوجة عبد المطلب لتنام ، فبينما هى راقدة مهمومة اذا بها تسمع
هاتفا يصرخ بصوت صحل يقول :

— ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاما أبيض أشم العرنين له
فخر يكظم عليه ، ألا فليخلص هو وولده وليدلف اليه من كل بطن
رجل ، فليشئوا من الماء وليسموا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعة
ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل وليؤمن القوم
والا فغثثم أبدا ما عثثتم •

فأصبحت مذعورة قد قف جلدتها ووله عقلها ، وراحت تنقص
رؤياها على من عندها فقال :

— هذا شبيهة الحمد •

وذاع خبر تلك الرؤيا فى قريش فانقض الناس على عبد المطلب
من كل بطن رجل ، واغتسلوا وتطيبوا وانطلقوا الى الحرم واستلموا

الحجر الأسود وطافوا بالبيت سبعا ، ثم تأهبوا ليصعدوا الى جبل قبيس مع عبد المطلب ومحمد بن عبد الله ، فقد أصر عبد المطلب ألا يبتهل الى ربه إلا وحفيده معه ، فقد كان شيخ قريش يؤمن في أغوار نفسه ببركة ابن عبد الله ♦

وراحوا يرتقون أبا قبيس وقد أحاط الناس بعبد المطلب وحفيده حتى قروا بذروة الجبل ، فقام عبد المطلب فاعتضد ابن ابنه محمداً فرفعه على عاتقه ، ثم قال في صوت متهدج يفيض بالايمن :

— اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل ، وهذه عبداؤك واماؤك بعذرات حرمك يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن علينا غيثا مريعا مغدقا ♦

وشخص محمد ببصره الى السماء كأنما يسأل ربه أن يستجيب لدعاء الشيخ ، كان يستقبل السماء بكل كيانه ووجدانه وكل خلجة من خلجاته فقد كان في أعرق صلاة وان لم تتحرك شفتاه بكلمة ♦

وهبطوا في الجبل فاذا بالرياح تسوق السحب ، وما ان عادوا الى الحرم حتى انفجرت السماء بمائها فانفجرت العيون بدموع الفرح وخر الناس لله سجدا ♦

— ٢٩ —

— ٤ —

وقفت آمنة فى الشباك ترنو الى الكعبة وترقب الطريق ، فهى تنتظر أوبة ابنها الحبيب لتنفى اليه بما عقدت عليه العزم من أمر السفر الى يثرب لزيارة قبر زوجها الراحل ، فقد آن الأوان ليعرف محمد مثنى أبيه •

انها حدثته عن أبيه أحاديث مقتضبة تتفق مع سنه ، ولكنها عزمت أن تقص على ابنها فى هذه الليلة قصة عبد الله ونذر عبد المطلب أن يذبح أحد بني لاله اذا ما بلغ عددهم عشرة ، والضرب بالقداح على أبناء عبد المطلب وخروج السهم على عبد الله ، وفداء فتى قريش بمائة من الابل ، ثم خروج عبد الله فى القافلة المنطلقة الى الشام وموته فى دار من دور بنى النجار أخوال عبد المطلب •

ان ذلك الحديث ينكأ جرح قلبها ويجدد أحزانها ، ولكن كل ألم يهون فى سبيل أن يعرف محمد حقيقة منبته ، وأنه قد جاء من أشرف أبوين وأفضل حيين فى العرب : زهرة وبى هاشم ، وأن يعرف تلك الصلة التى تربط بينه وبين الخزرج فى يثرب ، فجده عبد المطلب حريص على أن تظل الأسباب متصلة بين بنى هاشم وبين بنى النجار أخواله ، وقد بان فى وجهه الرضا لما استأذنته فى أن تخرج بمحمد لزيارة قبر أبيه ، وأوصاها بأن تنزل فى دار النابغة فهو سيد أسياذ بنى النجار ، وسيصره أن يستقبله ابن عبد الله فى داره •

ودارت بعينيها فى المكان فأحسست كأن أنفاس عبد الله تتردد فيه ، انقضى ست سنوات وشهران منذ أن ودعها عبد الله قبل أن يخرج الى الشام الوداع الأخير ولكن طيفه ظل فى البيت يغدو ويروح ، انه فى خيالها لا يريم ولا ينثنى ، وما أكثر اللحظات التى تناجيه فيها تحدثه عن ابنهما الحبيب ، وما أكثر ما زارها فى منامها وما أكثر ما ذرفت عليه الدموع .

وشعرت بعبراتها تسيل على خديها فمسحتها بظهر يدها ثم عادت ترصد الطريق ، فإذا بمحمد قد أقبل يتكفأ فى مشيته كأنما ينحدر على سفح جبل ، قد وسع من خطوه يسير دون أن يتلفت فلم يعرف منذ نعومة أظفاره التسكع بل كان يقصد هدفه على الصراط المستقيم ، فأضاءت جوانب آمنة بالنور ولعبت النشوة بأوتار قلبها ، فإذا بفرح دافق يملأ وجدانها ويتألق فى عينيها ويتوج شفتيها بابتسامة رقيقة عذبة حلوة تفيض بأنبل مشاعر الوجود .

وخفت آمنة لاستقبال الوافد الكريم ، ففطنت بركة الى أن محمداً قد آب فانشرح صدرها وهرعت خلف سيدتها لترحب بالصبى الذى تفتحت له نفسها منذ أن احتضنته فى تلك الليلة التى ولد فيها ، وبدا كأن الكون قد أشرق بالنور .

وضمت آمنة ابنها الى صدرها فى حب عميق ، وظلت بركة ترقبهما فى انفعال شديد حتى بللت الدموع عينيها ، وفطن الصبى الى وجود بركة فذهب اليها وارتمى فى حضنها فقبلته وراحت تشمه فى نشوة ، فقد كان ينبعث منه أريج أطيب من المسك وأزكى من كل ما فى الأرض من بخور .

ووضع الطعام وجلست حوله آمنة وبركة ومحمد ، فكانت آمنة تقدم الى حبيبها أفضله ولكن محمداً لم يكن ليحفل به ، فهو يتناول منه ما يقيم أوده وكثيراً ما كان يكتفى ببضع تمرات ، وكانت آمنة تعجب من أمره فهو ينمو ويغلظ ويشب شباباً لا يشبه من كان فى مثل سنه من الغلمان ، وأن كان قليل الطعام •

وذهبت آمنة ومحمد الى غرفتهما ، وراحت الأم تقص على ابنها قصة هاشم بن عبد مناف وذهابه الى يثرب وزواجه من سلمى الخزرجية ومولد عبد المطلب عند أخواله بنى النجار ، وموت هاشم وذهاب المطلب الى يثرب وعودته بابن أخيه الى مكة ، وتولية عبد المطلب السقاية والرفادة وحفر زمزم وولادة أبيه عبد الله •

واستمرت تروى قصتها وقصة الذبيح عبد الله فى تأثر وانفعال ومحمد يصغى اليها فى انتباه ويلقى عليها أسئلة ذكية تنم عن رجاحة عقله ، كان فى السادسة من عمره ولكنه بدا فى عينى أمه رجلاً على استعداد لأن يحمل على كتفيه أضخم المسئوليات ، وأنهت حديثها معه بأنهما ذاهبان الى يثرب لزيارة قبر أبيه ، ولتوطد الأسباب بينه وبين أخوال جده من بنى النجار فمقد يفزع اليهم يوماً لينصروه كما نصروا جده يوم أن أراد عمه نوفل أن ينتزع منه شرف السقاية والرفادة ، فجاءوا الى مكة وأيدوا حق ابن أختهم وقضوا على نوازع الطمع التى كانت قد تحركت لسلب حق عبد المطلب •

وجهزت آمنة راحلتين ، راحلة اعتنت أشد العناية بهودجها الذى صنع من أغصان الشجر لتحمل محمداً الحبيب من لفع الشمس وعصف الرياح • أنه سيكون فى رعايتها على ظهر تلك

الراحلة يؤنسها طوال الطريق ويملاً جفاف حياتها نوراً وأملاً ،
وراحلة لبركة وما يحتاجون اليه من زاد طوال الرحلة حتى يبلغوا
• يثرب •

وبانت آمنة تنتظر خروج القافلة المنطلقة الى يثرب فى لهفة
فقد كانت فى شوق لزيارة عبد الله لتذرف عليه دموعاً لم ترقأ
مذ جاء اليها الناعى يحمل اليها أسوأ نبأ قرع أذنيها طوال حياتها ،
ان أباهما وهبا قد مات وقد أحست حزناً لفراقه ولكنها لم تحس تلك
النار التى تلظت فى أحشائها بعد أن نعى اليها عبد الله • كانت
بضعة من وهب بيد أن ذبيح قريش كان على الرغم من قصر العهد
الذى عاشاهما معاً الروح الذى يخفق بين هملوعها •

وراح محمد يرقب ذلك اليوم الذى ستخرج فيه القافلة من
مكة الى المجهول فى أمل ورجاء ، انه حمل فى يومه الثامن الى
أرض هوازن وتفتحت عيناه أول ما تفتحت على خيام بنى سعد
وعلى الصحراء المترامية التى تمرح فيها حرية لا تحد ، وعلى
الجبال السامقة الجرداء بوجهها العابس الذى ينطق بقسوة الحياة ،
فراح منذ أن تعلم المشى يحاول أن يقهر تلك الجبال ، وقد استطاع
أن يجلس على ذروتها ويرنو الى السماء فى تطلع ورجاء كأنما
تهفو نفسه القوية الى أن تربط الأسباب بينها وبين ما فوق السموات
قبل أن تعود به أمه حليلة الى أمه آمنة بنت وهب •

تفتتح قلبه فى بنى سعد لأخيه عبد الله والأخته أنيسة وأخته
الشيماء ولأمه حليلة ولأبيه الحارث وغمات بنت أبى ذؤيب ، انه
لا ينسى تلك الأيام السعيدة التى عاشها فى كفهم • وتفتتح قلبه
الكبير بعد أن عاد الى مكة لعمه حمزة وعمه العباس ولصبيان بنى

هاشم ، ولم ينسه أهله اخوته الذين شب بينهم فقد كان يحدث
آمنة عنهم حديث وفاء وحب ، وما دار بخلده فى تلك الأيام أنه قد
شرفهم برضاعته فيهم .

وان قلبه لعلى أهبة لأن يتفتح لهؤلاء القوم الذين سيثبدون
الرحال اليهم ، هؤلاء الذين لم تتق عيناه عليهم ولا يعرف الطريق
اليهم ، يكفى أن أباه قد لفظ أنفاسه بين أيديهم وأنه قبر فى
أرضهم ليحبهم ، فقد كان ذا قلب غنى بمشاعر طيبة رحيمة تفوق
كل ما فى الأرض من كنوز .

انه يحب كل ما يمد اليه عينيه ، السماء بنجومها ، والأرض
بجبالها ووديانها ، والنباتات بأشجارها وعشبها ، والطيور أليفها
وجارحها ، والحيوان صغيره وكبيره ، والانسان طيبه وشريره ،
فهو يتناسق مع الوجود ويتعاطف مع الكون ويشتهى أن يضم
العالم كله الى صدره أو يحتويه بين ضلوعه .

وجانت ساعة الرحيل فقافلة قريش المنطلقة الى يثرب قد
أناخت خارج الحرم تنتظر أذن عبد المطلب ببدء الرحلة المباركة
الميمونة ، فراحت آمنة تلقى على دارها نظرة وداع واذا بأحداث
ذلك اليوم الذى جاءت فيه الى الدار مع عبد الله أول مرة تطفو
على سطح ذهنها ، انها ترى عبد الله وهو يحنو عليها يسير بها فى
الحجرات ليربها عش الزوجية الجميل ، كانت سعيدة غاية السعادة
انطلقت فى ذلك اليوم أمانيتها وأحلامها من عقالها فراحت تحلق
مجنحة فى أجواء مستقبلها ، فرأت عبد الله فى مثل سن عبد المطلب
يجلس على فراشه فى ظل الكعبة وحوله بنوه وقد بلغ عددهم
عشرة !

(البيتيم)

كانت رؤى عذبة حبيبة ، وكان عبد الله يـغـذيها بأعـذب التصورات ، ولم يخطر لها على قلب فـى تلك الأيام أن الموت يتربص لفتى الأحلام ليقوض كل ما بنت فـى الهواء ، ذهب عبد الله دون أن يئوب وترك فـى أحشائها جنينا كادت تتلفه الأحزان ، ولكنه بقى لها ليكون عزاء عن قسوة الأيام •

كانت تحلم بأن تنجب عشرة لعبد الله ولكنها لم تلد له غير محمد ، وانها لترجو أن يكون محمد خيرا من عشرة ، وأن تتحقق تلك الهواتف التى سمعتها ليلة أن حملت به وليلة أن وضعته أن يصبح سيد هذه الأمة ، وفاض تأثرها فضمت محمدا إليها وسالت عبراتها •

وغادرت آمنة الدار ومحمد فـى يدها وبركة من ورائها ، وما ان أغلق الباب خلفها حتى انقبض صدر آمنة وأجست كأن باب حياتها قد أغلق ، انها كانت متلهفة الى الانطلاق الى قبر الحبيب ، ولكن ما ان أوشكت الرحلة على الابتداء حتى استشعرت قلقا ورهبة لا تدرى لهما سببا ، ترى أتذهب دون عودة كما ذهب عبد الله ، أم انها تخشى أن يلحق ابنها الحبيب مكروه فـى الطريق ؟

وهبطوا الى الطريق الذى يقود الى باب ابراهيم ولاحت لعيونهم الكعبة وبئر زمزم وجبل قبيس ، فراح محمد ينظر الى البيت العتيق وقد تهال وجهه بالفرح فسيطوف بالحرم ثم يلحق بالقافلة التى ستحملة الى قبر أبيه وأخوال جده عبد المطلب من بنى النجار وإلى أناس سيحبهم ويحبونه • وتحركت شفتا بركة بالدعوات بينا التفتت آمنة خلفها وألقت على دارها نظرة وداع وفى الحلق غصة وفى العينين دموع •

واستلم الثلاثة الحجر الأسود ثم راحوا يطوفون بالبيت ، كانت آمنة تبتهل الى رب البيت أن يحفظ محمداً وأن يبارك لهم فى سفرهم وأن يعيدهم سالمين ، وكان محمد يصنى الى دعوات الطائفين بينا كانت بركة تسير خلفهما وقد لاح عليها وجوم فقد شغل ذهنها بالرحلة ومتاعبها عن الدعوات والابتهاالات والمناجاة ؟

وانتهوا من طواف الوداع فذهبوا الى حيث أناخت القافلة واتجهوا الى راحلتيهما ، وقبل أن يعتلوا ظهريهما جاء عبد المطلب يقوده عبده بعد أن ذهب بصره وحوله بعض بنيه ليودعوا آمنة ومحمد بن عبد الله •

مد عبد المطلب يده ومررها على رأس حفيده فى رفق وحنان ، ثم احتمله بين ذراعيه وضمه الى صدره وقبله فى حب وراح يشمه فى وجد كأنما يريد أن يملأ روحه بريحه ما دام لا يستطيع أن يملأ منه عينيه •

وراح عبد المطلب يحدث الأرملة الشابة فى صوت متهدج يفيض رحمة ، يوصبها بمحمد ويحملها سلامه الى أخواله من بنى النجار ثم يتمنى لها أطيب التمنيات • وحان أوان الرحيل فتقدم أعمام محمد ليودعوه فأحست آمنة رقة تكتنفها فسالت من مآقيها العبرات •

وسارت القافلة فالتفتت آمنة خلفها وألقت نظرة طويلة على الكعبة فاستشعرت وحشة وكان يداً قوية تهصر فؤادها ، وعجبت لذلك الحزن الذى ران عليها ولتلك الوسواس التى انبعثت فى صدرها تفح فحيح الأفعى تهمس بأن نظراتها التى تلقىها على الوادى

المقدس هي آخر ما بينها وبين ذلك الوادى الحبيب ؛ انه فراق
لا لقاء بعده •

وحاولت آمنة أن تنتزع نفسها من تلك المشاعر التى تهجس
فى وجدانها فراحت تداعب محمداً الذى كان الى جوارها فى
هودجها وتبش له وتحادثه وتصغى الى حديثه ، الا أنها ألقت
نفسها تلتفت خلفها وترنو الى جبل قبيس رنوة طويلة كأنما تقبله
بعينيها قبله فيها رحيق الروح وذوب النفس وكل ما فى الفؤاد من
عواطف الرقة والتعاطف والوداد •

وفطنت بركة الى كثرة تلتفت سيدتها فحسبت أنها تكثر من
التلفت لتعود ، فقد كان القوم يعنقدون أن كثرة التلفت توجب
العودة ، فرففت على شفتى بركة بسمة هادئة وراح قلبها يبتهل
الى الوجود أن يرحم ضعف الأم ووحيدها •

وسرت القافلة فى الكون العريض ومحمد يرعى نجوم السماء
فى الليل ويبتهج قلبه للشروق وتتهلل نفسه بالفرح وهو يرقب
الغروب ، انه يذوب فى الوجود ويتناسق مع كل ما حوله ويستشعر
بتعاطف عجيب بينه وبين كل ما يمد اليه عينيه من رمال وصخور
ونخيل وآبار وعيون وسادة وعبيد •

واتجهت القافلة ناحية ساحل البحر ، ودب فى الرجال والنساء
نشاط ، وارتفع صوت الحادى يحث الابل على الاسراع ، والتفت
محمّد بعينيها الجميلتين الى أمه وكان فيهما تساؤل كأنما يقول لها :
فيم هذا النشاط ؟ وفطنت الأم الى ما يريد فقالت :

— مناة • الهة الأوس والخزرج •

وكست سحابة من الأسى وجه آمنة بنت وهب فذكر « مناة »

أعاد الى ذهنها فكرة الموت ، فمناة الهة المنايا ومخبآت القدر ، ترى فيم هذا الخوف الذى يجتاحها ؟ وما الذى يخبئه لها القدر فى رحلتها ؟ أنها منقبضة النفس منذ أن غادرت دارها فى مكة ولا تدرى لذلك الأسى من سبب ، أذهابها الى قبر الحبيب عبد الله هو علة ذلك الحزن والانقباض ؟ ! أنكأت الرحلة جراحات القلب والنفس والوجدان ؟ ! كان عبد الله نور العينين وهواء الرئتين وروح الروح فلا جرم أن سحت الدموع واكتأبت النفس وانقبض الصدر وغلف كل وجودها سواد ♦

وبالقرب من الساحل أناخذت القافلة بين المدينة ومكة ، وأفصح الحديث الدائر بين الناس أنهم بناحية المثلث بقديد ، وما كادت أقدام القوم تستقر على الأرض حتى انسبوا فى خشوع ناحية صخرة منصوبة على ساحل البحر قد وقف عندها كهان يحرقون البخور ويتمتمون بصلوات ♦

ونظر محمد الى آمنة ، فما رأى من قبل مثل هذه الصخرة الموقرة التى لها سدنة يعظمونها وأناس ينحرون عندها ويطوفون بها ويعلقون عليها الهدايا ، فقالت له :
— انها مناة ♦

كان هذا الصنم معظما عند الأوس والخزرج والأزد وغسان ، فكانوا يحجون الى الكعبة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يخلقون رعوسهم ، فاذا نفروا أتوا صنم مناة وحلقوا رعوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما الا بذلك ♦

وكانت قريش وهذيل وخزاعة وأزد ثنوعة وغيرهم من الأزد تعظم ذلك الصنم ، بل كانت كل قبائل الحجاز تعظمه ، فراح رجال

القافلة يطوفون حوله ويهدون اليه الهدايا ومحمد ينظر من بعيد الى جموع الخاشعين المبتلهين لصخرة من الصخور .
انه لا يدري ما الذى منعه من أن يطوف مع الطائفين وأن يخر ساجدا مع الساجدين ، كل ما يدريه أن صدره لم ينشرح لذلك الذى يفعله قومه وأنه لم يحس وهو ينظر الى الصنم تلك الاحساسات المشرقة المتلهلة بالفرح التى يستشعرها كلما سار فى الكون ومد عينيه الى السموات والأرض وما بينهما ، انه كلما هام فى الوجود أحس أن روحا تسرى فيه بينا لا يرى فى ذلك الصنم الا حجرا ميتا بلا روح .

واستأنفت القافلة رحلتها وراحت آمنة تحدث محمداً الحبيب عن آلهة قومه ، وأن للكون الها عظيما خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وأنزل المطر من السماء أحيا به الأرض بعد موتها ، وأن الأصنام التى يعبدونها بناته يشفعن للناس عنده . وظل محمد يصغى الى أمه حتى لاحت أرباض يثرب .

وانسابت القافلة بين النخيل فى الواحة الخضراء حتى بلغت منزلها ، فأناخ القوم رواحلهم بينا أنطلقت آمنة ومحمد وبركة الحبشية على بعيريهما الى دار النابغة أحد سادات بنى عدى ابن النجار .

وراح محمد يتلفت وهو فى الطريق يديم النظر الى الآطام المنتشرة فى كل مكان ، وكأن المدينة ميدان قتال ، ففى كل حى فيها تقوم حصون تنسب الى أصحابها من الأوس والخزرج وقبائل اليهود ، وبين تلك الحصون بنيت الدور والأسواق ، وقد مس أذنيه خريف الماء كأنه صوت ملائكى أتى من السماء .

وخفق قلب آمنة خفقات شديدة ، أنها على بعد خطوات من

قبر الحبيب ، قبر عبد الله الذى كتب عليه أن يموت غربيا قبل أن
تكتحل عيناه برؤية ابنه الذى هفت اليه روحه قبل أن يراه ، والذى
طالما سبحا فى بحور الخيال يتحدثان عن ذلك الوافد الكريم الذى
بشرت به آمنة لما حملت به ، ولكن لم يبلغ بهما الخيال أن يتصورا أن
هذه المدينة التى ولد فيها عبد المطلب وقبر فيها عبد الله ستحمل
يوما اسم ابنهما الحبيب ، وأن منها سوف يشرق نور الرسالة التى
سيجىء بها محمد بن عبد الله ليغمر العالمين .

ووقفت الراحلتان أمام دار النابغة ، فخف بنو النجار لاستقبال
آمنة وحفيد ابن أختهم عبد المطلب ، ورحب النسوة بزوجة عبد الله ،
وما أن دخلت آمنة ومحمد وبركة ليستريحوا حتى تجددت أحداث
وأحزان ، أحداث مضت عليها ست سنوات وأحزان نامت تحت رماد
الزمان ، فقد راح النسوة يقصصن على القادمين كيف حمل عبد الله
وهو مريض الى هذه الدار ، وكيف ظل أكثر من شهر وهو مسجى فى
الفراش ، وما دار بينه وبين أخيه الذى جاء من مكة ليعود به من
حوار ، والتفتت امرأة من بنى عدى بن النجار الى آمنة وقالت لها
انه كان يذكر اسمها على الدوام ، فطفرت الدموع الى مآقى
الأرملة التى لم يجف لها دمع مذ ذهب عبد الله .

والتقط القادمون من الصحراء أنفاسهم ثم قاموا ليزوروا قبر
فتى قريش الذى دفن فى دار النابغة ، فانطلقوا وقد خيم عليهم
وجوم ، وامتنع وجه آمنة واشتد وجيب فؤادها واثارت عواطفها
حتى انها قبضت على محمد بيد متشنجة ، وأحست بالأرض تميد
تحت قدميها فاستندت بيدها الأخرى على بركة ، وراحت تتقدم فى
تؤدة فقد أشفقت على نفسها من هول ذلك اللقاء .

— ٤٠ —

كان خيال عبد الله يملأ أقطار المكان ، انها تكاد تشم ريحه ،
وتحس أنفاسه ، وتشعر بمس أنامله ، وتسمع نجواه ، انه هنا فى
خيالها ... فى ضميرها ... فى سويداء فؤادها ، انه لم يمت ،
انه حى فى أعماقها ، انه نبضات قلبها وخفيق وجدانها •

ولاح لعينيها قبر الحبيب ، وتبخرت الأوهام وانجلت لها الحقيقة
المرّة ، ان عبد الله هنا تحت الثرى ، قد ذاق الردى ، وفارقها فراقا
ليس بعده لقاء ، فأحست بالأسى يعتصر فؤادها وبالحزن يجثم على
صدرها وبوقده نارا فى حلقها ، وأرادت أن تكبح عواطفها رأفة
بابنها الحبيب ولكن ذلك كان فوق طاقة البشر فارتمت على القبر
تبكي أحر بكاء •

وخنقت بركة عبراتها فانتحبت ونشجت ، وملاّت الرحمة قلب
محمد فبكى لبكاء أمه ، ثم هرع اليها وارتمى معها على قبر أبيه
يذرف الدموع السخينة ، فضمته آمنة الى صدرها وسالت عبراته
وعبراتها لتروى رسم الفتى الغريب الغالى المتعطش للحنان •

— ٥ —

توطدت الصداقة بين محمد وغلماى بنى النجار فكان يخرج
معهم الى المروج والى جنات يثرب فيرى المزارع وقد نسج الربيع
لها ثيابا خضراء وصفراء بديعة اللون ، تأخذ العين وتشرح الصدر
وتبده الوجدان بآيات الأرض ، وقد رأى الباقلى كاللؤلؤ المنضد
فى طى أصداف من الزبرجد ، وأوراق ورده خواتم من لجين

فصوصها خرزات سود ، وسنابل الشعير كأنها سلسلة مصفورة من
عنبر ، والخيار كأن ظاهره زبرجد أخضر وكأن باطنه من البلور *
ورأى جداول الماء وقد انعكست عليها أشعة الشمس فبدت كفضة
تموج بالتبر ، فكان بقف الساعات يرنو الى الأعناب والنخيل وأوراق
الشجر والماء الجارى فى القنوات فلا يتحرك خياله تحرك خيال
الشعراء بل كان يمتص رحيق الحكمة من نبض الوجود *

وراح يضرب مع أبناء أخواله فى جنبات المدينة يصغى الى
أحاديثهم عن الحروب التى نشبت بينهم وبين أعدائهم من الأوس ،
فما كان يمر يوم دون أن يتشابك رجل من الخرج مع رجل من
الأوس ، وكان القتال ينشب بين الحيين لأنفه الأسباب *

وكانت الآطام منتشرة فى كل مكان فكان صبيان بنى النجار
يذكرون لمحمد القادم من مكة اسم كل أطم يمرون به ويقولون :

— هذا أطم بنى الأشمى يقال له « واقم » *

ولاح بالقرب من الأطم سعد بن معاذ فازور الغلمان عنه فهو
من أعدائهم الأوس ، وكانت العداوة بين الحيين تغرسها الأمهات
فى قلوب الصبيان مذ أن تتفتح عيونهم على الحياة *

— « الريان » أطم بنى حارثة *

وبصق صبى من الصبيان على الأطم فهو من آطام الأوس ،
وعند قباء وقف الصبيان طويلا ينظرون الى الآطام الكثيرة المنتشرة
بها وكانت كلها للأوس وكان أعظمها أطم « الشنيف » وكان لبنى
عمر بن عوف ، و « الصياصى » ، و « المستظل » وكان لأحيحة بن
الجلاح الجحججى ، وقد التصقت السنة الغلمان بأفواههم ولم تتحرك
بالسباب كلما مدوا أعينهم الى آطام أحيحة ، فقد تزوج أحيحة

الأوسى من سلمى الخزرجية لينشر السلام بين القبيلتين ، وقد أنجب منها ذرية لتكون جسر المحبة بين الأوس والخزرج ، ولكن ذلك الزواج قد فُصم وتزوجت سلمى من بعده هاشم بن عبد مناف وأنجبت منه عبد المطلب جد محمد بن عبد الله ، ذلك الفتى الذى جاء مع أمه من مكة ليزور قبر أبيه وليجدد الصلات الحبية بين قريش وبنى النجار أخوال شيخ بنن هاشم •

كان غلمان بنى النجار يعرفون ذلك التاريخ حق المعرفة فكانوا لا يسبون أحيدة على الرغم من انفصام الزواج الذى كان بينه وبين سلمى ، فهم أخوال أبناء أحيدة الذين أنجبهم من الخزرجية ، وكان العرب ينظرون الى الخثولة نظرة احترام واجلال •

ولاح على البعد أطم أسود ، فأشار اليه أحدهم وقال :

— هذا « الضحيان » ابتناه أحيدة بن الجلاح ، بناه أولا من

حجارة بيضاء فسقط ، ويقول فيه :

طويل الرأس أبيض مئسَمَخِرٌ " لو أن المرء تنفعه العقول
وقد أعددت للحسدان حصنا . يلوح كأنه سيف صقيل

وراح محمد يضرب فى جنبات يثرب مع غلمان بنى النجار يمشى فى أسواق المدينة ويتفرس فى وجوه يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، ويشاهد أعمال الصياغة والحدادة التى يقوم بها اليهود ، وينطلق الى جبل أحد فيذكره بجبل قبيس ومكة الحبيبية والبيت العتيق •

كان محمد يخرج كل يوم مع غلمان بنى النجار يسرى فى يثرب كغراشة طليقة وقد فتح عينيه وأذنيه وفؤاده يصغى الى

أحاديث القوم ، حتى اذا ما بلغ ذات يوم ثنيّة الوداع راح غلام يروى ما سمعه فى داره عن سبب تلك التسمية ، قال :

— كان لا يدخل المدينة أحد الا من هذا الطريق وحده ، وكان عليه أن ينهق كالحمار عشرة أصوات فى طلق واحد ، فان لم يعشر بها مات قبل أن يخرج منها ، فاذا وقف على الثنية قيل : قد ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الورد العيسى فقيل له : عشر بها ، فلم يعشر بها وأنشد يقول :

لعمري لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمار ، اننى لجزوع
ثم دخل فقال : يا معشر يهود مالكم وللتعشير ؟ قالوا : انه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشر بها ألا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع الا قتله الهزال . فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

وكان محمد يعود بعد الطواف فى يثرب الى العوالى شرقى وادى بطحان حيث منازل الخزرج وآطامهم ، وكان يمر بأطم المزدلف الذى بناه مالك بن العجلان الذى قتل ملك اليهود ويلقى سمعه الى الغلمان الذين يروون قصة مالك . كان محمد يتطلع الى بيوت بنى سالم بن عوف وآطامهم « الشماخ » و « القوافل » حتى يصل الى دور بنى النجار فيدخل ليلقى أمه آمنة فيرتضى فى أحضانها ويقص عليها ما رآه فى يومه فى مدينة أخواله ، وكانت آمنة تصغى اليه منشرحة الصدر منفتحة النفس تغمرها سعادة عارمة وهى تملأ منه عينها ، فقد كان قرّة نفسها وفؤادها .

وتعلم محمد العوم فى بئر بنى عدى بن النجار وأحسنه ، وكان ينطلق الى بركة جارية أبيه عبد الله ويقص عليها خواطره ، فكانت

ترنو اليه فى حب وكثيرا ما كانت تجوس معه خلال أسواق اليهود وتلحظ تفرسهم فيه ، فكانت توجس منهم خيفة فتضمه اليها كأنما تحميه من عدو يريد به شرا •

وكان مع غلمان من أخواله يلاعب أنيسة جارية من الخزرج على أطم عدى بن النجار ، وعلى الرغم من حداثة سنه فقد كان يمتاز بالنبل الانسانى : يعاون من يحتاج الى المعاونة ، ويرق قلبه للضعيف ، ويمتلىء فؤاده بالسعادة اذا ما قام بعمل يسعد الآخرين ، فقد كان يحس فى أعماق وجدانه أنه انما وجد فى هذه الحياة لبيذل نفسه رحمة للناس ، وأن سعادة ذاته مستمدة من اسعاد غيره من كل ذى كبد رطبة •

نشأ محمد فى ثرى مكة ولكنه منذ أن ولد لم يستقر بها طويلا ، حمل الى البيداء لتهيم روحه فى معبد الوجود وتتصل بالسماء وتجاول أن تسمو الى ما فوق السموات ، ثم عاد الى أهله وجلس فى ظل الكعبة مع ندماء جده عبد المطلب ، الا أنه ضاق بحياة الفراغ فذهب يرعى الغنم ليسرى فى الكون الذى يحبه حرا طليقا من قيود المجتمع المكى • وما انقضى على عودته سنة أو سنتان حتى ذهب الى يثرب ليزور قبر أبيه ويعايش تيار الفكر فى المدينة فقد كانت سعادته مذ. أن تفتحت برأعه فى المعرفة ونشدان الخير الأسمى •

كانت بذور الحكمة تلقى فى أغوار ضميره بالاستغراق فى الفكر والنظر الى الكون واستشفاف الحقائق ومحاولة الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تخفق فى الوجود ، وأن ينبثق فى ذات نفسه نور من النور •

وتبقت الأيام وآمنة راضية بمقامها الى جوار قبر الحبيب ،

تستشعر احساسنا غامضا أن عبد الله قد خرج فى قوافل-قريش وأنه عما قريب سيئوب وأنهما سيلتقيان لقاء لا فراق بعده . وكان ذلك الشعور يحجب اليها يثرب والمكث فيها ، ولو طاولت قلبها لبقيت الى جوار رمس عبد الله ما دامت الحياة ، ولكن احساسها قبل محمد القرشى الذى ينبغى أن يشب فى أهله جعلها تضحي بالراحة النفسية التى تكتنفها لتعود به الى مكة ، حيث الوحدة والألم والفراغ .

كانت آمنة تقاسى نفس العواطف التى قاستها سلمى بنت عمرو الخزرجية يوم أن جاء المطلب يلتمس منها أن يعود بابن أخيه شيبه بن هاشم الى مكة ، كانت تتنازعها عاطفتان : عاطفة الأمومة التى تنشد أن تعيش مع ابنها الحبيب فى دعة وسلام وأمان مؤثرة نفسها على ما فيه مصلحة ابنها ، وعاطفة ايثار ترغب فى أن تفتح أمام الحبيب سبل الحياة ليبلغ ذروة ما ينتظره من مجد فى قومه وان قاست من مرارة الفراق وألم العودة الى مهد الذكريات .

وعادت قافلة قريش من الشام فخف أهل يثرب لاستقبالها والترحيب بها ، ونكأت العودة جرح قلب آمنة وأعادت الى ذهنها ذكريات ذلك اليوم الذى عاد فيه فتيان مكة ولم يؤب معهم فتى قريش ، كان يوما قاسيا عصف بكل الأمانى والآمال ، وانها لتحص مرارته فى نفسها حتى هذه اللحظة التى تمد عينيها فيها الى العائدين من بصرى مهتللين بالفرح مشعمين بالرضا والسرور .

وطفرت من مآقيها دمعة ، ومن خلال غيام العبرة. رأت محمدا الحبيب يهرول نحو القافلة ليرحب بالعائدين ، فخفق قلبها خفيقا

ناعما أشاع الغبطة بين جوانحها ، فرفت على شفتيها بسمه تجمعت فيها كل رقة الوجود •

وغاص محمد فى القافلة ، وراح فتیان الأوس والخزرج يغدون ويروحون بين الابل التى حنت الى الراحة ، ولعل كتف محمد قد احتكت بكتف سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ أو حسان بن ثابت أو عمارة بن حزم أو سعد بن زرارة أو أبى أيوب أو عبد الله بن أبى بن سلول أو أى من الرجال الذين سينصرونه أو اليهود الذين سيناهضونه ، ولعل بعضهم قد تفرس فى وجه الصبى ، ولكن الذى لا شك فيه أنه لم يخطر على قلب أحدهم روعة الأحداث التى ستكون بينه وبينهم ، وأن فيض إيمانه سينبعث من هذه الواحة النابضة بالاحن والعداوة ليغمر العالمين •

وهرع رجال قريش الى أسواق يثرب يشترون من اليهود الحلى لأزواجهم وبناتهم ، ويدفعون لهم بعض ما عليهم من ديون وفوائد ، ويمتارون ما يحتاجون إليه من تمر • وخف الشباب الى البغايا صاحبات الرايات الحمر يلتمسون اللذة وينشدون تلك النشوة التى يحسونها بعد شرب ما أتوا به من الشام من خمور ، انها ليالى صاخبة مترعة باللهو والمجون •

وراحت بركة وعبيد بنى النجار يعدون راحلتى آمنة للعودة بعد أن مضى شهر على وفود آمنة وابنها وجارية عبد الله ونزولهم بدار النابغة ، انه شهر مر كلمح البصر وان تعلم فيه محمد العوم وأحسنه ، وطاف بأحياء يثرب ورأى أطام الأوس والخزرج واليهود ، واشتد فى سعيه حتى دخل خيبر وأحس ما بين العرب

واليهود من عداوة ، ولمس العداوة التى بين الأوس والخزرج
والتشاحن الذى بين اليهود واليهود •

ووافى يوم الرحيل فذهبت آمنة ومحمد وبركة الى قبر عبد
الله ووقفوا برهة وقد نكسوا رءوسهم وغامت وجوههم بالأسى ،
ثم ألقوا على القبر نظرة وداع وانسلوا خارجين •

كان الجملان قد أنيخا أمام دار النابغة بن عدى بن النجار ،
وكان غلمان بنى النجار واقفين لتوديع محمد الصبى الذى جاء من
مكة ليستولى بدمائه خلقه ورجاحة عقله على أفئدتهم فقد أحبوه
من كل قلوبهم ، وكانت أنيسة الجارية الخزرجية التى طالما لعبت
معه على اطم بنى عدى بن النجار واقفة بينهم وقد تفرقت فى
عينها الدموع •

وركبت آمنة راحلتها ، وخف محمد واعتلى ظهر الجمل وما كاد
يسنقر الى جوار أمه حتى راح يقلب وجهه فى الغلمان الذين جاءوا
ليودعوه • ان قلبه تفتح لهم وانه ليبیتسم لهم بكل وجدانه وقد
انشرح صدره ، فهو يتהל بالسرور ويمتلىء رحمة كلما أحس بترقق
العواطف النبيلة فى أسارير البشر •

ووقعت عيناه على أنيسة ورأى العبرات فى مآقيها ، فأحس
رقة تكتنفه ودموعا تبلل روحه وان لم تطفر من مآقيه ، وحركت
الجارية ذكرياته فانها كانت على الدوام تذكره بأخواته أنيسة
والشيماء وعبد الله أبناء حليمة السعدية • انه لم ينس تلك الأيام
الحلوة التى قضاه فى بنى سعد فى هوازن ، ولن ينسى الأيام
التى أمضاها فى يثرب ، وسيذكر على الدوام أخواله من بنى
النجار ، وأبناء أخواله ، وقبر أبيه ، وآطام الأوس والخزرج

واليهود ، وأسواق الصياغة والحدادة ، وأنيسة التي لعبت معه على أطم بنى النجار •

وانطلقت الراحلتان الى حيث كانت قافلة قريش ؛ فى احدها آمنة الثابتة الصغيرة وقد ذبل لونها لا يدرى الناظر اليها علة ذلك الذبول أهو من فرط حزنها على حبيبها الثاوى فى دار النابغة أم أصابتها حمى يثرب ، وإلى جوارها محمد يصافح بعينه كل الوجود ويتفتح فؤاده لرحيق الحكمة الذى يكاد أن يكشف النقاب عن وجه المجهول ، وفى الأخرى بركة الحبشية ترقب سيدتها وقد خنق قلبها بالخوف ، فامتقاع لون سيدتها جعلها تستشعر رهبة وقلقا •

ورحلت قافلة قريش مخلفة وراءها يثرب وان كانت ذكريات أيامها ولياليها ماثلة فى الأذهان ، فزيارة قبر عبد الله أهاجت قسوة الفراق التى كانت قد نامت على مر السنين • انها تستشعر أن فتى قريش قد مات الساعة ، فتجددت لوعة أساها ونزل بصدرها حزن عميق وانسدلت على آمالها المشرقة أسجاف من اليأس المرير ، ولولا التصاق محمد الحبيب بها لحسبت أن حياتها لم يعد لها هدف ولا معنى •

والتفت محمد بوجهه الى أمه وراح يحدثها والقافلة تسرى فى الكون العريض حديثا يفيض رقة وأملا عن أيامه فى يثرب ، وعن أصدقائه غلمان الأوس والخزرج ، فما تأثر بالعداوة الناشبة بين آلحيين ، وعما رأى فى بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير من عادات اليهود ، فأحست آمنة أن حديثه الشجى يغسل أدران الشجن ، وأن صحراء نفسها قد بذرت فيها بذور أمل بسام ، وأن

غيث ابنها الحبيب قد أحيائها بعد موتها ، فانفجرت شفتاها عن بسمه
بددت الغيوم التي رانت على وجهها النبيل .

وراحت الريح تتناوح تهب من جهات مختلفة لها حنين كحنين
الابل فأوجست آمنة خيفة ، خشيت أن يكون ذلك بداية عاصفة
حاصبة هوجاء ليس لهم منها عاصم فى هذه البيداء المترامية التي
لا يرى البصر فى أفقها الا انطباق السماء التي عليها غبرة على
الأرض الجرداء .

واشتدت الريح وارتفع صوت زفزفتها فصارت جافة تسفى
الوجوه بالرمال ، فاضطرب حبل القافلة ، وحاولت الابل أن تدور
لتحمى وجوهها من صفع الذر الذى يؤذى أعينها لولا هؤلاء الرجال
الذين أخذوا بمقودها وراحوا يجذبونها لتشق طريقها فى العاصفة .
كانت آمنة ومحمد فى الهودج الذى صنع من أغصان الشجر ،
فراحت الريح تعصف بالهودج وآمنة تجاهد أن تتشبث به لتحمى
محمداً الصغير من غائلة الصحراء ، ولكن هيهات فقد جاء اعصار
وأطار الأغصان وما عليها من فرش وصارت آمنة وابنها الحبيب فى
مهب الريح ، فاحتضنت آمنة ابنها وأخفته من السواقي فى طيات
ثيابها .

ومالت فوقه بغريزة الأمومة تتلقى عنه غضب الطبيعة ولفح
الرياح المزمجرة ، وتذكرت وهى فى هذه الشدة ذلك الهاتف الذى
هتف بها يوم أن حملت به : أنك حملت بسيد هذه الأمة ، فزادها
ذلك اصراراً على أن تصون ذلك النور المشرق فى ظلمات حياتها ،
فاحتملت فى صبر عصف الهبوة (١) التي تكاد أن تقصف عودها .

(١) الريح اذا هبت بالغبرة .

وتقدمت القافلة فى ببطء شديد ، وشغل كل من فيها بنفسه حتى ان بركة أسدلت نقابا كثيفا على وجهها وانكشفت فى الهودج الذى كان كريشة تتأرجح ، ولم يخطر على قلبها أن تطل برأسها لترى ماذا أصاب آمنة وابنها الصغير .

وضاعت صيحات الرجال فقد كانت تذروها الرياح ، وتعلقوا بأعناق الابل حتى لا تتجفل فى الصحراء مفزوعة لا تلوى على شيء ، وصهلت الخيل وولولت النسوة وبكى الولدان ، وظلت آمنة صامتة وأن دوت الآلام فى أغوار ذاتها ، كانت تستشعر وهنا وأن روحها تكاد أن تنسل من بين جنبئها ، ولكنها كانت تنفث العزيمة فى نفسها بأن توحى الى ضعفها أن ذلك الثاوى فى أحضانها أمانة بين يديها عليها أن تعود به سالما الى مكة ليتحقق قدره ويسود قومه .

وكانت آمنة تمنى النفس بأن كل ريح لها هبوب فلا بد لها من ركود ، ولكن العاصفة كانت تزار زئيراً عاليا بينما كانت تنوء بضعفها ، فباتت تخشى أن يدركها السكون قبل سكون العاصفة ، ودارت الأرض بها وأحسّت أنها على وشك أن تغيب عن الوجود ، فراحت تتلمس محمداً الحبيب لتتأكد أنه فى مأوى يعصمه من الحرور فقد كانت به رحيمة .

وهدأت العاصفة وحطت القافلة لتصلح من أمرها ، فهرعت بركة الى راحلة سيدتها ، وما كادت عيناها تقعان على وجه آمنة حتى انقبض صدرها ولاح أنخوف فى محياها ، فقد كانت سيدتها ذابلة ذبول الموت وقد كاد أن ينطفئ بريق عينيها .

ومدت بركة يديها لتساون آمنة على الهبوط ولكن سيدتها مدت يدين مرتجفتين الى محمد وحاولت أن تحمله لتدفع به الى بركة ،

ولكنها عجزت عن أن ترفعه ، فخفت بركة اليه واحتملته بين ذراعيها
وفى القلب أسى وفى الحلق غصة وفى العينين دمع يترقق *

ووضعت بركة محمداً على الأرض وهرعت الى آمنة وحملتها
حملاً ثم مددتها على الأرض ، وراح محمد ينظر الى أمه فى خوف
شديد ؛ انه بات يخشى ذلك الاصفرار الذى علا وجهها وتلك
النظرات الزائغة وذهاب بريق عينيها وذلك الضيق فى أنفاسها ؛
انه يحس رقة ورحمة وشفقة وحزنا ، وحشرجت روحها فى صدرها
وقالت فى صوت ضعيف :

— واكرباه !

فاستشعر محمد كأن نياط قلبه تتمزق ، وأن يبدأ قوية تهصره
هصراً ، وربما خوفه فمال عليها وراح يناديها ولكنها لم ترد ندائه
فقد كانت تجود بأنفاسها * وفطن محمد الى فداحة المصاب الذى
سينزل به فراح فواده ينز أسى ، وأحس لسع نار اليتيم ترعى فى
جوفه فسالت عبراته ، وراح يقاوم أن ينشج بالبكاء حتى لا يؤذيها
فى لحظاتها الأخيرة *

وفاضت روح آمنة فارتمت بركة عليها تتدبها وتبكيها ، وصرخ
محمد صرخة فيها ذوب نفسه ، وراح ينادى أمه الحبيبة فى لوعة
وقد جرت دموعه تغسل وجهه الحزين وتخفف ذلك اللهب الذى
اشتعل فى وجدانه ، وهرع رجال القافلة الى مبعث العويل فألفوا.
آمنة مسجاة وقد ارتمى على جسدها الهامد محمد الصغير وبركة
الحبشية وراحا يبكيان أحر بكاء وينشجان فى صوت مسموع ،
فوقفوا أمام جلال الموت مطرقين ، ثم رفعوا الصبى عن صدر أمه

وراحوا يتشاورون فرأوا أن يحملوا الجسد معهم الى الأبواء
ليقبروه هناك •

وحمل الجسد الفانى على ظهر البعير ، وأرادت بركة أن تأخذ
محمداً معها ولكنه أبى الا أن يمكث مع أمه يلقي عليها آخراً
النظرات ، فهي زاده الوحيد من الحنان حتى آخر الزمان • وركب
الى جوار الجثمان يرنو فى أسى الى العينين المسبلتين اللتين طالما
أفصحتا عن عميق الحب قبل الهمود ، ورأى من فى القافلة الصبى
اليتم وهو يمرر يده على شعر أمه التى ذهبت ولن تعود ، فتفجرت
دموع الرحمة فى أعينهم •

وسارت القافلة الهوينى وقد نكس كل من فيها رءوسهم حتى
الابل أرخت أعناقها ، فقد صمت الحادى وساد الكون سكون
عميق لم يكن يمزقه الا نشيج محمد اليتم الذى كان يتجرع مرارة
اليتم لأول مرة من كأس مترعة بالألم والأسى والعذاب تعصف
بالتقى الغض الذى اضطربت الفكبة فى جوفه ناراً من الأسى
تتلظى •

ودخلت القافلة الأبواء يغلفها حزن عميق فقد كانت آمنة زوجة
فتى قريش الذبيح جثة هامة ، ولم تذهب القافلة الى حيث
اعتادت أن تذهب لتستريح بل انطلقت الى القبور ، لتقبر آمنة
الغالية غريبة فى الأرض ، لكأنما قد كتب على سادات قريش
وسيداتها أن يموتوا غرباء •

وعملت المعاول وحفر القبر وحمل الجسد الطاهر ليغيب فى
الثرى ، وراح محمد يتشبث به وهو يذرف الدمع السخين يريد
أن يدفن مع أمه الحبيبة ، الا أن بركة ذهبت اليه وهى تجهش

بالبكاء وانتزعته من الجثة الهامدة ثم ضمته الى صدرها وقد اختلطت دموعها بدموعه •

وأهيل القراب على آمنة ومحمد ينظر يكاد أن ينفطر قلبه أسى وأن تذهب نفسه شعاعا ، لا يكاد يصدق أن يكون هذا المصير نهاية أمه الغالية الحبيبة •

ولم يستطع الصبر على ما يرى فانفلت من بين يدي بركة وارتمى فوق القبر ينشج وينتحب ويرويه بدموعه •

وجاءت بركة اليه وحملته بين ذراعيها ودموعها تسيل على خديها ، ثم عادت به الى رحلها تواسيه وتمسح عبراته وتتفص عنه غبار القبر الذى علق به وان كان الشجن يكاد يكتنم أنفاسها •

وسرت القافلة عائدة الى مكة ومحمد وبركة على ظهر بعير واحد وقد لاذا بالصمت وشردت نظرائهما • كانت بركة تسترجع فى ذاكرتها تلك الأيام الحلوة التى أمضتها فى بيت آمنة وتفكر فى ذلك الغلام اليتيم الذى فقد أمه وأباه ولم يتجاوز بعد السادسة ، وأمثلاً فؤادها حبا ورحمة لتسبغ عليه من الحنان ما يعوضه عن بعض حنان أبويه اللذين تركاه يواجه الحياة وحده •

وكان محمد يفكر فى أمره ؛ انه خرج من مكة مع أمه وها هو ذا يعود وحده بلا ولى ولا ناصر ، كانت لرحلته بداية وها هى ذى تشرف على النهاية ، وكانت لأمه بداية وقد أنتهت أيام حياتها • ان الحياة رحلة لا بد أن تنتهى الى غايتها يوما ، وأن كل شئ له أول لا بد أن يكون له آخر • وراح محمد يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قسوة الفناء لأول مرة تفكيراً يتلاءم مع سنه ، أقرب الى الاحساس منه الى استجلاء كنه الحياة

والموت وما بعد الموت • وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ وأحاساس
مرهف وتناسق مع الكون سوف تقوده في أيام نضجه إلى جوهر
الحقيقة •

ولاحت جبال مكة فأغذت القافلة السير للقاء الأحبة وقد تهللت
النفوس بالفرح وخفقت القلوب بالشوق وندت من الأنفواء صيحات
سرور ، بينما ظل محمد وبركة مطرقيين يمضغان أحزانهما ويجفنان
دموعهما فقد أهاجت عودتهما إلى أرض الوطن دون آمنة عبراتهما •
وأناخت الأبل وهرع الرجال إلى الرجال يتعانقون ، وخفت
النسوة إلى الآباء وفلذات الأكباد والأخوات ، وارتفعت أصوات
الصبيان والغلمان بالترحيب بالعائدين ، ورُفرف على المكان غبطة
وسرور وخبور • وهبط محمد وبركة من على بعيرهما وسارا
مطأطئي الرءوس يجران أرجلهما جراً ، فقد كان الرزء فادحاً ناء
بحمله •

وأسرع بنو هاشم وبنو زهرة إلى محمد وبركة ، وراح أبو طالب
يقود عبد المطلب إلى حيث كانا قادمين ، ولما تأكد أنهما عائدان
وحدهما قال في صوت مضطرب :

— أنى لا أرى آمنة !

وخفق قلب شيخ بنى هاشم في شدة ولفه اضطراب ووسع
من خطوه وانطلق إلى حيث كان حفيده مقبلاً كأنما كان يشم ريح
محمد ، وفي لحظات كان رجال بنى هاشم وبنى زهرة أمام محمد
وبركة وفي وجوههم قلق وفي عيونهم تساؤلات ، وارتفعت
أصوات تقول في لهفة :

— أين آمنة ؟

— ٥٥ —

وانفجر محمد باكيا وقالت بركة وعبراتها تخنقها :

— ماتت وقبرناها فى الأبواء •

وغامت الوجوه بالحزن وطفرت الدموع من العيون ، وذهب عبد المطلب الى حيث كان محمد ينشج بالبكاء وهو يتحسس بيده ، حتى اذا ما لمس حفيده مد يده واحتمله وضمه الى صدره ودمعه السخين يجرى على خديه شفقة على يتيم قريش •

— ٦ —

خرج شعب القسطنطينية شيوخا وشبابا ورجالا ونساء وأطفالا وملا الميدان الكبير المواجه للقصر الامبراطورى ، واصطف على جانبي الطريق بين القصر وكنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا المعظيمة ، وارتفعت الأصوات تهتف بحياة الامبراطور الجديد طيبياروس الثانى فقد كان ذلك اليوم يرمم تتويجه •

كان يوسطينوس الثانى قد جن من حمل مسئوليات الحكم والهزائم التى حاقت بالجيش الرومانى فتولت زوجه صوفيا الوصاية على العرش سنة ، ثم توولاها معها طيبياروس أربع سنوات ، ونودى به قيصر مع قيصر المجنون قبل أن يذهب الى ربه ، ولم يجد الشعب فى ذلك التثليث غضاظة بل حسبه من حسن الطالع ، فالحاكم الرومانى قد أصبح أشبه بالله ، ثلاثة فى الأرض وثلاثة فى السماء •

كان الشعب الرومانى أجناسا وأخلاطا فنسبة الاغريق الخالص

فيه ضئيلة ، فقد امتزجت بالدماء الاغريقية عناصر جديدة ، عناصر
حامية وفدت من افريقية وعناصر سامية جاءت من سورية ، وقد
اختلط الافريقيون والسوريون بقبائل أوروبا فكان سكان
القسطنطينية ينتمون الى كل قبيلة وكل أصل ، وأن كانت الأنس
النبيلة تحب أن تدعى أنها من أصل روماني •

وكان مواطن الامبراطورية قوى الشعور بأنه أشد ثمرات
الجنس البشرى تحضراً ، قوى الشعور برومانيته ، قوى الشعور
بأنه صاحب المذهب الصحيح ، قوى الشعور بأنه الوريث للحضارة
الاغريقية •

وقد أثر امتزاج الدم الاغريقى بالدماء الأخرى فى تحزب
البيزنطى العنصرى ، فقد كان متسامحاً فى مسألة الأجناس وكان
يهمه العقيدة ، فهو يقبل كل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية ، عقيدة
البلاد ، وكل من استطاع التحدث باليونانية ويوعده أخا فى الوطن ،
أما الأجنبى الذى لا يؤمن بعقيدة البيزنطى فهو كافر مارق زنديق
حليف غير ملم بتعديبات الحضارة الامبراطورية !

وكان كل أجنبى يعتقد ديانة الدولة يستطيع أن يحصل على
جنسيتها وأن يمارس كل حقوق المواطن وأن يتزوج امرأة بيزنطية
مهما يكن أصله أو أصلها ، وقد تزوجت كرائم البيزنطيات من
مغامرين من الفرنجة أو من رجال جاءوا من الشرق ولم يثر ذلك
اعتراض أحد ؛ لقد كان الاستياء الوحيد الذى أظهره الناس يوم
أن أرغم يوسطينانوس الثانى سيدة من بنات أسر السناتو على الزواج
من طاهيه الخاص الزنجى ، فقد ثارت ثائرة الاحساسات الكريمة فى

البلاد لشعورها بانتهاك حرمتها ، وكان ذلك عن ترفع و غطرسة
لا عن تحزب بسبب اختلاف لون البشرة •

كانت أنظار الناس متجهة الى قباب القصر الكبير وممراته
المسقفة المجللة بالقراميد الملونة ، وكان الشوق الى رؤية موكب
الامبراطور الجديد يملأ الصدور حتى ان الشباب البيزنطى تسلق
التمثال الضخم الذى نصب عند القصر الكبير وكان يمثل ثوراً يقاتل
أسدا ، وجميع التماثيل التى كانت فى الميادين •

وعلى الرغم من الحديث الكبير فان الناس لم ينسوا أنفسهم ،
فقد كان الرجال والنساء متأنقين يرتدون أعطية عجيبة للرأس :
قبعات ذات قمة لها حواف من الفراء وعمائم عالية منبعجة ، وقد
غطت نساء صغيرات فانتات وجوههن بالمساحيق وأبدن زينتتهن
وجعلن يتلفتن فى الزحام •

وعلى طول الشوارع الأوسط وقف أصحاب الحرف أمام
حواليتههم : الصياغ يتحدثون عن الذهب والفضة ، وصناع الأثاث
يتحدثون عن الأخشاب وكساد السوق ، وأمام دار الأنوار وهى
المركز الضخم لسوق الحرير راح الرجال يتحدثون عن مصاعب
استيراد الحرير وما لحق بهم من كساد •

كان الحرير يسير براً خلال فارس الى محطاتى المكوس
الامبراطوريتين عند نصيبين ودارا ، ومن ثم ينقل ليصنع فى
القسطنطينية أو فى المصانع الموجودة بصور وببيروت ، وكان بعضه
يحمل بالطريق البحرى وكانت سيلان هى المكان الذى تتم فيه
المقاصة المالية لتجارة الشرق بأكمله ، فهناك كانت تتجمع البضائع
الشرقية : الحرير من الصين ، والحرير واللوز والقرنفل وخشب

الصندل من الهند الصينية ، والفلفل من مكبار ، والنحاس من كاليانا بالقرب من بومباي ، والمسك والخروع من السند ، وكان التجار الفرس يتصيدون الحرير ويحتكرون تجارته ويحملونه سعداً في الخليج الفارسي ، أما بقية السلع فكانت السفن الحبشية تحمل معظمها الى آدوليس عاصمة أكسوم على البحر الأحمر ، ومنها الى القلزم بالقرب من السويس *

وقد أوقفت حروب يوسطنيانوس مع فارس ورود الحرير ، وحاول الامبراطور ابقاء سعره منخفضاً ففقد على تلك الصناعة ، وعندئذ اشترى الامبراطور المصانع فحولت صناعة الحرير الى احتكار امبراطوري *

ووجد يوسطينوس الثاني أن الدولة لا تزال بحاجة ملحة الى الحرير وأن الحروب مع فارس تحول دون وروده الى الامبراطورية الرومانية ، فحاول أن يفتح طريق السهوب ولكن ذلك العمل كان فوق طاقته *

كان تجار الحرير واقفين أمام دار الأنوار يرقبون مرور الموكب الامبراطوري وكانوا في نفس الوقت يتحدثون عن أزمة الحرير وندرة الوارد منه من الصين والهند الصينية لتعذر مروره خلال فارس ، وقال قائل منهم :

— أن راهبين نسطوريين وصلا الى القسطنطينية يحملان سر دودة القز في عكازيهما الأجوفين *

وقال آخر :

— وما علاقة الدود بالحرير ؟

فراح الآخر يشرح فى اسهاب ما سمعه عن دودة القز وصحابه يصنعون اليه بين مصدق ومكذب ، ثم قال قائل منهم :
— وحتى ان كان ما تقول صحيحا فتربية دودة القز تحتاج الى وقت *

— والى دراية *

— الوقت بجانبنا وبالممارسة نكتسب الخبرة *

كان طيباروس هو الحاكم الفعلى الذى كان يباشر السلطة أيام يوسطينوس الثانى ، ولكن كان يهفو الى التتويج ليضفى على سلطته اقرارا دينيا يمنحه حق ممارسة عمله بوصفه نائب الله فى هذه الدنيا *

ولم يكن أباطرة الرومان يعرفون التتويج قبل ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الفرس والرومان ، ألا أنه بطول الاحتكاك انتقل كثير من عادات الشرق الى الغرب ، فراح الغرب يقتبس تقاليد البلاط الشرقى ، وأخذ الرومان فكرة التاج والتتويج عن الفرس ، وكان كبير الكهنة المجوس هو الذى يقوم بتتويج كسرى ، الا أن دقلديانوس عندما اقتبس تلك العادة كان هو نفسه الحبر الأعظم ، لذلك استغنى عن معونة الكاهن وسن سنة جديدة هى أن يقوم بمراسم التتويج أحد البارزين من ممثلى الناضحين *

وعلى مر الأيام أخذ الناس يشعرون بخطر البطريك ، فأصبح بطريك القسطنطينية أحق الناس بتتويج قيصر لأنه يتولى أعلى منصب بعد التاج ، وكان البطريك يعمل بوصفه أبرز مواطن فى الامبراطورية لا بوصفه قسيسا *

وفتح باب القصر الكبير وخرج منه موكب فخم رائع ، وما كاد

الشعب يلمح طيباروس حتى تعالى الهتاف بحياته فقد كان لابد
للناخبين من أن يعلنوا موافقتهم الرسمية بالهتاف ولم يضمن
الناخبون يوماً باعطاء موافقتهم ♦

وعلى طول الطريق الى كنيسة أيا صوفيا انطلقت الحناجر
بالهتاف وترقرقت الدموع فى العيون ونسى الناس متاعب حياتهم
لحظة ، فقد فاضت العواطف النبيلة وغمرت القلوب ♦

وسار الركب الامبراطورى حتى بلغ كنيسة الحكمة المقدسة ،
فاذا برجال السيناتو وممثلى الشعب والجيش قد اصطفوا خارج
أيا صوفيا وداخلها ، واذا بالهتافات للامبراطور الجديد تشق عنان
السماء ، ونزل طيباروس من مركبته يحف به وزراؤه وكبار رجال
الجيش ثم تقدم بين الأصوات المدوية كالرعد فى الميدان الى
الكنيسة ♦

وسار الامبراطور خاشعا الى حيث وقف بطريك القسطنطينية
أمام المذبح حتى اذا ما وصل اليه راح البطريك يباركه ، ثم أخذ
الامبراطور يقسم اليمين الموعبة للتتويج ، وما أن أنتهى منها حتى
راح البطريك يضع التاج على رأسه ♦

ووقف الوزراء وجميع أعضاء مجلس الشيوخ وجميع القضاة
والجنود وممثلو طبقات المواطنين يقسمون يمين الولاء لقيصر ،
وما انتهت مراسم التتويج حتى عاد طيباروس الى القصر الكبير
وقد صار نائب الله فى الأرض وقسيسا أعظم للامبراطورية
الرومانية والوكيل الذى أمره الله أن يطعم قطيعه كما أطعم بطرس
أمير الرسل قطيعه ♦

وانصرف الناس الى دورهم ، وانطلق الشباب البيزنطى وطلاب
اللهو الى حى زيجما على القرن الذهبى ، وراحوا يتحدثون بلاتينية
رنانة ويطلقون ضحكات ماجنة ويلقون نظرات عابرة على تمثال
أفروديت الذى توسط الميدان وينفرون فى قحة فى النسوة اللاتى
يخطر فى الطريق ، ولا غرو فقد كانوا فى حى المواخير والبغايا •

كانت القسطنطينية مدينة عجيبة بنيت كنيسة عند ناصية كل
شارع ، فانتشرت فيها أفخم الكنائس : أيا صوفيا والرسك
المقدس ومئات أخرى من دور العبادة بها أديرة أحيطت بأسوار
ضخمة صارمة ، وفى نفس الوقت كانت المواخير والحانات ودور
البغايا منتشرة فى حنايا المدينة التى تبغض المروق من الدين أشد
البغض ، والتى يعتبر أهلها أن العقيدة الأرثوذكسية هى الركن
الركين فى حق التمتع بالجنسية الرومانية !

كانت الامبراطورية الرومانية تحاول أن تعيش فى ظل قانون
ناموس الله وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية ، وهما قانونان
متضاربان بل متنافران ، فالله فى قانون ناموس الله هو المحبة ،
وفى قانون الطبيعة البشرية اللاشعورية هو صانع كل ما فى الدنيا
من شرور وأهوال ، وقد كان المسيحى فى الامبراطورية الرومانية
يجد نفسه مكرها على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما فكره بلبلة
مفجعة ، وكان سوس الفساد الأخلاقى ينخر فى البنيان الذى
يبدو هائلا متماسكا لأول وهلة ، وان كانت الفلسفات التى انبثقت من
فكرة تثليث الاله تمزق أوصاله وترزعع الامبراطورية التى امتد
نفوذها الدينى شرقا وغربا •

كانت الاسكندرية كنيسة مسيحية فى مرتبة كنيسة

القسطنطينية ، ولكن الخلاف المذهبي بين الاسكندرية والقسطنطينية ملاً الاسكندرية بنوازع البغضاء للحكومة الامبراطورية ، ولم تدع فرصة لاثارة الفتنة الا اهتبلتها ، وقد ناصرت الأمانى القومية نكاية فى الامبراطور الذى كان يضطهد المصريين الذين آمنوا بعقيدة تختلف عن عقيدته وان كانوا جميعا نصارى *

وكان طيياروس على علم بالصراع الدينى الناشب فى جوف امبراطوريته ، وكان يخشى الثورات الداخلية خشيته من جيوش الفرس • وكانت أعز أمانيه أن يغفل عنه كسرى أنوشروان وأن يتركه يتمتع بفترة سلام ينعم فيها بلذة السيطرة والسلطان • وأراد أن يكشف أستار الغيب عن مستقبله ومستقبل الامبراطورية فبعث يستدعى العرافين والمنجمين *

وأطال العرافون والمنجمون النظر فى النجوم وعكفوا على الحساب وقطبوا الجباه ، فكل الدلائل تدل على أن ملك طيياروس لن يطول ، وأن نجم الامبراطورية فى أفول ، وأن الخطر الذى سيذهمها آت من الشرق • انه ليس من قبل الفرس ولكنه آت من قبل شعب مخنون ، شعب صغير ، سينبعث منه نور يغمر الشرق والغرب ، ويبعث فى المؤمنين به قوة روحية تندحر أمامها جيوش الفرس والرومان •

وراح العرافون والمنجمون يروون فى رفق للامبراطور الجديد ما أفصحت عنه النجوم ، كانوا يلفون ويدورون حول قصر أيام دولته ولكنهم قالوا دون مواراة أو تزويق نبوءة ذلك الشعب المختون الذى سيقضى على الامبراطورية •

وأطرق طيباروس يفكر فى ذلك الشعب الذى يهدد الحضارة البيزنطية بالزوال فهده فكره الى أنه اليهود ، فما كان يخطر على قلب بشر أن قبائل العرب المتناحرة المتنافرة التى يفد أشرافها الى القسطنطينية التماسا لرضا الامبراطور يمكن أن تتحد وتصير أمة قوية تنزع السلطان من أكبر امبراطوريتين عرفهما التاريخ ! ومن أين لهؤلاء الجاهلين بالنور الذى يغمر العالمين ؟

ان اليهود هم الخطر الكامن داخل امبراطوريته ؛ انهم الجنس البشرى الوحيد المستقر بالامبراطورية الذى لم يحاول أبدا أن يمتزج فيمن حوله بسبب ديانته ، وما من مدينة بيزنطية الا فيها جالية منهم ، فان اتحدت كلمتهم حول توراتهم وثاروا فانهم يستطيعون أن يطعنوا الامبراطورية طعنة فى الصميم •

وراح الامبراطور يضطهد اليهود ، يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وينزل بهم كل ألوان الاضطهاد اذا ما بدرت منهم بادرة استنشاء أو حركة تمرد ، وراح يرصد كل حركاتهم وقد فكر أكثر من مرة أن ينفئهم عن البلاد ولكنه كان يطرد ذلك الخاطر خشية أن يكون فى ذلك الطرد تجمعهم وتكوين دولة وتحقيق تلك النبوءة التى باتت تؤرقه ، القائلة بأن الامبراطورية سيدمرها شعب مختون ، وما خطر على قلب بشر أن الهادى الذى سيخرج العرب من الظلمات الى النور ، والذى سيجعل من قبائل العرب المتنافرة خير أمة أخرجت للناس بفضل كتاب الله الذى يوحىه اليه ، والذى سيدمر خلفائه امبراطورية الروم رامبراطورية الفرس ، لا يزال غلاما يتيمًا فى كفالة جده ، يسعى بين دور بنى هاشم والحرم ويخرج الى الكون

— ٦٤ —

العريض يتفرس فى آيات الله ، ليمتلىء قلبه حكمة وتتهذب روحه ويقوى وجدانه ويستعد لحمل أعظم رسالة ، رسالة لا يقوى على حملها الا أولو العزم من الرسل ، لأنها رسالة السماء ♦

— ٧ —

انتقل محمد وجاريته بركة الحبشية من بيت أبيه عبد الله بعد موت أمه آمنة الى البيت الكبير ♦ بيت جده عبد المطلب ، فصار يمضى ساعات نهاره وليله مع عمه حمزة ، فتوطدت بين الغلامين أواصر صداقة ومحبة ♦ وكان العباس بن عبد المطلب أقرب صبيان بنى هاشم الى قلبيهما ، فقد كان يقضى أغلب وقته معهما وكثيرا ما كان يدور معهما على دور أخوته أبناء عبد المطلب وبناته ، أو ينطلق معهما الى الحرم أو السوق ، فلم يكن فارق السن بينهم كبيرا فالعباس أسن منهما بسنتين ♦

وكانت هالة بنت وهيب أم حمزة وابنة عم آمنة تحب الفتى اليتيم من كل فؤادها ، فكانت تسبغ عليه ألوانا من العطف لتعوضه حنان آمنة التى لحقت بزوجها ولما تتجاوز من العمر عشرين سنة ♦ وكان محمد يحس راحة فى كنفها الا أنه كان يستشعر أمنا وسلاما كلما مسح جده بيده على ظهره أو أجلسه على ساقه أو ضمه الى صدره ، فعبد المطلب كان رقيقا رحيفا حتى ان يتيم قريش وجد فى كفالته عزاء عن أمه الحبيبة التى ذهبت وتركته وحيدا فى مهبط عواصف الحياة قبل أن يشهد عوده ♦

وكان محمد يلقي من التكريم فى دور أعمامه وعماته ما أفعم قلبه بالرضا ، فعمه الزبير يغمره بالحنان ، وعمه أبو طالب وزوجته فاطمة وأبناء عمه يتهللون بالفرح كلما جاء لزيارتهم وما كان يمر يوم دون أن يذهب الى دار أبى طالب ، وكانت عمته أم حكيم البيضاء تؤام أبيه عبد الله تضمه فى حنان دافق وتمطره بقبلااتها ، وكان يلوح الدموع المترققة فى مأكفيا فتتحرك مشاعره وتزداد كنوز فؤاده رقة ورحمة وحنانا •

وكان عمه أبو لهب ييش له فى حب كلما رآه فأبوه عبد الله كان حبيبا اليه ، وقد سمع محمد أن عمه وهب جاريته ثوية حريتها لما بشرته بمولده ، فكان يحب أبا لهب وامراته أم جميل وكان يمضى وقتنا سعيدا فى دارهم •

وكان يمر على دار عمته صفية زوجة العوام وكان يصغى الى الأحاديث التى تدور بين أعمامه وعماته ، وكانت تلك الأحاديث تتم عن الصلات الانسانية التى تربط أفراد أسرة شيخ قريش ، كانت صفية معجبة بأخيها الزبير وكثيرا ما كانت تصرح أنها نذرت ان من الاله عليها بولد أن تسميه الزبير بن العوام • وكان يبدو فى تلك الاجتماعات حب الزبير لأخيه أبى طالب وحبهما لمحمد ابن عبد الله ، ولا غرو فقد كان الزبير وأبو طالب وعبد الله أشقاء حملهم بطن واحد •

كان محمد يجد قلوبا محبة رحيمة فى كل دور أعمامه وعماته وأخواله وخالاته ، بل فى كل دور بنى هاشم ، إلا أن حبه عمه أبا طالب كان يفوق كل حب ، وكان يرى من حذب فاطمة امرأة عمه (اليتيم)

عليه ما شرح صدره ، فكانت دار أبى طالب أقرب الدور الى قلبه بعد دار جده عبد المطلب •

وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الكعبة على فراشه قد ذهب بصره وشاب شعر رأسه ولحيته وأجفان عينية ، انه يسمع ابتهالات الطائفين بالببيت وخفقات أجنحة حمام الحمى وخيرير ماء زمزم الذى يصب فى الأحواض والأوانى ، ويرى بعين خياله الحرم والحطيم والملتزم وباب الكعبة وقد حلى بغزالين من الذهب •

وظاف مع الطائفين أبو لهب والحارث بن عامر بن نوفل وأبو اهاب بن عزيز بن قيس بن سويد التميمى ؛ شباب قريش الذين سرقوا غزالة من غزالتى الذهب اللتين كانتا معلقتين فى جوف الكعبة مع قرنى كرش يقال انهما كانا قرنى الذبح العظيم الذى فدى الله به اسماعيل •

انهم سرقوا الغزالة ليشتروا بثمنها خمرا وقد وضعوها عند دويك مولى بنى مليح ، وقد قطعت قريش يد دويك ، أما الأشراف فقد وجدوا فى أهلهم من يحمونهم من قريش واقامة الحد عليهم • وانتهى أبو لهب من الطواف فذهب الى حيث كان أبوه وألقى عليه التحية ، فلما عرفه عبد المطلب بعثه مع بعض اخوته فى طلب ابل له ضلت ، ثم أطرق الشيخ فراحت الذكريات تتثال على رأسه ، رأى ذلك اليوم الذى خاصم فيه الثقفيين لأنهم احتفروا ماء له بالطائف يقال له « ذر الهرم » واتفقوا على أن ينطلقوا الى الكاهن نفيل ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختصمون •

انه يرى نفسه وقد خرج مع ابنه الحارث وليس له يومئذ غيره ويرى الثقفيين وقد خرجوا فى جمع كبير ، ويرى فى وضوح

ساعة أن نفد ماؤه فطلب اليهم أن يسقوه فأبوا ؛ انه يكاد يحس وهو فى مجلسه قسوة العطش الذى أحسه فى ذلك اليوم ، لقد بلغ العطش منه ومن الحارث كل مبلغ حتى أشرفا على الهلاك ، ورأى نفسه وهو يثير بعيره ليركب واذا بعين ماء تتفجر من تحت رقبته •

انه شرب فى ذلك اليوم حتى ارتوى بعد أن شرب حبيبه الحارث وتزود من الماء حاجته ، ونفد ماء الثقفين فطلبوا اليه أن يسقيهم فأنعم لهم ، وان صوت ابنه الحارث يرن فى أذنيه كما رن فى ذلك الوقت يقول : لانتحين على سيفى حتى يخرج من ظهري !

ورفت على شفتى الشيخ بسمه هادئة لما سمع صوته يأتى كالهمس من أغوار الماضى يقول : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك • انه سقاهم على الرغم من أنهم أبوا أن يسقوه ، وانطلقوا حتى أتوا الكاهن وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له « سوار » ، وراح الحوار الذى بينهم وبين الكاهن ينبعث حيا فى نفسه :

— ما حاجتكم ؟

— قد خبأنا لك خبيثا فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا •

— خبأتكم لى شيئا طار فسطح ، فتصوب فوقع ، فى الأرض

منه بقع •

— لادِه (أى بينه) •

— هو شئ طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ،

ورأس كالسمار •

— لادِه •

— ان لاده فلاده (الا هذه فلا هذه) ، هو رأس جرادة ، فى
خرز مزادة ، فى عنق « سوار » ذى القلادة •
— صدقت ، فأخبرنا فيما اختصمنا اليه •

وانفرجت ابتسامة عبد المطلب ، انه ليذكر أن الكاهن قد أخبرهم
فيما اختصموا اليه ، وقضى له بماء الهرم وخذل بنى ثقيف •
وجاء عبد الله بن جدعان وسلم ثم جلس ، ولم يأت أمية بن
حرب فقد وقع الجفاء بين عبد المطلب ونديمه أمية حتى تتافرا الى
عزى سلمة الكاهن ، وقد قضى عزى لعبد المطلب على أمية بن حرب
كما قضى الحكم من قبل لهاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد
شمس ، ووقعت البغضاء بين بنى هاشم وبنى أمية •

وجاء سادات قريش وجلسوا بعيدا عن فرائس عبد المطلب
احتراما له واجلالا لقدره ، وأرهف الشيخ سمعه فأبناؤه قد
ذهبوا فى طلب ابل له ضلت ولم يعودوا ، ومس أذنيه وقع أقدام
تمشى هونا ، وملأت خياشيمه رائحة ذكية ، انها رائحة حفيده •
وجاء محمد وجلس بجانب جده لا يمنعه أحد ، ومد عبد المطلب يده
وراح يتحسس ثم لف ذراعه حوله وضمه اليه فى حنان دافق ثم
قال :

— سيكون لابنى هذا شأن •

وعاد بنو عبد المطلب دون أن يعثروا على الابل الضالة ، فقال
الشيخ لحفيده :
— اذهب أنت •

فنهض محمد لينقب عن الابل الضالة وبقي سيد بنى هاشم
فى مجلسه ، ومر الوقت وغاب محمد وبدأ القلق يساور جده ثم

استولى عليه واستبد به ، فقام يتحسس طريقه الى الكعبة حتى اذا ما وقف أمام بابها أخذ بخلقته وجعل يضرب بهما الباب ويقول :

يارب ردّ راكبي محمداً اردده ربى واصطنع عندى يدا
كان الأسى يلوح فى وجه الشيخ وكان الابتهاال ينبعث من قلب
مؤمن بربه ؛ انه لطالما ابتهل الى الهه ولكنه لم يحس أنه يذوب فى
توسلاته الا مرتين ، مرة يوم أن جاء أبرهة يبعى هدم الكعبة فوقف
أمام بابها يدعو الهه أن يحمى بيته ، وهذه المرة التى غاب فيها
محمد الحبيب ودثره خوفه وقلقه واضطرابه .

ومر رجل غريب ، ورأى شيخا طويلا عظيما أبيض مقرون
الحاجبين طويل شعر الأجفان رقيق الأنف قد ابيضت عيناه ، تسيل
عبراته على خديه وهو يتوسل الى ربه فقال :
— من هذا ؟

هذا سيد قريش عبد المطلب له ابل كثيرة ، فاذا ضل منها شىء
بعث فيه بنيه يطلبونها ، فاذا غابوا أو خابوا بعث ابن ابنه ولم
يبعثه فى حاجة الا أنجح فيها ، وقد بعثه فى حاجة أعيا عنها بنوه
وقد أبطأ عليه .

وما انتهى الرجل من كلامه حتى جاء محمد بالابل معه فقال
رجال لعبد المطلب :
— جاء محمد .

فانبسطت أسارير الشيخ ولاحت على وجهه طمأنينة نفسه ،
وذهب الى حيث كان حفيده الغالى قادما كأنما كان يشتم ريحه ،
ثم بسط له ذراعيه وضمه اليه فى لهفة ووجد وهو يقول فى انفعال :

— حزنت عليك حزنا لا يفارقني بعده أبدا •
 وقفل عبد المطلب عائدا الى الدار يقوده حفيده وقد ساد الصمت
 بينهما ، فقد كان عبد المطلب يفكر فى ذلك اليوم الذى غفلت فيه
 بركة عن محمد فوجده قد ذهب بعيدا عن الدار ، وتذكر الحوار
 الذى دار بينه وبين حاضنته :

— يا بركة •

— لييك •

— أتدرين أين وجدت ابنى ؟

— لا أدرى •

— وجدته مع غلمان قريبا من السدرة • لا تغفلنى عن ابنى فان
 أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم •
 وتذكر عبد المطلب ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أسقف
 نجران وقد بجاء عندما كان فى الحجر فى ظل الكعبة ، قال الأسقف :
 — انا نجد صفة نبي بقى من ولد اسماعيل وهذا البلد مولده •
 ونظر الأسقف طويلا الى محمد والى عينيه والى ظهره والى
 قدميه وقال :

— ما هذا منك ؟

— هذا ابنى •

— ما نجد أباه حيا •

— هو ابن ابنى وقد مات أبوه وأمه حبلى به •

— صدقت •

وأحس عبد المطلب نورا ينيير بصيرته وان ذهب بصره ، فضم

حفيدة الى جنبه فاستشعر كأن كل جوارحه تلثمه فى حنان وحب
ما بعده حب •

وبلغا الدار فهرعت هالة لاستقبالهما وقادت عبد المطلب الى
حجرته ، وذهب محمد الى مكانه من البيت الكبير •
ووضع الطعام وقادت هالة زوجها الشيخ الى حيث مد السماط ،
وما كاد عبد المطلب يستقر حتى قال :
— على بابنى •

فأحضروا محمدا وأجلسه الى جنبه ، وقد كان يقعه على فخذه
أيام أن كان صغيرا • وكان يجلس معهما حمزة والعباس واخوتهما
ولكن عبد المطلب كان يؤثر محمدا بأطيب طعامه •

وتتابعت على بلاد قيس ومضر أيام شدة وجذب ذهبت بالأموال
وأشرفت الأنفس على الهلاك ، فاجتمع عظماءهم وقالوا :
— أصبحنا فى جهد وجذب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب ،
فأقصده لعله يسأل الله فيكم •
فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام ، فقال
لهم :

— أفلحت الوجوه •

وقام خطيبهم فقال :

— قد أصابتنا سنون مجذبات وقد بان لنا أثرك وصح عندنا
خبرك ، فاشفع لنا عند من شفّعك وأجرى الغمام لك •
فقال عبد المطلب فى تواضع :

— سمعا وطاعة ، موعدكم غدا عرفات •

وباتت مكة تردد قول رقيقة بنت صيفى بن هاشم بن عبد مناف
زوجة عبد المطلب فى سقيا الناس بعبد المطلب ، يوم كاد أهل
البطحاء يهلكون من قلة الماء :

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدنا الحيا واجلوز (١) المطر
وما أشرقت شمس اليوم التالى حتى خرج عبد المطلب وحفيده
محمد يقوده ، معه الناس وولده ، وكان عبد المطلب يستشعر راحة
وأما واطمئنانا كلما تحسس رأس حفيده الذى أشرف على الثامنة
من عمره وان كان يبدو فى خيال جده رجلا أعظم من كل الرجال •

وبلغوا عرفات فنصب لعبد المطلب كرسي فجلس عليه ، وأخذ
محمدا فوضعه فى حجره ، ثم قام عبد المطلب ورفع يديه ثم قال :
— اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف ، رب الأرباب ،
وملين الصعاب ، هذه قيس ومضر ، من خير البشر ، قد شعنت
رعوسها ، وحذبت ظهورها ، تشكو اليك شدة الهزال ، وذهاب
النفوس والأموال • اللهم فأتح لهم سحابا خوارة ، وسماء خراة ،
لتضحك أرضهم ، ويزول ضرهم •

فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة دكتاء لها دوى ، وقصدت
نحو قيس ومضر ، فقال عبد المطلب لما سمع دوى السحاب :
— يا معاشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم •

فترقرقت الدموع فى عيون الرجال من شدة الانفعال ، وارتفعت
صيحات الفرح وخف الناس الى عبد المطلب يقولون :

(١) امتد زمن تأخره .

— ٧٣ —

— هنيئاً لك يا أبا البطحاء بك عاش أهل البطحاء •
وأطرق عبد المطلب وصم أذنيه عن هتافات الناس ، فقد كان فى
قرارة نفسه على يقين أن قيس ومضر قد أمطروا ببركة حفيده
اليقيم •

— ٨ —

طال على الفرس الأمد ففسد دين زرادشت وصار أهورامزدا
إله النور النار ، وبنيت لها بيوت فى طول إيران وعرضها فتفتتت
ديانة التوحيد ووهن أساسها ، وزاد فى ضعفها تيارات الفساد
التي جاء بها مانى ومزدك والخرافات الدينية الكثيرة المزدية التي
ضاق بها رجال الدين أنفسهم •

وقد قامت مناظرة بين أحد الموابذة وجيورجيس المسيحي وهو
إيرافى اعتنق المسيحية ، دلت على ما بلغه الدين القيم من تهافت ،
قال الموبذ :

— نحن لا نعتبر النار الهاً ولكننا نعبد الله بواسطتها كما تعبدونه
بواسطة الصليب •

فراح جيورجيس يتلو بعض فقرات من الأوستا حيث جاء ذكر
النار على أنها إله ، فقال الموبذ وقد ضاق بالأمر متسللاً من الموضوع
فى لباقة :

— نحن نعبد النار لأنها من نفس طبيعة أهورامزدا •
فقال جيورجيس :

— أفى النار كل ما فى أهورامزدا ؟

— نعم •

— ان النار تلتهم النجاسة وروث الخيل وكل ما تمس ، واذا فان أهورامزدا يلتهم كل هذا لأنه من نفس الطبيعة •

وفى ذلك الوقت الذى ترنحت فيه الديانة الزرادشتية ذاعت فى ايران النظرية الزروانية وكانت وبالا على الدين ، اذ بثت فكرة الجبر ، ولم يكن زروان كما تروى الأساطير الاله القديم وأبا أهورامزدا وأهرمن من الزمن اللامتناهى فحسب ، بل كان القدر أيضا •

وقد جاء فى رسالة رويح الحكمة أو الحكمة السماوية : « ان الانسان رغم قوته وسعة ذكائه وعلمه لا يستطيع مغالبة القدر ، لأن القدر المحتوم حين يقرر الخير أو الشر يعجز الحكيم عن العمل ويقدر الشرير عليه ، وهذا يجعل الشجاع جبانا والجبان مقداما والعامل كسولا والكسول عاملا » •

ولم يكن مجهود الانسان عبثا كله ، فقد جاء فى روح الحكمة أن هذا المجهود سيوضع فى الميزان فى الوجود الروحي أى فى العالم الآخر ، ولكن بعض الذين كانوا يؤثرون قواعد الأخلاق على عقائد الدين قالوا بأن ليس هناك آلهة وأراحوا أنفسهم من البحث فى أمور الدين وتحمل مشقة العمل الطيب ، ونظروا الى هذه الدنيا حسب ما يتعلق بالأنظمة من كل نوع ، والتقلبات التى تختص بأجسادهم بواسطة العمل ، وذلك بمعارضة شئ آخر واختلاط شئ بآخر ، كالتطور الأولى للزمن اللامتناهى ، وادعوا أن لا جزاء على الخير ولا عقاب على الذنوب ولا جنة ولا نار

ولا شيء يدفع الناس الى خير أو الى شر ، وأن الأشياء كلها مادية وأن ليس للروح وجود •

زلزل أساس العقيدة الزرادشتية ، فبعد أن جاء زرادشت ليدعو الى التوحيد تطور دينه الى عبادة النار ، ثم غمره ماني بالأساطير ، ولما جاء مزدك شرع شيوعية المال والمرأة ، وعلى الرغم من قضاء أنو شروان على المزدكية الا أن تيار الفساد أثر فى العقيدة الزرادشتية فانهارت انهياراً مروعا وباتت تنتظر مصححاً يعيد إليها قدرتها على الجدل وقرع الحجة بالحجة والوقوف صامدة فى وجه الأديان الأخرى ، وقد جاءها ذلك الاصلاح من الدين القيم الذى سيأتى به يتيم قريش ليغمر كل الأديان •

كانت ايران فى زمن كسرى أنو شروان ، الروح الخالد ، فى دور النقه بعد الحمى التى اعترتها من المزدكية ، وكان التعديل المانى يرمى الى مصلحة الخزنة قبل مصلحة الشعب فقد عاشت الجماهير كما عاشت قرونا طويلة فى الجهل والظلم •

وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون الذين آووا الى البلاط الايرانى بخيبة أملهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يرفعوا أنفسهم الى مرتبة الفلاسفة الحقة فيحكموا من غير تحيز على عادات أمة أجنبية عنهم ، وقد كانت آراؤهم معبرة عن المثل التى تصورها لدولة يحكمها فيلسوف •

لم يتوفر لهم ذوق الدراسات الخاصة بالأجناس وبعلم النفس الجنسى • لقد راعهم أن يجدوا الايرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف على قبور الصمت ، وهى عادة مقدسة •

لقد نغص عيش الفلاسفة البيزنطيين الذين استوردتهم كسرى الى بلاطه روح القبيلة والهوة التي تفصل بين الطبقات والحالة المتعسة التي كان عليها الشعب ، فالقوى يظلم الضعيف ، وهم يرتكبون كثيرا من القسوة والوحشية فيما بينهم •

ان برزويه فى مقدمة « كليلة ودمنة » يصف بؤس الحياة الانسانية ولا يجد ملجأ الا فى الزهد المقوض للديانة الزرادشتية المتطورة فرارا من رزايا المعيشة العامة ، انه يقول :

« لا سيما فى هذا الزمان الهرم البالى الشبيه بالصباية والكدر ، فانه وان كان الله تعالى (١) قد جعل الملك سعيد الأمر ، مأمون النفية ، حازم رأى ، بعيد المقدرة ، رفيع المهمة ، بليغ الفحص ، عدلا برا جوادا صادقا شكورا رحب الذراع ، متفقدا للحقوق ، مواظبا فهما لحيفا رعوفا رحيفا ، عالما بالناس ، محبا للخير وأهله ، شديدا على الظلمة ، موبعا على زعيته ، غانا نرى الزمان مدبرا لكل مكان ، حتى كأن الفضل قد ودع وأصبح مفقودا ما كان عزيزا فقده ، موجودا ما هو ضار لمن ظفر به ، وكأن الخير أصبح ذابلا والشر نضيرا ، وكأن الغنى أقبل ضاحكا وأدبر الرشد باكيا ، وكأن العدل أصبح غابرا وأصبح الجور غالبا ، وكأن العلم أصبح مستورا وأصبح الجهل منشورا ، وكأن اللؤم أصبح آمرا وأصبح الكرم موطوءا ، وكأن الود أصبح مقطوعا وأصبح الحقد موصولا ، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الأشرار ، وكأن الغدر أصبح مستيقظا وأصبح الوفاء نائما ، وكأنما الكذب أصبح غضا

(١) ترجمة ابن المقفع بعد الاسلام .

والصدق قاحلا ، وكأن الحق ولى عاثرا وأصبح العدوان قد جرى سبيله ، والانصاف بائسا والباطل مستعليا ، والهوى بالحكام موكلا ، والمظلوم بالخسف مقرا ، والظالم لنفسه فيه مستطيلا ، والحرص فاعرا فاه يتلقف من كل جهة ما قرب منه وبعد عنه ، والرضا مجهودا مفقودا ، والأشرار يسامون السماء ، والأبرار يريدون بطن الأرض ، وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف الى أسفل مهواة ، والدناءة مكرمة والرفعة مجفوة ، والسلطان منتقلا من أهل الفضل الى أهل النقص ، والدنيا جذلة مسرورة تقول : قد غيبت الحسنات وأظهرت السيئات » •

كان الدين الزرادشتى يوم أن مات كسرى أنو شروان قد تزعزعت أركانه حتى ان رجال الدين أنفسهم قد ضاقوا بخرافاته وأساطيره وراحوا يخترعون الشروح التى يقبلها العقل • وقد خاب أمل الفلاسفة فى البلاط الكسرى ودب اليأس فى قلوب المفكرين وانتشر الالحاد والضياغ وبدا لكل ذى عينين أن فارس باتت فى أشد الحاجة الى دين جديد وأن أوان صاحب الجمل الذى بشر به زرادشت قد آن ، ولو بقى بصيص من نور الايمان فى القلوب لاتجهت الأبصار جميعا الى جزيرة العرب ، فالبشارات الفارسية منذ عهد زرادشت تنبأت بأن نور اليقين سينبثق منها يغمر العالمين •

وخلف كسرى أنو شروان هرمزد الرابع وقد كان أول ما فعله أن استدعى العرافين والكهان والمنجمين ، وقد أخبروه أن ملكه سيزول بسبب ثورة الأشراف عليه فغرسوا فى قلبه كراهية الأشراف والخوف منهم •

وصار همه تألف السفلة واستئصالهم وحبس العظماء وخط

مراتبهم ، وقد قتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل ، وقد عرضه تسامحه فى أمور الدين لحقد رجال الدين الزرادشتى •

ومنع بنو تميم لما مات كسرى أنو شروان ضربة الأتاوة التى كانت عليهم ، فلما بلغ ذلك هرمزد أرسل الى النعمان بن المنذر عامله على الحيرة يأمره أن يبعث الجيوش لتأديب بنى تميم الذين شقوا عصا الطاعة وأبوا أن يؤدوا الجزية لملك الملوك •

فأرسل النعمان يطلب أخاه الريان ، فلما جاء الريان الى « الخورنق » قصر الحيرة العظيم أمره أن يخرج فى كتيبة دوسر لتأديب المتمردين ، وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل •

كان قيس بن عاصم شريفا من أشرف بنى تميم ، وكانت ابنته زوجة لسيد من سادات القبيلة • وفى ذات يوم بينا كانت القبيلة هادئة هائلة اذا براية النعمان مقبلة واذا بكتيبة دوسر تتقدم وقد رفع رجالها سيوفهم ، انها الحرب • ففزع رجال بنى تميم الى سيوفهم وسرعان ما دار القتال وتقارعت السيوف ، ومشى الرجال الى الرجال مشى الوعول ، وسالت الدماء وارتفعت الصيحات مجلجلة فى الفضاء ، ولاح النصر للريان فقد كان رجال تميم يتقهقرون وقد غطت جثث صناديدهم الأرض وراحت الطيور والجوارح تحوم حولها •

وانكشفت خيام الحريم ، ولما رأى نسوة القبيلة ما حاق بالحماة رحن يهرولن يلتمسن الفرار ، ولكن رجال كتيبة دوسر انقضوا عليهن انقضاض النسور ، واستاق الريان ناعم بنى تميم وسبى ذراريهم ، ثم عاد بغنائمه الى الحيرة •

واستقبل النعمان أخاه المريان استقبال الغزاة وأقام فى القصر
حفلا رائعا ، وقد قام الشعراء يعبرون عن شعورهم فقال قائل
منهم :

لما رأوا راية النعمان مقبلة
قالوا : ألا ليت أدنى دارنا عدن
يا ليت أم تميم لم تكن عرفت
مرا وكانت كمن أودى به الزمن
ان تقتلونا فأعيار مجدة
أو تتعموا فقديما منكم المين

كانت الأفراح فى الخورنق وكانت الأتراح فى مضارب قبيلة
بنى تميم ، وقد زاد فى حزن الرجال أن ابنة قيس بن عاصم فى
السبايا ، وراح سادات القبيلة وأشرافها يمعنون الفكر فلم يجدوا
خيرا من الذهاب الى النعمان وتكليمه فى الذرارى *

وتأهب أشراف القبيلة وسادتها للانطلاق الى الحيرة ، وكان
قيس بن عاصم الى جوار زوج ابنته يستشعر خزيا ويطأطأ رأسه
كلما حانت منه التفاتة الى الرجل الواله الحزين والتقت عيناه
بعينه *

كانت مصيبتهم واحدة والرزء واحدا والألم يرعى بين الجوانح ،
ولكن كان يخفف من لوعة الأسى أن الابنة الحبيبة والزوجة الشريفة
أخذت قسرا وأنها ستموت دون عرضها *

وبلغ أشراف بنى تميم وسادتها الحيرة ، فانطلقوا مثلثفين
الى القصر والتسموا مقابلة النعمان ، فأذن لهم ، فلما مثلوا بين
يديه كلموه فى الذرارى فقال النعمان :

— انى جعلت الخيار فى ذلك الى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه •

وأمر أن يؤتى بالنساء فحفظت قلوب رجال بنى تميم رهبة وجفت الحلو وزاغت الأبصار ، فلو اختارت زوجة سابيا على زوجها لكان فى ذلك ذل ما بعده ذل وعار ما بعده عار •

وتقدمت النساء على استحياء وراح النعمان يخير كلا منهن بين زوجها وسابيا فاختلن فى الخيار واسودت وجوه بعض الرجال • وتقدمت بنت قيس بن عاصم فأحس أبوها أن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، وشعر زوجها كأن يدا قوية تضغط على عنقه تكاد تكتم أنفاسه ، آه لو اختارت زوجة سابيا عليه لمت كمدا • وخيرها النعمان بين زوجها وسابيا فتعلقت العيون بشفتيها ، انها ستنطق بكلمة فيها حياة أبيها أو موته ، وان ظل يمشى على وجه الأرض يتلفت •

وخرجت الكلمة من بين شفتيها كخنجر مسموم طعن فؤاد أبيها ، انها اختارت سابيا على زوجها • وأحس قيس بن عاصم أنه جدار قديم يتهدم وأن أنفه فى الرغام ، ودارت به الأرض وانسل من القصر لا يدري كيف خرج •

انه فى ذهول ، انه لا يصدق أذنيه • ولكن نظرات القوم التى سددت اليه تؤكد له حقيقة المفاجعة ، كان أهون عليه أن تنعى اليه ابنته من أن يقال فى قبائل العرب بنت قيس بن عاصم اختارت سابيا على زوجها ، اختارت العار على الشرف •

وقفلت وفود بنى تميم عائدة الى منازلها وقيس يجرجر أذيال العار ، وقد نذر أن يدس كل بنت تولد له فى التراب • وظل قيس

ينتارى من الناس خجلا حتى اذا ما وضعت احدى زوجاته بنتا زيناها ثم وأداها ؛ وضعها فى حفرة وهى حية ثم أهال عليها التراب • وانتشر فى قبائل العرب انتشار الريح أن بنت قيس بن عاصم اختارت سابياها على زوجها وأن البنات لا يجلبن الا العار ، وأن قيس بن عاصم قد نذر أن يدس كل بنت له فى التراب ، وأنه وأد أول بنت ولدت له • وأثارت تلك الحادثة الغيرة فى قلوب رجال العرب فأقبلوا على وأد بناتهم مخافة العار •

وانتقل الوأد الى مكة ، وأشفق بعض عقلاء الرجال من هذه الوحشية فراحوا يقاومون هذه البدعة التى ابتدعها زعيم بنى تميم •

كان فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية الفقر ، حتى اذا ما صار هاشم بن عبد مناف زعيم قريش واستن رحلة الشتاء والصيف جعل أموال القوافل مئسعا لكل المكيين لكل مكى حق فى أرباح التجارة ، ففضى على الاملاق وهجر الفقراء قتل الأولاد أو تقلصت تلك العادة • وها هو ذا قيس بن عاصم يحيى بدعة اعتنقها الغيورون من الرجال وساروا على أثره متحمسين غير مفكرين ، فقد سلبت مخافة العار ألبابهم •

وقد رأى محمد ولا ريب الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وأهالت عليها التراب • وقد تركت هذه القسوة أثرها فى النفس الذكية والقلب الرحيم •

أرخی الليل شعره الأسود الفاحم على وجه النهار ، وران
السكون على جبال مكة ووديانها ، وهذا كل شيء لا حركة ولا نأمة ،
وهجعت الكائنات بينا ظل قلب الوادي المقدس ينبض بالحياة ،
فالطواف حول الكعبة لا ينقطع أثناء الليل وأطراف النهار •

وراح عبد المطلب يتلمس طريقه الى سريره وهو يحس وهنا
يدب في أوصاله ، وحنين جسمه الى الأرض ، فباتت أمنيته أن
يبلغ الفراش لكي يرتوى فيه ويسلم جنبه للرقاد ، فساقاه أمستا
لا تقويان على حمله حتى انه يستشعر بالكون يدور به وبمطارق
تدق رأسه • وكاد أن ينوء وهو في طريقه الى سريره ولكنه جمع
ما بقى من عزيمته الماضية وشد أزر نفسه حتى وصل الى غايته ،
الا أنه لم يلق بذاته المتعبة في الفراش بل راح يتحسس بيده ،
فلما لم يجد بغيته نادى :

— بركة • بركة •

وجاء صوت بركة من بعيد :

— لبيك •

— على بابنى •

واتخذت بركة الحبشية طريقها الى حيث اعتاد ابنه أن يجلس
في الليل ، انها مرت بحمزة بن عبد المطلب وبالعباس ولم تلتفت

اليهما ، فما كان الشيخ يبغي أحدهما بل كان يريد ابن عبد الله حبيبه الذى لا يطيق فراقه •

كان محمد جالسا بالقرب من النافذة يرعى نجوم السماء ويقلب وجهه فى الكون ، ينظر ويتأمل ويتدبر وتتهل نفسة بالفرح كلما أحس بتعاطف مع ما حوله وبحب يزداد مع الأيام للوجود الذى يستشعر نبضه فى أغوار أعماقه •

الدنيا من حوله مليئة بالأسرار ، وهى أسرار غامضة يلذ له أن يطيل النظر اليها دون أن يحاول أن يغوص ليكشف عنها النقاب أو يعرف كنه جواهرها ، بل كان يكفيه وهو فى مثل سنه تلك النشوة الروحية التى تملأ وجدانه كلما انصهرت ذاته لتذوب فى ذات الذوات وروح الوجود الخفاقة ، فى كل ما يمد اليه عينيه أو بين جنبيه •

وجاءت اليه بركة فألفته هائما فى ملكوت السموات كأنما يرشف رحيق الحكمة لتستقر فى قرار مكين ، فرنت اليه رنوة حب وحنان وأعجاب ثم أخذته من يده وسارت به الى حيث تمدد الشيخ الجليل • وما ان أحس عبد المطلب بمقدم حفيذه الغالى حتى وسع له مكانا فى السرير فصعد محمد ونام الى جوار جده الذى ضمه اليه فى حب • ولما استشعر أنه قد التصق بصدره وملا عبيره الذكى أنفه سكنت الطمأنينة قلبه وراح فى سبات عميق •

وطار الليل مقصوص الجناح ، وغرد الطير فنبه من نعس ، وسك سيف الفجر من غمد الدجى فقام محمد من نومه وترك فى خفة الفراش لكيلا يوقظ شيخ بنى هاشم ، وسرعان ما دب الحياة فى البيت الكبير قبل أن تبعث الشمس أشعتها الى أم القرى ، وفتح

الباب فى رفق خشية أن يوقظ صريره عبد المطلب ، وخرج منه محمد وحمزة والعباس وانطلقوا الى الحرم ليطوفوا بالبيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وطافوا سبعة أشواط ، وما أنتموا طوافهم حتى ذهب العباس وحمزة الى الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود حيث يتلقى صفوة صبيان مكة وشبابها دروسا فى الكتابة والحساب ، وانطلق محمد ربيب الحرية الى المراعى ليرعى غنم أهله ، فقد كان يتألق بالبشر كلما ألقى بنفسه بين أحضان الطبيعة الحانية .

كان العباس يهدف السمع لذلك الذى يلقي عليهم دروسا فى الكتابة ويعلمهم أسرار الحساب ، وكان يجد فى التحصيل فغاية أمانيه أن يقرض الناس بالربا وأن يجيد كتابة العقود حتى لا يضيع ماله ، بينما كان حمزة يتلقى العلم للعلم ليكون سيذا من سادات بنى هاشم ، فقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة ، أما محمد فلم يكن ليحفل بذلك العلم الذى تحشى به رعوس غلمان سادات مكة عند الملتزم ، فهو يتلقى من هيامه فى البيداء ومن تأمله فى الوجود أسراراً يعجز عن كشف مغاليقها من نصبوا أنفسهم لتعليم طلاب العلم عند الملتزم ، انه يسلك طريقاً وعراً شائكاً مليئاً بالعوائق والصعوبات ، ولكنه طريق سيصل به الى أعتاب السر البشرى ، بل الى أعتاب أسرار الوجود جميعه .

واصطبغ الأفق الغربى بلون الأرجوان ، ومالت الشمس لتغيب خلف جبال مكة فراح محمد يسوق الغنم أمامه ليعود قبل الغسق ، وقبل أن يدركه الليل كان فى طريق الصفا ليدخل دار جده عبد المطلب .

كان بعد عودته من يثرب بعد موت أمه يطيل النظر الى بيت عبد الله قبل أن يعرج الى البيت الكبير ، وكانت ذكريات الأيام الحلوة التي قضاه مع أمه تتثال على رأسه ، وكثيرا ما كانت تدمع عيناه لما تدركه رحمة أمنة ، وكان يحس مرارة اليتيم في نفسه ويتألم أشد الألم ، ذلك الألم الذي يعمل على تكوين شخصيته وتحقيق ذاته • ولكنه على مر الأيام اعتاد أن يأخذ طريقه الى دار جده دون أن يثقلت ، فقد عوضه حنان عبد المطلب كل حنان •

ودخل وهو يتلهف على رؤية جده وتأهب ليرتمي في أحضانه ، ولكنه ما ان تقدم خطوات حتى تسمر في مكانه وخفق قلبه في خوف ، فقد رأى جده مسجى في فراشه وحوله أعمامه وعماته مطرقين صامتين وفي وجوههم هم ثقيل ، وشق غلالة السكون صوت عبد المطلب يقول في صوت خافت :

— واكرباه !

ونظر محمد الى وجه جده وهو واقف خلف سريره فألفاه ذابلا قد علتة صفرة ، انه رأى الموت قبل ذلك في وجه أمه وان ما يراه في وجه جده هو نفس ما رآه في محيا أمنة الحبيبة ، ترى أيموت جده كما ماتت أمه ويتركه في هذه الحياة وحده بلا ناصر ولا حبيب ؟ وسرت في بدنه قشعريرة وانقبض صدره وبللت الدموع روجه وأحس أن عبراته توشك أن تنف من مآقيه ، فحاول أن يملك ذاته ولكنه عجز عن أن يكبت عواطفه فذهب بعيدا ليكي وحده •

انه وحيد ، يتيم ذهب أبوه قبل أن يرى النور ، وماتت أمه غريبة في الصحراء وقبرت هناك في الأبواء ، وها هو ذا جده يجود بأنفاسه الغالية وعما قليل يذهب دون أن يثوب ويتركه يتجرع

غصص اليتيم مرة أخرى بعد أن وجد عنده حنانا عوضه حنان آمنة وحباً عوضه حب عبد الله ، فموت عبد المطلب هو موت عبد الله وموت آمنة وموت كل الآمال الحلوة والأمانى البسامة التى كانت تلوح له فى حلقة الزمان .

ورفع عبد المطلب يداً واهنة ومررها على وجهه ، وراحت أطوار حياته تمر أمام عين خياله ، انه يرى نفسه غلاماً فى يثرب يلعب مع أبناء أخواله من بنى النجار ، ويرى أمه سلمى وهى تغمره بالحنان ، ثم سرعان ما رأى عمه المطلب وقد جاء ليحمله الى مكة ، واحتلت صفحة ذهنه صور الوداع الحار الذى كان بينه وبين أمه ، ان ذكرى ذلك اليوم ظلت حية فى وجدانه لم يضعفها مرور الأيام .

ورأى يوم ذهب بعبد الله الى هبل ليذبحه وفاء لنذره ، ورأى الناعى وقد جاء ينعى اليه عبد الله ، وما لبث أن رأى ابنه الحارث يلفظ ذوب نفسه ، وهز رأسه فى ضعف كأنما يحاول أن يمحسو ذكريات الموت . وراح يجاهد ليتذكر رحلاته فطفت على سطح خياله رحلته الى اليمن ، واذا بصوت الكاهن الذى ذهب اليه يرن فى أعماقه :

« أنى أرى فى احدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة » كانت تلك النبوءة غامضة فى ذلك الوقت ولكنها واضحة له فى هذه اللحظة وضوح النهار ، فقال فى صوت واه :

— على بابنى .

فخف أبو طالب الى حيث كان ابن أخيه ، وما لبث أن عاد بمحمد ووضعه بين ذراعى الشيخ . وحاول عبد المطلب أن يضم حفيده اليه ولكنه كان أوهى من أن يحرك ذراعيه ، وهم محمد

بأن يرتقى على صدر جده كما ارتقى من قبل على جثة أمه وأن يطلق لعواطفه العنان وأن يذرف الدمع السخين على حبه الكبير ، الا أنه أشفق أن يؤذى حبيبه فراح يقاوم دموعه وان كانت نار اليتيم ترعى بين ضلوعه •

سيذهب جده ولن يثوب وسيتركه كما تركته أمه للشجن واليتيم والألم والدموع ، انه بات يشعر وهو فى دار جده أنه غريب ، وراح يقلب عينين دامتني فى الحاضرين ، أنه يرى من بين الدموع هالة زوج جده ، وعماته صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى ، وزوجة عمه فاطمة بذت أسد ، وجارية أبيه الحبشية بركة ، وأعمامه الزبير وأبا طالب وأبا لهب والعباس وحزمة ، انه يستشعر أن الأرض تكاد أن تميد به ولا يدرى الى أى صدر حنون يهرع ليرتقى عليه ليذرف عبراته • وقد وجد فى تلك اللحظة أن أمه بركة أقرب الحاضرات الى قلبه الواله الحزين ، فهى عبير آمنة ورفيقة الطريق بعد أن قبرا الغالية ، وهى التى مسحت بيدها يثمه عقب أن عاد الى مكة وحيدا حزينا يكاد أن ينفطر فؤاده من الأسى ، فانطلق اليها وأخفى وجهه فى طيات ثيابها وراح ينشج فى صوت مكتوم حتى لا يصل نحيبه الى الشيخ الحبيب •

كان عبد المطلب قد ذهب بصره الا أنه كان يرى فى وضوح وهو يعانى سكرات الموت أباه هاشما وأمّه سلمى وابنيه عبد الله والحارث وقد جاءوا ليأخذوه ، وفطن الى أنه الفراق فأحب أن يسمع رثاءه ، فالتفت ناحية بناته وقال لهن :

— أبكين علىّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت •

فألت صفية :

أرقتُ لصوت نائحة بليل
 على رجل بقارعة الصعيد
 ففاضت عند ذاك دموع عيني
 على خدى كمنحدر الفريد
 على رجل كريم وغيره وغله
 له الفضل المبين على العبيد
 على الفياض شبية ذى المعالي
 أبيتك الخير وأرث كل جود
 صدوق في المواطن غير نكس (١)
 ولا شخت (٢) المقام ولا سنيدا (٣)
 طويل الباع أروع شينظمى (٤)
 مطاع في عشيرته حميد
 رفيع البيت أبلج ذى فضول
 وغيث الناس في الزمن الحرود
 وقالت أميمة :

ألا هلك الراعى العشيرة ذو الفقـ
 وساقى الحجيج والمحامى عن المجد
 ومن يؤلف الضيف الغريب بيوته
 إذا ما سماء الناس تبخل بالرد
 كسبت وليدا خير ما يكسب الفتى

-
- (١) الرجل الضعيف الذى لا خير فيه .
 (٢) الضعيف الذى لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه الى غيره .
 (٣) الشخت : الدقيق الضامر من غير هزال .
 (٤) الشينظمى : الطويل الجسم .

فلم تنفك تزداد يا شبيهة الحمد
 أبو الحارث الفيض خلى مكانه
 فلا تبعدن فكل حى الى بُعد
 فانى لبـاك ما بقيت وموجع
 وكان له أهلا لما كان من وجدى
 سقاك ولى لناس فى القبر ممطرا
 فسيوف أبكيه وان كان فى اللحد
 فقد كان زينا للعشيرة كلها
 وكان حميدا حيث ما كان من حمد

وقالت أروى :

بكت عيني وحقق لها البكاء
 على سمح سجيته الحياء
 على سـهـك الخليفة أبطحى
 كريم الخيم نيته العلاء

وقالت برة :

أعيني جودا بدمع درر
 على طيب الخيم والمعتصر
 على ماجد الجد وأرى الزناد
 جميل المحيا عظيم الخطر
 على شبيهة الحمد ذى المكرمات
 وذى المجد والعز والمفتخر

وقالت عاتكة :

أعيني جودا ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام

وقالت أم حكيم البيضاء :
 ألا يا عين جودى واستهلى وبكى ذا الندى والمكرات
 وما انتهت بناته من رثائه حتى قال فى صوت متهدج متقطع :
 — هكذا فابكينى •

ولفظ شيخ بنى هاشم النفس الأخير فضج الحاضرون بالبكاء ،
 ووقف محمد خلف سرير عبد المطلب يبكى جده أحر بكاء وقد ثار
 فى نفسه ألم حاد عميق ، انه أضحي مرة أخرى يتيما ، لا مستقبل
 له ينعطف إليه ولا صدر حنون يرثمى عليه ، أن النيران قد اشتعلت
 فى جوفه وانه يعانى تجربة الوحدة المريرة الممضة القاسية •

كان بين أعمامه وعماته الذين يذرفون الدموع ألا أنه كان
 يحس كأنه تائه فى بيداء الحياة- ، الحزن يضطرم فى أعماقه ،
 والدموع لا تطفئ لهيب نفسه الحزينة • أنه وحيد يستشعر أنه فى
 جانب والعالم كله فى جانب آخر ، فهو وحده الذى يستطيع أن
 يحس لوعة الأسى وحدّة الألم التى تعصره عصرا •

ماتت أمه آمنة وتركته يجابه الحياة وحده يعانى التجارب
 الأليمة ، فلما كفله جده وغمره بعطفه كاد يطمئن الى الأيام ويركن
 الى الحنان الدافق الذى يهدد حواسه ، ولكن المنون عادت
 وأختطفته جده الحنون وتركته حليف الوحدة والألم لتكتسب ذاته
 عمقا وخصبا وثراء ، فالتجارب الأليمة التى يعانىها تندمج فى صميم
 وجوده وتزيد فى خصب حياته الروحية وفى عمق حياته الباطنية ،
 وتصبح ثروة فى الفؤاد تدخرها ذاته للمستقبل سلاحا يصده
 هجمات الأحداث المرة الأليمة •

وذاع فى مكة أن عبد المطلب مات فساد الناس وجوم وظفرت

العبرات من العيون . واشتدت النادبات الى جبل أبى قبيس يندبن
رجل الكرم والجود ، وانطلقت ألسنة الشعراء بالثناء وأغلقت
الأسواق حداداً على الرجل الذى ظل لسنوات طوال أمل قريش
ورمز مكة وعزها .

وحمل بنوه النعش على أكتافهم ، وسار رجال مكة كلهم خلفه
سادة وعبيداً وقد غامت الوجوه حزناً وامتلأت المآقى بالعبرات ،
وانطلق محمد فى الزحام فى جنازة جده وهو شارد يكاد الحزن
أن يمزق أوتار قلبه ، يعانى فى صمت مرارة الألم وقسوة الوحدة
وإن كان فى غمار كل أهل مكة .

وحركت أشجانه الذكريات الحزينة فرأى نفسه وهو على ظهر
بعيره وأمامه أمه جثة هامة مسبلية العينين ذابلة الوجه صامته
صمت القبور ، يخب بهما البعير منطلقاً الى الأبواء لتوارى الأم
الحبيبة فى التراب ، فلم يستطع أن يملك زمام ذاته فانفجر باكياً
يحس أن كبده تكاد تنفطر وأن حلقه قد امتلأ بأشواك .

وبلغت الجنازة الحجون فدلّى عبد المطلب فى حفرة ليقبر الى
جوار جده قصى فضج الناس بالبكاء ، وراح محمد يتلوى
أسى وألماً وحزناً . انه الموت ، انه الفراق ، انه الوداع ، وانه
ليتجرع نفس غصص الألم التى تجرعها يوم أن قبرت أمه غريبة
فى أرض غريبة ، وقد أمسى هو نفسه يحس غربة وإن كانت قريش
كلها حوله .

وأهيل التراب على عبد المطلب وعاد الناس الى دورهم مطرقين
أسفاً ، وعاد حمزة بن عبد المطلب ليرتمى فى أحضان أمه هالة يبكى

- ٨٢ -

وينتخب ، وقفل العباس الى دار أبيه ، ولم يعد محمد الى البيت الكبير فقد خوى من جده الحبيب ، بل ذهب الى الحرم ومد بصره الى حيث كان يجلس عبد المطلب فى ظل الكعبة ، ثم سح الدموع على ذهاب جده وعلى يتمه الذى تجدد .

- ٨٣ -

اختصم الزبير وأبو طالب شقيقا عيد الله أيهما يكفلُ محمداً ، فالزبير يحب أن يضم ابن أخيه الى بنيه وأبو طالب يتمسك بوصية عبد المطلب ، فقد أوصاه أبوه قبل أن يموت أن يرعى حفيده الحبيب . ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر بأن يترك لليتيم أمر اختيار من يحب أن يعيش فى كنفه ، فجىء بمحمد وخير فاختر أبو طالب فضمه عمه اليه فى حب ، ثم انطلقا الى دار أبى طالب وقد حملت بركة الحبشية متاعها ومتاع ابنها من البيت الكبير الى دار الكافل الجديد .

وخرج خروج محمد من بيت جده أشجان هالة فذرفت الدمع على ابن آمنة اليتيم الذى لم يعرف الاستقرار مذ تفتحت عيناه على النور ، فما مضت ثمانية أيام على ولادته حتى حملته حليلة الى هوازن ليستد عوده فى بنى سعد ، وما كاد يألف جبال البیداء ووديانها ويتفتح فؤاده لآخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله حتى أعادته حليلة الى أمه لينعم بالحب الصافى العميق ، ولم تطل أيام

طفولته المستقرة السعيدة فما أسرع أن حملته أمه الى يثرب ليزور
قبر أبيه •

ومكت الفتى الذى كتب عليه أن يضرب فى الأرض شهراً فى
ضيافة أخوال جده من بنى النجار يجوس خلال الديار ويتعلم
العموم وهو الذى لم ير فى مكة ولا فى بيداء بنى سعد مجارى
الماء ، ليسفر منذ نعومة أظفاره على استعداد له لتطوره وعلى سموه
على عادات قومه • وقد انتهت أيام يثرب بقمة مأساة لصبي أذ ماتت
أمه فى الطريق وتركته يواجه وحده لطمات أمواج الحياة فى سفينة
بلا ربحان •

وترك الغلام بيت أبيه عبد الله بعد أن خلا من آمنة الرعوم ،
وما كاد يطمئن على صدر جده الحنون وينسى آلام اليتيم ومرارته
حتى ذهب عبد المطلب كما ذهب من قبل عبد الله وآمنة ، وذاهب
الموت لا يثوب • وحز فى نفس هالة أن كتب على ابن آمنة ولما
يتجاوز الثمانية من عمره عذاب الألم وقسوة الوحدة ومرارة
الأحزان ، وما خطر على قلب بنت وهيب أن القوة كلها والغبطة كلها
والثروة الروحية كلها انما تنبعث جميعها من الوحدة والألم
والأحزان ، وأن ابن عبد الله انما يصهر فى بوتقة الألم لتكتسب ذاته
عمقا وخصبا وثراء ورحمة تؤهله جميعا للمرسالة السماوية التى ينوء
بها أولو العزم من الرجال •

كانت هالة ابنة عم آمنة وزوجة عبد المطلب وأم حمزة ، وكانت
ترجو من كل قلبها أن يستمر محمد فى بيت جده مع عمه حمزة الذى
كان فى مثل سنه ، ولكن كان يحول دون تحقيق أمنيته تقاليد
عتيدة لا تقر بأن يترك صبي مثل محمد فى كنف امرأة ولو كانت

ابنة عم أمه وزوج جده الحبيب ، فكان لا بد أن يكفله عم من أعمامه ، وقد انتقل يتيم قريش من دارها الى دار أبى طالب مخلفا فراغا ولوعة وأسى فى قلب حمزة ، بل فى قلوب كل من فى البيت الكبير من سادة وعبيد •

ورحبت فاطمة بنت أسد بالوافد الكريم وحاولت بحنانها أن تمسح عن صدره الألم والأحزان ، وجاهدت ليندمج الفتى اليتيم فى بنينا يلعب معهم كما يلعبون ويلهو كما يلهو ، ولكنه أثر الوحدة والانطواء على نفسه وسبر غور ذاته ، فقد اختبر عمق حياته الباطنية وأدرك تفاهة الانغماس فى حياة مجتمعه •

ووضع أبو طالب الطعام وجلس محمد مع بنيه فاذا بأبناء أبى طالب ينهبون ما أمامهم ولم يمد محمد يده ، ولاحظ أبو طالب ذلك ففطن الى أن ابن أخيه يتعفف وأنه يكره أن يتناول شيئا من الطعام قد يشتهيهِ غيره ، فأمر أبو طالب أن يقدم لمحمد طعامه وحده • وقلما كان باتى على ما يقدم اليه ، وعلى الرغم من ضآلة ما كان يأكله فإنه كان ينمو نموا يفوق نمو من كان فى مثل سنه •

وكان محمد يخرج الى الحرم ويطوف بالبيت ويتأمل أهل مكة وهم يتمسحون بتماثيل الآلهة ويقدمون اليها القرابين ، فلم يستسلم لمجتمعه ولم يفعل ما يفعل قومه بل راح ينظر ويتأمل ويفكر فلم يسترح بفطرته السليمة الى هذه الأفعال التى تركز كل آماله فى صنم . بل كان ينطلق الى الفضاء العريض فيستشعر أن الكون كله محرابه وأن كل نظرة الى السماء التى لا تحد صلاة ، وكل رنوة الى غروب الشمس أو بزوغ القمر أو تلاؤلؤ النجوم تسبيح . وأن الوجود جميعه بما يخفق فى جنباته من نبض الحياة

قدس أقداسه . انه ينصهر فى شروق الشمس ويذوب فى الشفق ويحس بينه وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق والاتزان والتطابق ، فهو وان كان منطويا على ذاته فانه يستشعر فى صميم وجدانه بالعالم ، بل بالآفاق ، بسحرها وسرها وغموضها اللذيذ .

كان كلما ارتمى فى أحضان الكون يتהל بفرح روحى ؛ ويربو خصب حياته الباطنية ، ويتضاعف ثراء كنوز فؤاده وينطلق حرا طليقا من سجن جسده ليهيم فوق السحاب ، بل ليسمو الى ما فوق السماء ، وقد كانت رحلة روحه القوية تروى بذور نموه الروحى وتفتق البراعم عن أسرار عظمتة .

رده الألم الى ذاته وأتاح له معاناة الوحدة على حقيقتها . فكانت الوحدة ملاذاً أميناً مكنه أن يكشف عمق حياته الباطنية ؛ وأن يظل طويلا مطويا فى داخل صمته يتأمل ويتدبر ويفكر ويتصل بالملكوت الأعلى ، ليتسلح لذلك اليوم الذى سيجابه فيه الدنيا بأسرها ليبلغ رسالات ربه .

انه رأى أمه تموت أمام عينيه ، ورأى جده يشهق شهقة ثم يمضى بلا عودة ، فراح يفكر فى المولد والموت وما بعد الموت ؛ ان الانسان يولد ويموت وحيداً وليس لأحد أن يعيش عوضاً عنه أو يموت عوضاً عنه ، هذه حقيقة ولكن ماذا بعد الموت ؟ أخلق الانسان عبثاً ؟ ذلك هو السر الذى يحيره .

الموت ! انه وقف عاجزاً أمامه يوم أن صرع أمه واختطفها من بين أحضانه لتغيب فى التراب ، الموت ! انه أستل جده الحبيب من بين بنى هاشم الأقوياء دون أن يحرك أحدهم ساكناً . ترى أيموت

الناس كما يموت البعير ثم لا شيء ؟ أتطول وحفته على أعتاب ذلك السر ؟

والانسان ؟ من أين جاء ؟ هل انبثق من العدم ؟ والى أين يذهب ؟ أيزهّب الى العدم ؟ أسئلة دارت في ذهنه لم يجد لها في ذلك الوقت جواباً ، ولكنه كان يحس أن هناك صلة وثيقة بينه وبين العالم الذي يعيش فيه ، بل بين روحه التي تخفق بين جنبيه وروح الوجود التي تسرى في الكون . وكان ذلك الاحساس يملأ جوانبه بالنور ، ولكنه لم يكن يقضى على الأسئلة الذكية التي تثور في وجدانه .

كان يستريح لصحبة نفسه ويبتهج للخواطر التي تثور في ضمير ذاته ، ويركز ذهنه ليلقي أضواء عليها ويطيّل تأمله الباطني ويراقب ضميره فتزداد حياته الروحية عمقا وثراء ، فيدنو من السماء وتدنو منه السماء .

كان عملاقاً في جسم غلام ، انه أكبر بكثير مما يديه جسده أو ما يراه منه الآخرون ، فهو على الرغم من حداثة سنه لم يسجد لصنم ولم يذبح لوثن ولم يصنع الى عراف ، ولم يحلف أبداً باللات والعزى والحلف بهما يتردد في الحرم وفي الدور وفي الأسواق ، ويتجاذب في شعاب مكة وجبالها وروابيها بل وفي كل فج عميق من أرض الحجاز .

وجاء يوم عيد من أعياد قريش الدينية يخرج فيه الناس الى صنم من أصنامهم يذبحون له ويحلقون عنده ويعكفون عليه يوماً الى الليل في كل سنة ، فنقاطر أبناء عبد المطلب وبناته الى بيت أبي طالب في البكرة وراح كل منهم يقبل محمداً ويضمه اليه في حنان

ومحمد سعيد بالعواطف الرقيقة الفياضة بالحُب التي تغمره • وراح أبو طالب وزوجه فاطمة يعدان الإفطار للأسرة التي تجمعت لتنتقل إلى العيد ، وخلا الزبير بمحمد وطفق يحدثه عن رحلة الشتاء التي سينطلق فيها إلى اليمن ، فعرض محمد على عمه أن يأخذه معه فما كان الصبي الذي راح يجوب الآفاق منذ اليوم الثامن من مولده يحب حياة الدعة والاستقرار ، فرحب الزبير بصحبته ، وراح العم وابن أخيه يستبقان الزمن ويجريان بخيالهما وراء الرحلة الموفقة الميمونة •

واجتمعت أسرة عبد المطلب حول الطعام ، وقبل أن يمد أحدهم يده تلقت أبو طالب فلم يجد محمداً ، فقال :

— كما أنتم حتى يحضر ابني •

وجاء محمد وجلس يأكل معهم ، وامتدت الأيدي وامتألت البطون وبقي فضل من الطعام ، فالتفت أبو طالب إلى محمد وقال :

— إنك المبارك •

كان أبو طالب قد ولى زمزم والسقاية عليها بعد أن مات عبد المطلب ، وكان في بجبوحة من العيش ، تجارته رائجة ، ولم يكن بعد كثير العيال ، وكان العباس في الثالثة من عمره وكان يتطلع إلى الغنى ولكنه لم يثر ولم يعرف الذهب طريقه إليه ، وكان على الرغم من أنه من أحدث أخوته سناً إلا أنه كان يتطلع إلى أن يلي شرف الرفاة والسقاية لحجيج بيت الله •

وتأهبت أسرة عبد المطلب للخروج إلى العيد ، وارتفت صيحات الفرح من غلمان بني هاشم ، حتى عمات محمد لاح في وجوههن البشر • واندفع الرجال والنساء والصبيان نحو الباب فرحين يرجون

(اليتيم)

رضاء آلهتهم عليهم ، وحانت من أبى طالب التفاتة فألفى محمداً
قد انزوى بعيداً وقد جلس الى شباك وقد شرد يمد بصره الى
السماء ، فقال أبو طالب :

— محمد ، ألا تحضر العيد معنا ؟

— لا .

وصوبت الأبصار الى محمد وقد لاح فيها خوف ، ودنت
أحدى عماته منه وقالت له انها تخاف عليه من غضب الآلهة . ولكنه
أبى أن يذهب معهم فغضب عليه أبو طالب وغضبت عليه عماته
أشد الغضب وجعلن يقتلن :

— انا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا .

— ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا ؟ !

فلم يزالو به حتى ذهب معهم وقد عزم على أن يوكن فى
صحبة نفسه منطويا على ذاته ، يعانى فى عمق تجربة الوحدة فى
المجتمع ، وأن كان العالم الخارجى ينبض بثرثرة المخلوقات التى
لا تكف عن استعراض ذاتها والتحدث عن نفسها والتدخل فى شئون
غيرها وإذاعة سرها وأسرار الناس دون أن يكون فى وسعها أن
تقبع فى ذاتها لكى تسبر غور نفسها .

وبلغ أبو طالب ومن معه رجلا من قبيلة لهب كان قائما قد أناه
رجال من قريش بغلمانهم ينظر اليهم ويقتاف لهم فيهم ، ينبئهم
بعين فراسته عن مستقبلهم ، فأتى أبو طالب بمحمد ودفع به الى
القائف لعله ينبئه عن سبب تلك الكراهية التى يحملها ابن أخيه
لآلهتهم ، فنظر الرجل الى محمد نظرات فاحصة ثم شغل عنه بشيء ،
فلما فرغ قال فى لهفة :

— على بالغلام •

وجعل يقول :

— ويكلم ردوا على الغلام الذى رأيت أنفا ، فوالله ليكون له

• شأن

فلما رأى أبو طالب حرص الرجل عليه غييه عنه وانطلق به حتى أتوا مكان الاحتفال ، وإذا بأصنام قائمة ، وإذا بالناس يطوفون حولها طوافهم بالكعبة ، وإذا بالذبائح تذبح ، وإذا برجال ونساء وأطفال يطوفون حول الذبائح مهللين مستبشرين ملتسمين من آلهتهم أن تتقبل منهم وأن ترضى عنهم ، وإذا برجال يحلقون رؤوسهم عند أصنام الآلهة ، وإذا بعوافين ومنجمين وقافة قد افتشروا فى أرض العيد وقد أتاهاهم الناس ملتسمين ازاحة الستار عن أسرار الغيب •

وراح الزبير وأبو طالب وأبو لهب وحمة وصفية وأم حكيم وهالة بنت وهيب ورجال بنى هاشم ونسأؤهم وولدانهم وعبيدهم وامأؤهم يطوفون بأصنام الآلهة فى خشوع ويبتهلون إليها فى حرارة ، ثم قدمت القرابين لتذبح ، وسالت الدماء عند أقدام الآلهة ومحمد بن عبد الله واقف ينظر من بعيد ، يتأمل ويفكر فى الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا ترى ، التى يلوذ بها الناس ويشخصون إليها بأبصارهم وفى العيون دموع وفى القلوب خشية ، فيعجب من أحلام قومه الذين يعبدون ما ينحتون • وعبق البخور فى المكان وراح يتصاعد الى السماء ، وعلقت الهدايا الغالية بالأصنام وألقيت النذور فى الغعب الذى كان أشبه ببئر صغيرة عند أقدام كل صنم ، وراح سدنة الآلهة ينظرون

وقد تآلفت بالطمع عيونهم ورف الجشع على شفاههم وان تظاهروا
بالتقوى والصلاح .

وطهيت لحوم الضحايا التي ذبحت على النصب ، ومدت الموائد
لينال المكيون الطعام اللذيذ بعد أن نالت الآلهة ما تشتهى من الدماء ،
وقدمت خمور الشام فراح الرجال يعبون منها عبا ، وأبى أبو طالب
أن يشرب فقد حرم الخمر على نفسه ، وامتنع عبد الله بن جدعان
عن الشراب فإنه كان يحاول أن يقبض على أشعة القمر وهو سكران
فلما أفاق وأخبر بما فعل أقسم ألا يعود للشرب أبداً .

ولعبت الخمر برعوس الرجال فطار الوقار كأنما قد استحال
سادات الناس الى قردة تتقفز فى نشوة وتعبث دون مبالاة ،
وراح محمد يرقب ذلك المجتمع العابث الذى فقد وقاره وهو يرثى
فى قرارة نفسه لذلك الابتذال الذى تبدى من قوم خرجوا من
دورهم لتقديم عبوديتهم للآلهتهم .

وتبخرت النشوة المؤقتة من الرعوس وبدأ الصداع وثقلت
الجفون وحنث الأجسام الى الرقاد فامتلات الساحة بالراقدين .
واصفر النهار ثم غابت الشمس فى الأفق الغربى فقام العبيد بايقاد
النيران على حوافى أرض العيد ، فراحت السنة اللهب تتراقص
فى الفضاء وتعكس أضواءها على أصنام الآلهة فيبدو المكان رهيبا
كأنما قد غلف بسحر يأخذ بمجامع القلوب .

وراح محمد يرنو الى تلك الأصنام التى كانت تتألق فى أضواء
النيران فيحس رغبة فى أن يقوم اليها يتحسسها ، فقد كانت تبدو
فى سكون الليل وقد تراقصت عليها ظلال النار غيرها فى النهار ،
فنهض وسار اليها ومد يده ليمس أحدها فاذا به يخيل إليه أن قد

قام بينه وبين الصنم شبح طويل يصيح به أن يعود ، فجمد في مكانه لحظة ، حتى اذا ما سكن روعه واسترد أنفاسه راح يمد يده للصنم آخر فاذا بذلك الشبح قد قام بينه وبين الصنم وصاح به أن يعود ، فراح يعدو الى الدار مرعوبا فزعا لا يلوى على شيء •

كانت بركة في الدار فلم تخرج مع الخارجين ، فقد كانت حبشية ولم تكن على دين القوم وما كانت تحفل بأعيادهم وان كانت تطوف بالبيت العتيق وتقسم بما يقسمون ، فلما دخل محمد عليها قرأت الرعب في وجهه فقالت له :

— ما دهاك ؟

— انى أخشى أن يكون بى لم (المس من الشيطان) •

— فما الذى رأيت ؟

— انى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل

يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه •

فضمته بركة الى صدرها كأنما كانت تحميه من أشباح تطارده ،

ثم قالت :

— ما كان ربك ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير

• ما فيك •

— ١٠٢ —

— ١١ —

ازدحم الناس في بيت الزبير بن عبد المطلب فقد جاء الموسرون من المكيين ليقدّموا الى زعيم القافلة التي ستتطلق الى اليمن في رحلة الشتاء بضاعتهم ، أو ليسلموه بعض النقود الفارسية أو الرومية ليشتري لهم بخورا يحملونه الى الكنائس في رحلة الصيف ، فالقسيسون والرهبان يقبلون على البخور ويشترونه بأسعار عالية ليطلقوه في كنائسهم •

وجاء بعض متوسطي الحال والنسوة بما ادخروه في عامهم ليشاركوا في قافلة قريش التي كان خروجها الى الشام أو الى اليمن يوما من أيامهم المعدودة ، والتي كانت عودتها عيدا يدخل السرور على مكة كلها حتى ان غناء القيان كان ينبعث من كل دورها •

وأقبل أبو طالب وبعض بنيه ومحمد بن عبد الله الى دار أخيه ليوصيه بشراء عطارة لذكائه وليساهم ببعض ماله في تجارة قومه لعله يربح ما يعينه على رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم فقد حمل ذلك العبء بعد موت أبيه عبد المطلب ، وهو يتمنى من كل قلبه أن ينهض به كما نهض به أبوه وألا يقصر في حق ضيف الله وزوار بيته ،

وراح محمد ينظر الى الحشود التي ملأت دار عمه الزبير ، والى العقود التي تبرم ، والى الصكوك التي توقع ، والى البضائع التي تحصل الى المخازن ، والى العبيد الذين كانوا في غدو ورواح

وقد تفصد العرق من أجسامهم وأنبهرت أنفاسهم ، والى المرابين الذين خفوا الى ساحة الدار التى انقلبت الى سوق ليقرضوا الراغبين فى المغامرة بربا فاحش ليأكلوا أموال الناس أضعافا مضاعفة ، فكان ييش مرة وينقبض فؤاده مرة ، ويستشعر الشفقة مرة ويمتلىء بالضيق وبالزراية مرة ، فقد كانت عواطفه تتحرك حسبما كان يجرى أمام عينيه ، وكانت تجارب جديدة تضاف الى رصيد تجاربه كل يوم .

كان محمد فى علاقة مباشرة مع العالم يحاول ببصيرته النفاذة أن يغيص ليكشف عن جوهر الأشياء ، وما كان بمعزل عن الآخرين بل كان يحاول دائما أن يهيب بارادته لكى تعبر ذلك الجسر الذى يربط بين ذاته وذوات كل من حوله من البشر ، لا ليقف على وصيد سر البشرية بل ليزيح الستار عن أغوار النفس ومكن الأسرار .

وراحت تراوده رغبة وهو فى وسط خضم المكين الزاخر أن يصبح ذات يوم شعاعا يضىء أفئدة هؤلاء الناس الذين يحبهم . فهو لا يتقبل الواقع على ما هو عليه من ظلم وجشع وقسوة ، بل انه ليحس فى أعماقه أنه لقادر على أن يبدل هذه النفوس الضالة التى يقودها طمع المادية الى سبل الضلالة والخسة الى طريق الرشاد ، اذا ما عرج بقومه الى غاية روحية ترفعهم من ضرورات الأجسام الى آفاق أسمى .

لم تكن الصورة واضحة فى نفسه بل كانت لا تزال احساسات غامضة وأمانى لم تتبلور بعد فى صميم ذاته ، انها بذرة صالحة غرست فى أغواره وقهس من نور النور أضاء ظلام وجدانه ، وانه

لحريص على أن يتعهد تلك البذرة وعلى أن يفتح كل نوافذ باطنه
لتسطع جوانحه بالنور ويفيض على الكون من حوله •

كان أثرياء مكة يتدفقون الى دار الزبير ويجتمعون في دار
الندوة ويحررون العقود عند الملتمز لا حديث لهم الا التجارة
والأرباح والبضاعة والقروض وربما الفضل وربما النسيئة ، بينما كان
فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية املاق ، فيقول الرجل منهم
لزوجته أن تزين ابنتها وتطيبها حتى يذهب بها الى أحماؤها وقد
حفر لها بئرا في الصحراء ، فاذا ما بلغ بها البئر يقول لها : انظري
فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب •

وكان الوأد منتشرأ بين الفقراء ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل
يشفق على الموءودات فكان اذا رأى رجلا أراد أن يقتل ابنته
يقول له :

— لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها •

ولم يكن زيد بن عمرو هو الذى يحيى الموءودات وحده ،
فقد كان بعض عقلاء العرب يأخذون البنات اللاتي يريد آباؤهن
وأدهن ، فاذا ما ترعرعت احداهن عند أحدهم قال لأبيها :

— ان شئت دفعتها اليك ، وان شئت كفيتك مؤنتها •

وكان محمد يرى الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة
فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فاذا ولدت بنتا رمت بها في
الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته • ورأى الآباء يدفعن بناتهن من
خلفهن في الآبار التي حفروها في الصحراء ثم يهيلون عليهن
التراب ، فكان يحس أسى وتثور في نفسه ثورة عارمة على ذلك
الشر الذى يزهق أرواحا بريئة •

وخرج رجال مكة ونسائها وفتياتها وعبيدها وامائها وعاهراتها الى حيث أناخت القافلة ، وما كاد الليل يرخى سدوله حتى جلجت، ضحكات السكارى وارتفع صوت القيان بالغناء وانسل الشباب الى العاهرات ذوات الرايات الحمر ، وراح العبيد يغدون ويروحون بين المخازن والابل التى أنيخت لتحمل على ظهورها التجارة • فطفق محمد يتأمل حال قومه ، حرية مطلقة وعبودية مذلة للبشرية ، حرية تنخر قلب الوجود وتفرز سموما خبيثة تشيع فى الكون الفساد ، وعبودية قاسية تهوى بالانسانية الى مهاوى الانحطاط ، الى مستنقعات الوحل والأقذار •

وفطن الى أن الوجود لا يمكن أن يسمو بمثل هذه الحرية الفاسدة ، الحرية الطليقة التى لا يعقلها عقل ، حرية فى ظاهرها وان كانت عبودية الشهوات والنزوات ، حرية تتكب الطريق القويم للخلاص • أنه يحس ضرورة تنظيم هذه الحرية ، بل تقييدها بنواهى لتنتقل فى طريق النجاة ، ولكن ما كان يعتمل فى صدره كان مجرد احساس لا يدرك كيف يتطور الى منهج عمل وواقع حياة !

وكان ما يلقاه العبيد من ذل واضطهاد يمس وترا حساسا فى فؤاده ، انه يرى فيما يقاسى العبيد اهدارا لكرامة الانسان ويستشعر بالسيئات التى تهوى على ظهور العبيد سياطا تلهب ضميره ، فهو فى صميم وجدانه لا يستطيع أن يفرق بين حر وعبد وبين سيد ومسود ، ففى كل منهما روح خفاقة تستحق التكريم والتبجيل والاحترام •

وراح يقلب وجهه فى رجال مكة وشبابها ونسائها وفتياتها ، وما كان مأخوذا بسحر الملموس والمرئى والمسموع بل كان يركز

ذهنه ويصنيخ السمع الى ما يثيره عقله الراغب فى المعرفة ويحاول أن يحلل البواعث ويزن الظروف ويغوص فى أعماق النفس البشرية ليكشف عن الدوافع والأهواء والنزوات •

انه يرى الناس يعملون ما يحلو لهم دون أكثر استجابة لعواطفهم وميولهم وأهوائهم ، دون تدبر وروية ، تلبية لأول دافع يخطر لهم على بال • وهو يحس فى أعماق أعماقه أن العمل ينبغى أن يعمل بعد تدبر وتفكير وأن يستهدف التخلص من كل شر ومن كل كراهية وأن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، فالإنسان ليس حراً الا بقدر ما يسمو بنفسه فوق الأهواء •

كان المفهوم الأخلاقى يتعمق فى ذاته كلما مرت الأيام وفكر وتدبر وتفاعل مع مجتمعه وقاسى من معاناة الحياة ، فبات يؤمن أن الحياة الانسانية الصحيحة انما تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية ، وأن المرء لا يحيا حياة انسانية خالصة الا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء ، وأن امكان وضع الأصابع فى الأذان كلما هتفت نوازع الشر فى أعماق النفس والاعراض عن نداءات الشهوات الدنسة ان هى الا بصيص النور لاشراق الوجود •

وحان أوان الرحيل فمشى الرجال الى الرجال يتعانقون مودعين ووقفت الأمهات والزوجات والبنون والبنات وفى العيون دموع ، وخف أبو طالب وبنوه والعباس وحمة لتوديع الزبير ومحمد بن عبد الله • وقبل أن تنطلق القافلة فى معبد الكون جاءت بركة الحبشية وضمت محمداً الى صدرها وعبراتها تسيل على خدها ، فأحس محمد رقة وطفرت الدموع من مآقيه •

وسارت القافلة لتخرج من مكة الى الصحراء متجهة صوب

الجنوب وعلى رأسها الزبير بن عبد المطلب وقد ركب معه على بعيره محمد ابن أخيه ، وقد كان الزبير يغمر محمدا بعطفه ولكنه لم يكن فى عين اللحظة يحس خطر ذلك الغلام الصامت الذى يعيش فى قوقعة ذاته ، فما كانت العين بقادرة على أن ترى المشاعر الغنية التى تموج فى وجدانه ، ولا الآراء الناضجة التى تعتمل فى رأسه ، ولا البصيرة النفاذة التى تجول فى الكون والمجتمع وأعماق نفوس البشر للبحث عن سر الوجود •

وسرت القافلة فى الفضاء ومحمد هائم فى الوجود ؛ انه قاسى كثيرا من العذاب وذاق ألوانا من الألم وتحمل مرارة اليتيم والغربة وان كان أعمامه وعماته وكل بنى هاشم يغمرونه بالعطف والحنان ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يائسا من وجوده بل كان مبتهجا به ، يتהלل بالفرح كلما اندمج فى الكون وأحس تعاطفا مع ذلك العالم الكبير الذى يعيش فيه •

كان طوال الرحلة يجد نفسه وحيدا وان كانت القافلة تموج بالناس ، قد خلّى بينه وبين نفسه ألا أنه كان فى صميم وجدانه يحس أن هناك قوة عليا تحميه ، تلقى فى ضميره حكمة تنير له سبيله • أنها قوة خلاقة مبدعة ، وانه ليستشعر قوة عارمة كلما صفت ذاته وحاولت أن تختلط بتلك القوة العلية ، وكثيرا ما كان يهيم ليذوب فى روح الروح فيسمو على الوجود البشرى مخلفا وراءه دنيا السلب والشر والهدم والعدم والفناء •

انه ما كان يقنع بما يحقق كل يوم من كسب روحى ، ولا يستنيم الى ما يحرز من نصر على ما فى طبيعته البشرية من نقص ، بل كان يحاول كل يوم أن يزيد فى الروابط التى تربط بينه وبين

الطبيعة ، بل ويرتفع الى ما فوق الطبيعة لكي يمضى نحو تطور
روحي يجعله أهلا لأن يندمج ذات يوم فى ذات الذوات •

انه لم يصارع الطبيعة يوما ولم يثن عليها حربا ، بل كان
يحاول أن يفهم مغاليتها فى رفق ، فإذا ما فتحت له بابا من أبوابها
لم يصح صيحات ظفر وانتصار بل كان يتقدم ليطلق بابا آخر
ملتصا من قلبها الحنون أن تفتح له ذلك الباب ، وقد كانت الطبيعة
تبادلها حبا بحب فما كانت تغلق فى وجهه نوافذها وأبوابها ، بل
كانت تفتح له كل قلبها بل وتكشف عن وجه أسرارها النقاب •

انه بالحب استولى على قلوب الناس ، وبالحب وحده شد
الأواصر بينه وبين الوجود ، وبذلك الحب وحده سيتحرر من أسر
ذاته ليقوم بعمل عظيم يستمد أصوله من السماء لاسعاد البشرية
جمعاء مستهينا بكل ألم وكل عذاب ، فقد كان حبه الكبير للبشرية
يعلو على الألم والعذاب ، وقد كان ذلك الحب هو سلاحه الذى
فتح به القلوب جميعا : قلوب الناس وقلوب الأسرار والألغاز •
ونزلت القافلة فى واحة لتستريح ، وكان أول ما فعله رجال
القافلة أن أخرج الكاهن تمثال آله فراح الرجال يتمسحون به
ويطوفون حوله كطوافهم بالكعبة ويذبحون عنده ، وقد ذهب محمد
بعيدا يرنو الى الوجود فى وجد فيحس أن الكون كله محرابه وأنه
قدس أقداسه ، وظل شاخصا ببصره الى السماء يستشعر أنه يصلى
أعمق صلاة وان لم تتحرك شفتاه بالابتهالات والدعوات ، فقد
عرفت روحه طريق الوصول الى القوة العليا التى تمتد السموات
والأرض بروح خفاقة بين جنبات الوجود •

ومدت الموائد والتف رجال القافلة حول الذبائح ، وجلس

الزبير وابن أخيه محمد بن عبد الله بن الجالسين فراح الرجال ينتهبون ويزدردون اللحم ازدرداداً ، بينما تناول محمد بعض لقيمات ليقيم صلبه ثم قام ، فقد كره أن يكون عبداً لشهوة بطنه أو شهوات نفسه ، فقد كان يجاهد ليرتفع بروحه عن أن تغرق في ماديّات ضرورة الأبدان •

كان في صراع مستمر وجهاد شاق مع نفسه ، وأنه ليتعلم على مر الأيام أن أشق الجهاد جهاد النفس ، وأن قول : « لا » لميوله ونزواته ونوازع الشر هو أول خطوات نموه النفسى والخلقى ، وأنه السبيل الى سر الوجود ؛ فلا يسلك ذلك الطريق من ثقل بطنه بالطعام وثقل ضميره بالخطايا والأوازار •

وكان مفتوح العين مفتوح الوجدان مفتوح العقل ، يرقب الناس ويرصد تصرفات الناس ويفكر ويتدبر ويتأمل ويحصل دوافع النفوس ، وما كان يقيس الأفعال بالعرف والتقاليد وما اصطلاح عليه قومه بل كان يزن كل فعل بما ينبغى أن يكون ، وكان يعمل وفقاً لنصائح عقله مستعيناً بذلك النور الذى يضيء جوانبه كلما سرى فى الكون العريض والذى كان يقتبسه من نور النور •

انه فى رحلة دائمة مذ شتج عينيه على نور الوجود ، وأنه ولما يتجاوز العاشرة قد عاش فى أرض هوازن وضرب فى الشمال الى يثرب ، وهو الآن فى طريقه الى اليمن مع قافلة قريش فى رحلة الشتاء ، ان نفسه متعطشة الى أن تهيم فى العالم لتروى ظمأها الى المعرفة ، لتزيد كنوزها عواطفها غنى ، أنه فى سعي مستمر ليتجاوز حاضره بل ليتجاوز ذلك العالم المحدود ليسمو الى ما فوق الواقع ، الى ما وراء الطبيعة ، الى روح الروح •

انه يعيش فى داخل نفسه يتأمل ويبحث ويفكر ويطيل التفكير وينفذ الى صميم العالم الخارجى فيحقق بين ذاته وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق ، بل ومن الحب العميق ، ويرنو دائما الى السماء يستمد منها العون والتأييد فكان بأبعاده الثلاثة ؛ داخل ذاته وخارج ذاته وفوق ذاته يحقق أهدافا سامية خيرة تنتهل لها نفسه بالفرح ، وكثيرا ما كان يحس أن البعد العلوى قد تلاشى ، وأن حكمة السماء تسرى فيه مسرى الدم تتلقى أضواء على أسرار النفوس وأحاجى الوجود .

وتأهبت القافلة لاستئناف رحلتها فابتهجت نفس محمد ، فهو يحب السير فى ذلك المعبد الواسع العريض معبد الكون الذى ينبض فيه قلب الوجود ، انه فى حالة نهم مستمر للمعرفة ، وتعطش دائم الى الغيث الروحى الذى ينزل عليه من السماء ، ورغبة عارمة فى الاتحاد مع القوة العليا التى بات يحسها فى داخل ذاته وفى الكون الذى يسرى فيه وفوق كل أرض وسماء ، ولو كان الجسد يحتل رغبات الروح لظل على ظهر بغيره يهيم يرشف رحيق الكمال غذاء الروح .

وانطلقت القافلة نحو الجنوب ، وارتفع صوت الحادى بالحداء فأغذت الابل السير ، وأطلق الرجال لأخيلتهم العنان يفكرون فيما سيكسبون من أموال وما سيشترون للأهل من هدايا ، بينا ظل محمد خاشعا يحس أنه فى محراب يؤدى صلاة ، وقد صارت غاية وجوده أن يفنى فى الحقيقة المتعالية ، فى القوة التى وهبت ذلك الكون العريض الحياة ، فقد فطن الى أنه لم يخلق نفسه ، وأن هناك خالقا لهذه الابل التى تطوى الأرض ، وهؤلاء الرجال الذين ينطلقون وفى

صدورهم آمال ، ولهذه الشمس المبصرة التي تبعث الدفء والحرارة والضياء ، وذلك القمر والكواكب والنجوم التي تهدى الضاربين فى الليل ، وهو الذى أنزل من السماء ماء منه شراب ومنه شجر ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، فوطد النفس على أن يغالب كل ما يقف فى سبيل الفناء فى روح الوجود ، وأن ينتصر على كل العقبات التي تعترض تحقيق هذه الغاية السامية .

أحس ولما يتجاوز سن الصبا أنه يريد أن يهيم بروحه فى الوجود وأن ينطلق من سجن الجسد ، فاهتدى الى أن الشبع يهين جناح الروح ففرض على نفسه ألا يشبع من طعام أبدا حتى تظل روحه طليقة ترترف فى السموات العلى ترشف الحكمة ويتجلى عليها نور النور .

وفطن ببصيرته النافذة أن معتقدات قومه وأسلوب تفكيرهم تعرقل انطلاق فكره وأنها عقبات فى سبيل تحرر ارادته ، فأشاح بوجهه عنها وأعرض عن أساطير وقرت فى ضمير العرب ، وأصم أذنيه عن أن يصغى الى ما يدور فى حلقات السمار من مجون ، فاستطاع أن يجتاز الهوة السحيقة التى تفصل بين فطرته السليمة وبين أهله الذين غرقوا فى بحور الجهل حتى الآذان .

انه أحس فى صميم ذاته وفى أعماق أعماقه وفى باطن وجدانه بتلك القوة الخالقة المبدعة وبالنور الذى تغمر به قلبه ، وبذلك الصلة التى باثت تربط بينه وبين روح الأرواح ، بيد أن ذلك الاحساس الغامض لم يتكشف بعد فى وضوح لعين عقله ، انه احساس عميق بالحقيقة الخالدة ، وسيطور ذلك الاحساس على مر الأيام الى نور وهدى ورحمة للعالمين .

وبلغت القافلة واديا ضيقا بين جبلين وإذا بفحل من الابل يمنع من يجتازه ، فوقف رجال القافلة لا يتقدمون * وإذا بمحمد الفتى الحالم الذى كان يعيش طوال الرحلة فى ذاته فى صحبة نفسه يتأمل الكون والحياة ينزل عن ظهر بعيره ويتقدم فى خطى ثابتة نحو ذلك الفحل ، وقد لاح الهلع فى وجه عمه الزبير وكتمت أنفاس الناس *

لم يكن أحد من رجال القافلة يدور بخلده أن الفتى الذى يعيش فى قوقعة نفسه يقدم على مثل هذه المخاطرة التى يقدم عليها الساعة ، فقد عرف فيهم بدمائة خلقه وعدم حبه للصخب وميله الى العزلة وطول التأمل والتفكير ، أما أن يمشى الى الخطر فى مثل هذه الشجاعة فذلك شيء جديد لم يكتشف الفتى عنه من قبل *

كان الفحل هائجا مائجا فراح محمد يتقدم منه فى حرص وأناة ، والفحل يلف ويدور ويهدر فى غضب فتتجاوب الجبال هديره فتسرى الرهبة فى قلوب الناس ، الا قلب ذلك الفتى الذى نزلت عليه سكينه وراح ينظر الى الفحل بعينين فيهما حب وعطف وحنان *

وظل الفحل يقبل ويدبر ويغدو ويروح ومحمد فى أثره ، حتى اذا دنا منه ارتفعت صيحات خوف من القافلة ، ولكن محمدا أصم أذنيه عنها ومد يده وراح يمسح بها بطن الفحل الهائج ، فاذا به يطمئن الى اليد الحانية فتسكن سورته وتهدا حركته ويطأطئ رأسه معلنا أنه قد أسلس للفتى قياده ، فاستمر محمد فى الربت على الفحل فى رفق فأحس الفحل بالعطف السابغ الذى غمره الفتى به فبرك وحك الأرض بكلكاه *

- ١١٣ -

وتتقدم محمد وركب البعير وقد ملأ الدهش قلوب كل من في القافلة ، وراح عمه الزبير يحييه في فرح وابتهاج وقد نسي وقاره وأنه سيد الناس ، ونهض الجمل بحمله العالي وسار حتى جاوز الوادي ، وقد كان محمد في تلك اللحظة فارساً أشبه بجده اسماعيل صادق الوعد الأمين يوم أن روض في فيافي تهامة الخيل لأول مرة .

جمع محمد صفات ابراهيم الخليل وصفات اسماعيل ، وكان كأبيه الخليل يحب العزلة والتأمل والنظر في الكون ، وورث عن اسماعيل الفروسية وحب الخيل والصبر والامتثال لمشيئة السماء ، بل جمع كل ما عرفت الأرض من جليل الخصال .

ونزل محمد عن الفحل ثم خلى عنه ، وتقدمت القافلة في الوادي في أمن وسلام ، وكأن ذلك الذي حدث في الوادي كشف الغطاء عما سيقوم به في مستقبل الأيام ، انه يواجه المخاطر وحده ويزيل العوائق والعقبات ويتحمل كل الآلام في سبيل أن تنطلق قافلة البشرية في أمن وسلام .

- ١١٢ -

كان عبد الله بن جدعان سيد بني تميم نديم عبد المطلب ، وكان يمضي النهار في ظل الكعبة يحاور شيخ بني هاشم وزعيم قريش ، وكان يزور نديمه في البيت الكبير . وكثيراً ما كان عبد المطلب يذهب في الليل الى دار ابن جدعان يسمر مع السمار بعد أن حرم عبد الله على نفسه الخمر ، فقد كان يسمى بحاسي الذهب لأنه (البيتيم)

كان يشرب فى اناء من الذهب ، وذات ليلة سكر فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه ، فأخبر بذلك حين صحا فحلف ألا يشربها أبدا •

ومات عبد المطلب فظلت الصلة وثيقة بين أبناء عبد المطلب وعبد الله بن جدعان وقومه من بنى نعيم ، فكان يختلف الى دار ابن جدعان أبو طالب والزبير وحزمة والعباس ، وكان أبو طالب يحب ابن أخيه محمدا حبا شديدا فكان يصحبه أحيانا حينما يذهب الى دار ابن جدعان ، ولما كان أبو قحافة والد عتيق (أبو بكر) ابن عم عبد الله بن جدعان ، فقد كان يمضى أغلب أوقاته فى دار ابن جدعان ، وكان أبو بكر يحب أن يصغى الى أحاديث سادات قريش التى تدور فى دار ابن عم أبيه فكان يذهب اليها كلما عرف أن هناك اجتماعا • وكانت نفسه تتفتح لأحاديث أنساب قريش وقضاء قضاة مكة فى الديات ، وقد أتاحت له الفرصة فى دار ابن جدعان أن يصغى الى حكام قريش . أبى طالب بن عبد المطلب والعاص بن وائل والقلمس الكناني ومالك بن جبير •

والتقى محمد بأبى بكر فى دار ابن جدعان وألقيا أسماعهما الى أحاديث أشراف قريش وسادات دار الندوة ، فأبو طالب زعيم الهاشميين وصاحب السقاية والرفادة كان يروى قصائد من شعره ، وحرب بن أمية صاحب لواء قريش كان يقص أنباء الحروب التى خاضتها قريش والحروب التى سمع بها أثناء خروجه فى القوافل ، تلك الحروب التى كانت دائرة بين الشرق والغرب بين الفرس والروم ، والعاص بن وائل يروى الأحكام التى قضى بها فى القضايا التى ارتضى المتخاصمان أن يكون فيها حكما ، والقلمس

الكتانى يروى أحكامه فيتذكر محمد وأبو بكر موقفه عند جمره العقبة فى موسم الحج وهو يقول : « اللهم انى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أjab ، اللهم انى قد أحلت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر » • فقد كان أحد حكام العرب وناسئاً من نساء الشهور ، يحل شهراً من الأشهر الحرم عاما ويحرمه عاما •

وكان محمد وأبو بكر من قريش ويجتمع نسبهما عند مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ؛ قريش العظيم • وكانا كثيراً ما يجتمعان فى دار ابن جدعان أو فى دار من دور شيوخ بنى هاشم أو فى الحرم أو فى المواسم ، فتوطدت بين الغلامين صداقة متينة • وقد كان محمد يصغى الى كل ما يقال فى مجتمعه وينظر الى كل ما تقع عليه عيناه بذهن صاف وفؤاد مفتوح ، يرى ما فى أفعال قومه من متناقضات وما يفعله سفهاء الناس من سيئات فيفكر فيما ينبغى أن يكون عليه الانسان الفاضل ، فيؤمن بوجوب سيطرة العقل على المادة وضرورة انتصار الروح على الجسد ، بينما كان أبو بكر يلقى سمعه الى شيوخ قريش وهو مفتون بحديث البطولة والأبطال ، يحفظ ما يسمع من أشعار ويختزن فى أوعيته أنساب القبائل والبطون •

وكان أعجاب ابى بكر بالأبطال هو الدافع له بالاعجاب بمحمد ، ذلك الفتى المستقيم الذى لا يسجد لأصنام قومه والذى يمقت الكذب ويكره السيئات ويثور على الظلم ويجاهد ذاته جهادا شاقا ليتحلى بمكارم الأخلاق ، فاتحذه قدوة ومعلما وصديقا •

واهتم محمد بالعبادات التى يمارسها قومه فرأى أن بعض

تقبائل لخم وخزاعة وقريش قد عبدوا « الشعري » ، وعلم أن أول من سن ذلك لهم هو أبو كبشة بن غالب بن عامر بن الحرث بن غبشان الخزاعي جد وهب بن عبد مناف أبو أمه آمنة . وسمع في الكعبة ولا ريب ذلك الحوار الذي كان يدور بين الصابئة أصحاب الروحانيات القائلين بأن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثن ، وأنهم عاجزون عن الوصول الى جلاله وانما يقتربون اليه بالمتوسطات المقربين لديه الذين يستمدون القوة من « الحضرة القدسية » ويفيضون الفيض على « الموجودات السفلية » ، فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي هياكلها ، فلك روحاني هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحاني الى ذلك الهيكل الذي اختصر به نسبة الروح الى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره . وبين الأحناف الذين لم يكونوا جماعة معينة لها دين خاص بل كانوا أناسا من العرب نبذوا الشرك ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية ولم يعبدوا ما كان يعبد قومهم ، بل راح كل منهم يبحث عن دين ابراهيم الخليل ويعبد الله على قدر ما يصل اليه من العلم .

وألقى سمعه ولا ريب الى المناظرات التي كانت تقوم بين الصابئين وبين الحنفاء ، فالصابئون كانوا يقولون أن الأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة ، يشاركوننا في المادة ، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، ويشبهوننا في الصورة ، أناس وبشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم وبأية مزية لهم لزمنا متابعتهم ، بينما الحنفاء كانوا يقولون : بم عرفتم — معاصر الصابئة — وجود هذه الروحانيات التي أبدعت أبداعا ، لا من شيء ، لا مادة

ولا هيولى ، وهى كلها جوهر واحد ، من سنخ (أصل) واحد ، وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها ، وهى من شدة ضيائها لا يدركها الحس ولا ينالها البصر ، ومن غاية لطافتها يحار فيها العقل ولا يجول فيها الخيال ، والحس ما دلکم عليه ، والدليل ما أرشدکم اليه ؟ • أجابت الصابئة بأن قالت : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من عازيمون وهرمس ، شيث وأدريس عليهما السلام • قالت الحنفاء : لقد ناقضتم وضع مذهبكم ، فان غرضكم فى ترجيح الروحانى على الجسمانى فى « المتوسط البشرى » فصار نفيكم اثباتا وعاد انكاركم اقراراً •

ورأى محمد وأبو بكر المنافرات التى كانت تنثور بين سادات القوم بين الحين والحين ، وكيف كان الرجل يقول لصاحبه : أنا أشرف منك حسبا وأثبت منك نسبا وإن شئت نافرتك ، فيقول الآخر : أنافرك وإنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لواف وإنك لغادر • وقد سمع محمد وأبو بكر بعض ما قيل من فخر تلك المنافرات وما قضى به القاضى الذى تراضى به الطرفان ، فكان محمد يضيق صدره بذلك التناذب بالألقاب بينا أبو بكر يهتم بحفظ الأنساب وقضاء القضاة •

وكان محمد يروض نفسه على أن يزداد كل يوم قربا من القوة الالهية وأن يعلو على وجوده البشرى وأن يتناسق مع الكون ، ليهتدى الى السبيل الذى يقوده ليطلع العالم بطابعه الذى يستمد أدبه من فوق السموات العلى بينا كان أبو بكر يروض نفسه على السم (الاعتدال والوقار) والكرم ومحاكاة محمد والاعجاب به •

وكان محمد يحب أن يرتمى فى أحضان الكون فقد كان يرى

فى الطبيعة غايته ، فهى ترشده الى الحقيقة الكبرى التى تسمو فوقها وتسرى فيها كالروح فى أجساد البشر • انه كلما تأمل فى الوجود أحس بأن وجوده هو شئ أكثر من مجرد حياته ، فالموت ليس نهاية كل شئ بل هو بداية الاندماج فى حقيقة عالية على الانسان وعلى الكون وعلى الحياة نفسها •

انه كلما قلب وجهه فى السماء استشعر أن روحه صارت مجنحة وأنها تعلو ما فوق الطبيعة ، وأنها تتطلع الى الاتصال بخالق السماء والأرض الذى نفخ من روحه فى كل شئ • وأن قلبه ليمتلئ بهجة وان روحه لتتهل بالفرح كلما أحس أن روحه تعرج فى سموها لتذوب فى روح الروح ، وان فؤاده بدأ يشرق بنور من نور النور •

لا بد من الصراع لحظة لحظة ومجاهدة النفس يوما بعد يوم للوصول الى الكائن المثالى بكماله وسموه ، وان محمداً ليصارع نزواته ودوافعه فى كل لحظة ، ويجاهد ذاته فى سبيل الكشف عن الحقيقة • وكان يثبت قلبه شعوره بأن هناك قوة عليا تأخذ بيده وتعينه على جهاده وتحسن تأديبه ، ليكون الانسان الكامل الذى ينقل ارادة السماء الى أهل الأرض •

انه منذ ولد وضع فى الطريق الذى ينتهى به الى الله ، كتب عليه اليتيم لينصهر فى بوتقة الألم ، فالألم وحده هو الذى أتاح له فرصة معاناة تجربة الوحدة والانطواء على ذاته ليكتشف جوهر نفسه • وكتب عليه أن يطوف فى الأرض ؛ أن يرضع فى بنى سعد بهوازن ، وأن ينطلق الى يثرب ليزور قبر أبيه ، وأن يذهب مع عمه الزبير الى اليمن ليلقى بنفسه فى أحضان الكون ليتناسق مع الوجود ، وليفكر فيما وراء الطبيعة ، ويستشعر ذات الذات فى

نفسه • وكتب عليه أن يشب فقيراً ليموج وجدانه بشعور الفقراء •
انه يسير فى طريقه وطريق الرسالة ليس طريقاً محفوفاً بالورود
ولكنه طريق وعر شائك ملئ بالعوائق والصعوبات ، ولن تثنيه
المخاطر عن أن يسمو وأن ينتشل الانسانية جمعاء من الضلالة لتسمو
معه الى الرفعة وسلام الروح والخلود •

وكان أبو بكر يجاهد أن يثرى نفسه بالأخلاق الحميدة ،
فكان يصون عرضه ويحفظ مروءته ويتقى كل ما يورده موارد
الشبهات • وكان يعمل على تنمية ملكاته الروحية فكان يرمى حق
غيره ويحسن ولا يسيء ويعتصم بالصدق ليحفظ كرامة الشرف
الذى ينتمى اليه ، فقد كان معتزاً بقرشيته وان كانت قبيلته بنى
تيم ليست فى قوة بنى هاشم أو بنى أمية أو بنى المغيرة أو فى
وفرة عددها •

كان أليفا ودوداً حسن المعاشرة سريع التأثر الى الرحمة
والرفق ، فطنا ذكياً • وكان على الرغم من حداثة سنه يحفظ كل
ما يرويه أشراف قومه فى مجالسهم وينفعل بأخبار البطولة
والأبطال •

كان أبيض تخالطه صفرة ، وسيما غزير شعر الرأس خفيف
العارضين ناتئ الجبهة غائر العينين ، نحيفا دقيق الساقين ممحوص
الفخذين خفيف اللحم فى سائر جسمه • وعلى الرغم من ضالته
كان شجاعا يبدى رأيه دون وجل ولا خوف ، فهو يحس فى قلبه
جيشان الروح والضمير • وراح يروض نفسه على ألا يقابل الأمور
بفتور المستخف فهو حى الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به
والاعجاب بمن يستحق عنده الاعجاب •

كان يرتضى فى أحضان مجتمعه أكثر مما يرتضى فى أحضان الطبيعة ، فهو لا يطمع الا فى مكارم الأخلاق التى يتحلى بها أشرف قومه ، فلم تتجاوز أحلامه العالم الذى يعيش فيه ؛ فما خطر له على قلب أن تحلق روحه لترتفع الى ما فوق السموات وتتصل بالقوة المتعالية التى تسير مع الوجود ، ولم يفكر يوماً فى أن تذوب روحه فى روح الكون أو أن يبحث عن حقيقة الحقيقة .

وكان المجتمع المكى يخفق بآمال صبيان وفتيان يأملون أن يصلوا الى مراكز الصدارة ذات يوم وان كان الرجال فى غفلة عنهم ، فالحكم بن هشام (أبو جهل) يحلم بأن يكون سيداً من سادات دار الندوة فى شبابه ، وان كان على يقين أنه من المخطور أن يكون بين رجال دار الندوة من لم يبلغ الأربعين .

كان أبو جهل على الهمة واسع الأطماع قد وضع نصب عينيه أن يكون سيد قومه ، صاحب الكلمة المسموعة فى مكة مثل كعب بن لؤى أو قصي أو هاشم بن عبد مناف أو عبد المطلب ابن هاشم ، وقد التصق منذ طفولته بالرجال الكبار الذين يسيرون أمور المجتمع المكى من دار الندوة يلتقط منهم الحكمة ويكتسب من تجاربهم حنكة .

وكان حمزة بن عبد المطلب مغرماً بالطعن والنزال ، فكان رمى السهام هوايته والقتال لعبته والشجاعة صفته . وكانت غاية أمانيه أن يخرج ولما يشب عن الطوق للصيد أو للغارة على قافلة من القوافل ، وكان يرهف سمعه للقصص الذى يروى عن بطولات الرجال ، وما كان يتأفف من مجالس الشراب تأفف محمد أو أبى بكر ، فهو يرى أن احتساء الخمر صفة الفحول على عكس أبى بكر

الذى وقر فى ضميره أن من شرب الخمر كان مُضَيِّعًا فى عقله ومروءته *

وكان العباس قد بلغ الرابعة عشرة وكان يتطلع الى أن يتول إليه شرف رفاة حجيج بيت الله وسقايتهم ، وقد قوى أمله لما وجد أن أبا طالب نضب ماله وأنه ليس بمستطيع أن يستمر فى الانفاق على اطعام فقراء الحجاج وجمل الماء اليهم * ان هى الا رحلة أو رحلتان يشترك فيهما بماله الذى ورثه عن أبيه عبد المطلب حتى يربو ذلك المال ، ثم يقرضه للمحتاجين بالربا فيصبح من أغنياء مكة ويتول إليه شرف الرفاة والسقاية وأن كان من أصغر أبناء عبد المطلب *

وكان صبيان مكة وفتيانها يجتمعون فى المواسم والأعياد والأسواق ويتسابقون الى موائد أجواد قريش ، وذات ليلة راح مناد ينادى على ظهر الكعبة :

— هلموا الى جفنة ابن جدعان *

كان قول أمية بن أبى الصلت قد ذاع فى مكة :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بنى الديان
البر يتكبر بالشهاد طعاهم لا ما يعلننا بنو جدعان

وكان حديث سفر ابن جدعان الى فارس وأكله الفالودج عند كسرى قد انتشر فى دور مكة ، فابن جدعان قد تعجب منه وسأل عن حقيقته ففيل له هو لباب البر يتكبر مع العسل ، فابتاع من عند كسرى غلاما يصنعه وقدم به مكة ، وذاع أن ابن جدعان أرسل الى الشام ألفى بعير تحمل البر والشهد والسمن *

كان صوت المنادي يتردد فى جنبات مكة :

— من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر •

ومس الصوت آذان الذين يعيشون على لحوم الصيد والسويق والألبان مساً رقيقاً فاندفعوا الى حيث وضعت الموائد بالأبطح الى باب الحرم ، وتزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) على المأدبة ، فدفع محمد أبا جهل فسقط على ركبته فانهشمت • فألقى أبو جهل على محمد نظرة ملؤها الغيظ والغضب ثم راح يضمد جراحه •

وكان تزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام على مأدبة ابن جدعان بداية التزاحم بينهما في معترك الحياة ، فما كان محمد في معسكر الا كان أبو الحكم بن هشام في المعسكر الآخر • وما قال محمد رأياً الا سفهه ، وما اعتنق مذهباً الا كان من أعدائه •

وكان أمية بن أبي الصلت ممن حضر المأدبة ، فقال مادحا ابن جدعان سيد بنى تيم :

لكل قبيلة رأس وهادى
وأنت الرأس تقدم كل هادى
له داع بمكة مئتمل (١)
وأخضر فوق كعبتها ينادى
الى رَدح (٢) من الشيزى (٣) ملاء
لباب البر يلبك بالشهاد

(١) اشتمل : اشرف .

(٢) الردحة : سترة تكون في مؤخر البيت .

(٣) الشيزى : خشب أسود يتخذ منه القصاع .

— ١٢٣ —

— ١٣ —

شردت أسماء بنت مَخْرَبَةَ تفكر وقد أرخى الليل سدوله •
وجاءت أصوات القيان وهن يرفعن أصواتهن بالغناء من بعيد من
دار عبد الله بن جُدعان سيد بنى تميم • انها تزوجت فى صباحها
أبا ربيعة حذيفة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقد أنجبت منه
عبد الله بن أبى ربيعة ، فثب عبد الله تاجراً موسراً من أكثر أهل
مكة مالا ، وقد لقبته قريش « السعدل » لأن قريشاً كانت تكسو
الكعبة بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا
بذلك أنه وحده عدل لهم جميعا •

ان له عبيداً من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وله سلطانا
وسطوة وستئول اليه زعامة بنى المغيرة يوما ، وهى ترجو أن يكون
سيد مكة فهو أكفأ من أخيه عيَّاش • وسرعان ما تذكرت أبا الحكم
ابن هشام ، فقد تزوجها هشام بن المغيرة أيضا وأنجبت منه أبا
الحكم (أبا جهل) والحارث •

ان أبا الحكم (أبا جهل) فطن ذكى وهو قريب الى قلبها ، وأقرب
بنى المغيرة الى قلب جدته ريطة بنت سعيد بن سهْم أم بنى
المغيرة ، وقد كان أبوه هشام بن المغيرة جليلا فى مكة حتى أن
قريشاً أرخت بموته وقد كانت تؤرخ بموت كعب بن لؤى • ثم أرخت
بعام الفيل الى أن مات هشام فأرخت بذلك الحادث الجلل •

ان أبا جهل على الرغم من حداثة سنه له آمال وأطماع ، وانه

كلما انفرد بها لا يحدثها عن العطر الذى يأتيتها من اليمن فقد كانت عطارة تفوق عطارتها عطارة أبى طالب زعيم بنى هاشم ، بل كان يحدثها عن شيوخ دار الندوة وعن عزمه على أن يكون سيداً من ساداتها الذين يسيرون أمور المجتمع المكى قبل أن يبلغ الأربعين • كانت دار الندوة مكان الحكومة المكية وكانت أشبه بمجلس الشيوخ فى روما ، وما كان يسمح لقرشى أن يكون عضواً فيها قبل أن يبلغ الأربعين ، ولكن أبا جهل وطن النفس على ألا تمنعه الحداثة عن السؤدد ، وأن يدخل دار الندوة قبل أن يطر شاربه وتنسوى لحيته •

أخذت مكة كثيراً من الروم ومن الفرس عن وعى أو عن غير وعى ، فقد كان تجار القوافل يحتكون بحضارة فارس وحضارة الرومان ، وكانوا يتأثرون بثقافة الدولتين العظيمتين وبعاداتهما وتقاليدهما بل وبديانائهما ، وقد جلبوا الى الكعبة كل ما عثروا عليه من تماثيل حتى أن أبوللو اله الشعر عند الرومان صار الههم هبل العظيم ووضعوه فى جوف الكعبة ، وعلقوا أروع ما أنتجته قرائح شعرائهم عنده !

ووضع العرب الذين تنصروا تمثالاً للعدراء وهى تحمل المسيح فى الكعبة ، ولم يغضب العرب الوثنيون لذلك فالحرية الدينية مكفولة للجميع ، فان كان الخطأ قد أغرى بعض الشباب بزيد بن عمرو ابن نفيل فما ذلك إلا لأن زيدا قد سفه أحلامهم وزعم أنه وحده الذى كان على دين أبيهم ابراهيم •

وفكرت أسماء بنت مخربة فى الوليد بن المغيرة فهو يتطلع الى أن يسود بنى المغيرة بل بنى مخزوم كلهم ، وهو كفء لمنافسة عبد

الله بن أبى ربيعة وأبى الحكم بن هشام (أبى جهل) ، فماله ممدود ، وهو مسموع الكلمة فى قومه ، وهو قوى الشكيمة له هيبة وسلطان ، وهو فى طريقه الى دار الندوة ليكون شيخا من شيوخها • ولم يخطر لها على قلب خالد بن الوليد فما كان قد بلغ من العمر شهوراً ، وما دار بخالدها أن تخترق حجب الغيب لتفكر فى حفيدها عمر بن أبى ربيعة فقد كان يفصل بينها وبين مولده عشرات السنين •

كانت دائرة تفكيرها تنحصر فى بنى المغيرة ، ولكن قريشاً لم تكن بنى مخزوم وحدهم فهناك بنو هاشم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو تيم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو عبد الدار وكثير من القرشيين • الا أن المنافسة على زعامة مكة كانت مشتتة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكانت تطمح فى أن يدخل ولداها عبد الله وأبو جهل مضمار هذه المنافسة ، بل كانت آملها تمتد الى أن ترى بعين أمانيتها أحدهما على رأس قومه قد قبض فى يديه السقاية والرفادة والسدانة والحجابه واللواء كتمى العظيم • فانداحت دائرة تفكيرها وراحت تزن ابنيتها بأبناء بنى هاشم وبنى أمية والنابيهين من أبناء القرشيين •

فكرت فى طالب وفى جعفر وفى عقيل أبناء أبى طالب شيخ بنى هاشم الذى ينوء بأعباء الرفادة والسقاية ، فاهتدت الى أن أموال منافسها فى العطارة تذبذب فى أطعام فقراء الحجاج وتوفير الماء لهم ، وأن أبا طالب لن يورثهم الا الشرف وحده دون المال ، فهو ينحدر فى طريق الفقر ، وما كان لشريف أن يسود قومه اذا لم يكن ذا ماء وعبيد •

وطاف بذهنها طاهر بن الزبير بن عبد المطلب ؛ انه فتى خفيف

الظل قد يصبح قطب الرحي فى نادى قومه ، وقد يمسى محط
 الأنظار اذا ما أسمر ذات ليلة مع السمار ، الا أنه لن يكون سيداً
 فى بنى هاشم يتطلع ذات يوم الى زعامة مكة • وراحت تزن ولديها
 بالعباس بن عبد المطلب فرأت أن العباس يحلم بالغنى ، بأن يكون
 من أثرياء مكة ، فعبد الله بن جُدعان مثله الأعلى ، ولم يطمع عبد
 الله يوماً فى أكثر من أن يكون نديماً لعبد المطلب ، وإن العباس
 ليصلح أن يكون نديماً لعبد الله بن ربيعة أو أبى الحكم بن هشام !
 وراحت تعقد المقارنات بين ولديها وحمزة بن عبد المطلب ؛ انه
 فتى شجاع وكل الدلائل تشير الى أنه فى طريقه الى أن يصبح
 فارس قريش ، فهو يهوى الصيد ويميل الى القتال ويحب الخيل
 ويتعجل الأيام ليطوف بأماكن اللهو ، يسنده أعظم حيين فى قريش
 بنو هاشم وأخواله من بنى زهرة ، فان أولع بالتجارة وتدفقت عليه
 الأموال كان منافساً خطيراً لبنى المغيرة جميعاً ، بل ولكل فتيان
 قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وثيميين •

وراحت تعجم أعواد فتيان بنى هاشم جميعاً فوجدت أن عبد
 الله بن أبى ربيعة وأبا الحكم بن هشام أصلب منهم عوداً ، وأن
 فرصتهما أكبر من أى من الهاشميين للتربع على ذروة المجد فى مكة ،
 وما لبثت أن أطلقت لخيالها العنان ليجرى فى أثر فتيان بنى أمية •
 كان صخر (أبو سفيان) أعلى فتيان بنى أمية ذكراً فهو ابن
 حرب بن أمية صاحب لواء قريش ، وهو أمل حرب فى أن يرث
 مكانته ، بل هو أمل الأمويين جميعاً فى أن يفتزع لهم زعامة قريش ،
 ولكن عيني أسماء وقعت على مثالبه فهو بخيل غاية البخل وان كان من
 سلالة غنية ، وهو غاهر يمضى أغلب لياليه فى أحضان صاحبات

الرايات الحمر وما كان البخل والعهر ليرفعه من يتصف بهما الى مكان السؤدد •

وزحف الى رأس أسماء ما كان يتحدث عنه المجتمع المكي من أن أبا سفيان والعاص بن وائل والعباس وأبناء أشراف قريش كانوا يدخلون جميعا على النابغة أشهر بغى فى مكة ، وأنها حملت ووضعت ما فى بطنها وأسمنته عمراً وألحقته بالعاص بن وائل فقد كان أكرمهم وأكثرهم سخاء ، ولم يبد الاستياء على وجهها فذلك من تقاليد المجتمع المكي وما كانت تجد فيها غضاظة •

وكان العاص بن وائل والأسود بن المطلب وبعض الشباب المكي يحرص اماءه على البغاء فى سبيل الحصول على المال ، ولم تستهجن أسماء ذلك ولم يدخل فى حسابها بل كانت توازن بين ولديها وهؤلاء الفتيان ، فكانت كفة ولديها هى الراجحة على الدوام •

وخطر على بالها عثمان بن عفان ذلك الفتى الذى يغلب عليه جياؤه ، انه سليم الطوية لين الجانب هادئ النفس قد يصبح ذات يوم تاجراً من أكبر تجار قريش • ولكن أين سماحة عثمان من طموح أبى الحكم بن هشام ؟

وقفز ذهنها الى بنى أسد بن عبد العزى • ان ورقة بن نوفل لم يعقب وأن عثمان بن الحويرث لا عقب له • انه كان يطمع أن يملك قريشاً وقد ذهب الى قيصر وعاد من القسطنطينية بعد أن كتب قيصر بتوليته من قبله على قريش ، ولكن قريشاً أبت أن توليه فخرج عثمان الى قيصر ولا تدرى أسماء ما قال لقيصر وما قال له قيصر ، كل ما تدريه أن بنى أسد بن عبد العزى ليس فيهم غير المطلب بن الحويرث ، وما هو بكفء لأبى الحكم أو لابن أبى ربيعة •

وارتفع صوت الغناء من دار عبد الله بن جدعان ليعلو على صوت ضميرها فألقت الى الأصوات العذبة سسمها ، كانت الجرادتان جاريتاه تشدوان فتفتشان فى ربوع مكة سحراً ، وكانت أصوات الرجال تهتك أستار السكون من النشوة ، ولكنها عادت الى نفسها ، فما لبثت أن عادت الى الشرود تنقب عن منافسين لولديها فى بنى تميم .

كانت على علم بالعداوة الناشبة بين بنى تميم وبنى مخزوم ، ففى حلف المطيبين عبيت بنو تميم لبنى مخزوم ، وكانت تعجب فى وجدانها من المنافسة بين الحيين فأين بنو تميم من بنى مخزوم ! فى وجدانها من المنافسة بين الحيين فأين بنو تميم من بنى مخزوم ! ولم يخطر عتيق (أبو بكر) على قلبها بل استمرت فى احصاء فتيان أشراف قريش الذين قد يتناولون يوماً لمنافسة أبى الحكم أو ابن أبى ربيعة على زعامة مكة ، وكانت تفضل ولديها فى كل موازنة . واحتلت صورة محمد بن عبد الله صفحة ذهنها برهة فثارت فى نفسها دهشة وراحت تسأل ذاتها فى استنكار : كيف يخطر لها على بال أن يتيم قريش كفاء لمنافسة أبى الحكم بن هشام أو عبد الله ابن أبى ربيعة ؟ ومن أين لفقير قريش المال الذى يرفعه الى الصدارة والى السؤدد والسلطان ؟

كان شباب مكة وفتيانها فى أحضان البغايا يحتسون الخمر أو يلعبون الميسر أو يصغون الى غنان القيان أو يلقون أسماعهم الى الشعراء الماجنين فى حلقات السمار ، فقد كانوا يحبون اللهو وكان غايتهم من الحياة ؛ بينما كان محمد بن عبد الله وحده يهيم فى الوجود طليقا من كل قيد ينظر بابتهاج متبلل النفس يمتص رحيق

الحكمة ، ويجاهد أن يرى بنور النور وأن يتصل بذات الذنوبات ليحقق تلك الرغبة الجياشة في ضميره ؛ أن يذوب في الكون وأن ينال الحرية الكبرى التي ما بعدها حرية •

كان يرعى السماء وكانت السماء ترعاه ، وكان يتحرق شوقا الى الحقيقة الأزلية التي كانت قبل الوجود والتي ستكون بعد الوجود ، فاذا به يحس أنها تتجلى عليه وأنها تحفر في أعماق ذاته ايمانا له حلاوة تطغى على مرارة الألم ووخزات القلق وحيرة الدهشة ، وتضفي على النفس أمنا ورضا وسلاما •

كان يروض نفسه على أن تعرج روحه الى ما فوق السماء لتتعم بالوصال وتشرق بنور ربها ، واذا به يستشعر في صميم ذاته أن روح الأرواح تنزل عليه بالبركات ، وأنه بالعمل والجهد والصبر وطهارة النفس وسلامة القلب يفتح سبل ذاته للذات العلوية لتسرى فيه مسرى الدم ، فوطد العزم على أن يستمر في رياضة النفس للقضاء على ذلك البعد الذي يفصل بينه وبين تلك القوة المتعالية التي بات يحس أنها أقرب اليه من حبل الوريد ، حتى يرى بنور الله •

كان شاخصا الى الأفق البعيد فبدأ له أن الكون كله يؤدي صلاة وأنه ساجد في محراب اله قادر عظيم ، رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين • فامتلا فؤاده بالجلال والخشية والسرور بذلك الاشراق الذي بدا في القلب وأخذ ينداح ليغمر كل الوجود ، فاذا به يختر ساجدا ودموعه تتساقط على الأرض •

مر محمد بن عبد الله ببال أسماء بنت مخربة وهي تزن ولديها ابن أبي ربيعة وابن هشام بن المغيرة بشباب مكة وفتيانها ، ولم (اليتيم)

— ١٣٥ —

يقف ذهنها طويلا عند محمد فما كانت بقادرة على أن تتصور ان فقيرا فى قريش أو يتيما يكفله جده ثم أعمامه من بعده يمكن أن يصل الى زعامة قومه • ولو اخترقت بصيرتها أسجاف المستقبل أو لو كانت تملك مفتاحا من مفاتيح الغيب لرأت أن الحجر الذى رفضه البناءون سيصير حجر الزاوية •

— ١٤ —

تأهبت قريش لرحلة الصيف ، وغص بيت أبى طالب بالرجال والنساء الذين سيشترون ببضاعتهم فى القافلة دون أن يسافروا معها ليسلموا أبا طالب وأمناء الرحلة سلعهم ويتسلموا صكوكا تثبت نوع البضاعة ووزنها ، فأبو طالب هو الذى سيخرج الى الشام على رأس القافلة •

وماج الناس بعضهم فى بعض ، واستمرت الدواب والرواحل فى غدو ورواح ، وأدبر النهار وجن الليل والحركة دائبة لا تنقطع ، وقد أنيرت المسالك بالمشاعل وأوقدت النيران على رعوس الجبال فتبدل ليل مكة نهارا ، فرحلة الشتاء والصيف موسمان من أجل مواسم قريش •

وراح أبو طالب يتأهب للرحلة ويتزود من أبنائه وأهل بيته بالحديث الشجى والنظرات الحانية ويعمرهم بحنانة الدافق ، وكانت نظراته تتوقف لحظات على وجه محمد ابن أخيه عبد الله فقد صب به صباة وأحبه حبا يفوق حبه لابنيه فبات لا يطيق فراقه •

صار يحس خواء فى حياته كلما ابتعد عن ابن عبد الله فقد شعر أن الحياة أقفرت من مباهجها طوال الأيام الطويلة التى غابها عنه محمد لما سافر الى اليمن مع عمه الزبير فراح يتعجل الزمن ليعود اليه محمد الحبيب ويرد الروح الى دنياه التى ران عليها كآبة وظلام وخمول • ترى أنتسيه مشقة الرحلة وتشغله مسئولياته عن ابن أخيه الذى تغلغل حبه فى سويداء فؤاده ؟

كان أبو طالب يبيع فى دكانه العطر لنساء مكة والطيب للمتطيبين والبخور للمعابد والكهان ، وكان ما يكسبه يكفيه ويكفى أهل بيته ، ولكن رفادة حبيج بيت الله وسقايتهم تحتاج الى أموال : فالرفادة والسقاية شرف يهون فى سبيله كل اتفاق ، فعزم على أن يخرج الى الشام يتجر ليجود بما يعود به من مكاسب على الحجاج •

وكان العباس يرنو الى ذلك الشرف فهو يحلم بميراث السقاية واطعام الناس ، وهو يقنع نفسه بأن السقاية والرفادة لو آلت اليه فسيرفع عن كاهل أخيه أبى طالب عبثا ينوء بحمله ، فأبو طالب كثير العيال وأمواله تكاد تكفى عياله وعبيده ليس بها فضل ينفقه على الفقراء الذين تهوى أفئدتهم الى البيت الحرام ، فراح العباس يبذل كل جهد ليصبح من أثرياء قريش ، ليصير أهلا لذلك الشرف •

انه اشترك بما عنده من مال فى القافلة التى انطلقت الى اليمن واشترى له أخوه الزبير العطر والطيب • وانه سيعث مع أخيه أبى طالب بما جلب من بضائع لبييعها فى أسواق بصرى لرهبان النصارى وخدمة الكنائس ، فالبخور سلعة رائجة يقبل عليها المسيحيون • وهو يرجو أن يربو ماله وبعدها يقرضه للمحتاجين

بالربا فيصبح من الموسرين القادرين على الانفاق ، دون أن يخشى الفقر أو أن يقل ماله •

وأن أوان السفر فخرجت القبائل من أحيائها : بنو هاشم من دورهم وعلى رأسهم أبو طالب وقد التصق به محمد الحبيب ومن حوله الزبير والعباس وحمزة وأبو لهب وشيوخ بنى هاشم وشبابهم ، وبنو أمية من دورهم وعلى رأسهم حرب بن أمية وفي رفقته عثمان بن عفان وصخر (أبو سفيان) وشيوخ بنى أمية وشبابهم ، وبنو المغيرة يتقدمهم الوليد بن المغيرة ومن حوله الحكم ابن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة وشيوخ بنى مخزوم وشبابهم ، وبنو تميم وزعيمهم عبد الله بن جدعان ومن حوله أبو قحافة وابنه عتيق (أبو بكر) وسادات بنى تميم ، وامتألت شعاب مكة بالقرشيين الذين كانوا يتدفقون كالسيل من كل حدب وصوب الى حيث أناخت القافلة بالقرب من دار الندوة على بعد خطوات من الكعبة •

وركب المسافرون رواحلهم ، وركب أبو بكر مع أبيه أبي قحافة ليتدرب على التجارة فهي وسيلة العيش الكريم للمكيين الذين كانوا يعيشون في واد غير ذي زرع عند البيت المقدس ، وراح أبو بكر الى حيث وقف صديقه محمد ليودعه ، فمحمد سيمكت مع أبناء عمه ولن يخرج في هذه الرحلة •

كان أبو بكر في العاشرة ، وكان محمد قد بلغ الثانية عشرة وقد وقف بالقرب من ناقة عمه جليلا مهيبا يبدو في عيني أبي بكر أكبر من سنه ، وكان من فرط إعجابه به لا يكاد يرى غيره وان كان المكان زائرا بالشيوخ والرجال والصبيان والعجائز والشابات

والغانيات والعبيد من الروم والفرس وبالوثنيين وباليهود والبصاري
والحنفاء والمجوس •

ودع بنو هاشم أبا طالب زعيم القافلة ، وتقدم أبو طالب وركب
راحلته وما كادت تنهض حتى تقدم محمد منها وأمسك بزمام الناقة
وقال فى صوت متهدج مبلل بالدموع :

— يا عم ، الى من تكلنى لا أب لى ولا أم ؟

وأحس أبو طالب فى مثل لمح البصر أن عبراته تكاد أن تطفر
من مآقيه ، وأن رقة قد اجتاحتها ، فالتفت الى بنى هاشم وقال :

— والله لأخرجن به معى ولا يفارقننى ولا أفارقه أبدا •

وأردفه خلفه ، فلما رأى أبو بكر ذلك أشرق وجهه بابتسامة
وتهلل قلبه بالفرح •

وسارت القافلة فى معبد الكون فراح ربيب الفكر يتأمل
الطبيعة ، وحليف الأخلاق يرصد سلوك الناس ، ينأى عن الشرور
والآثام ويسارع للخيرات ويبذل الجهد فى اخلاص ليعاون على
تكوين قيم جديدة أنسانية سامية ترفع قومه من حمأة الرذيلة الى
طهارة الفضيلة ، وتخرجهم من الظلمات الى النور •

كان يمد عينيه الى الكون ببصره وبصيرته وعقله ووجدانه
فيمتلىء بروعة الطبيعة ، ويسمو به ذلك الاعجاب فوق الأهواء
والنزوات ورغبات الجسد ليستغرق فى الحقيقة الكلية التى ترفعه
من الأرض للسماء •

انه وفى للطبيعة لأنها صنعة اليد الالهية ، آية من آيات
قدرتها ، فاعجابه بها هو أجنحة روحه التى ترغرف به لتقربه الى
ربه ، وكل ما فيها من عظمة وجلال أن هو ألا اشعاعات الهية آتية

من فوق السموات • وأن ذلك الاعجاب ليسمو بذاته نحو آفاق عليا
هى الجو الروحى الأوحد الذى تستطيع روحه أن تتنفس فيه •

كان يحس أنه لا يتلقى الحب والرعاية من الطبيعة بل من فوق
الطبيعة ومن ورائها • انه مأخوذ بسحر الطبيعة وجمالها ، ولكن
الحنان الذى يغمره والعطف الذى يسبغ عليه كان يأتيه من فوق
السموات من روح الوجود وروح الأرواح •

انه ليس ذرة تافهة حقيرة قد ضلت سواء السبيل فى وسط
خضم هائل جبار ، انه ليس حليف القلق والجزع والهم وعدم
الاطمئنان ، انه ليس فى صراع مستمر مع الطبيعة ، بل انه يحس
بفضل نور الله أنه عالم أصغر فيه كل ما شئ العالم الأكبر من روعة
وجلال ، وأنه حليف الرضا والسعادة والاستقرار والأمن والسلام
ما دام مع تلك القوة المتعالية التى ترعاه ، وانه ليعمل على زيادة
حظه من التوافق مع الطبيعة ليعمر كل السبل التى تقوده الى الله ،
وانه ليطمح أن يكون كاتم أسرار القدرة الالهية ، بل الوسيط الذى
يحمل أوامر السماء الى الناس لاسعاد البشرية جمعاء •

انه يلقي سمعه لرسالة الطبيعة ويصغى الى صوتها الهادى
الذى يتردد فى أغوار نفسه ويتعمق فى وجدانه ، ليفتح أمام روحه
أبواب السموات لتتعم بالوصال وتتذوق المتع الدائمة وتستمتع
بغاية المرات بل بغاية الغايات •

كان جمال الطبيعة وروعها وجلالها يغذى ذلك الحب الكبير
الذى شب بينه وبين الله ، ويعمق فيه روح الايمان ويقوده الى
الحقيقة المطلقة اللامتناهية التى لا حقيقة بعدها ، وانه لبيذل نفسه

فى سبيل أن تشرق عليه الحقيقة الغامضة بنورها فيتبدد كل ظلام
فى نفوس الناس •

أصبح يحس أنه ليس وحده وأنه مع تلك الحقيقة المطلقة ،
بل صار يستشعر أنها تسرى فى عروقه وشرائبه وفى ضميره وفى
وجدانه ، وأنها فى صميم ذاته ومن أمامه ومن خلفه وعن يمينه
وشماله وحيثما أرسل البصر أو شرد الخيال ، وأنها تحذب عليه
وترعاه وتؤيده وتأخذ بيده لتصل به الى ما تريد •

حبب الله اليه الايمان وزينه فى قلبه ، وكره اليه الكفر والفسوق
والعصيان ، وكتب عليه اليتيم ليعتمد على نفسه ويعيش فى قوقعة
ذاته ليسبر غور ضمير ويزيد فى خصب حياته الباطنية وليتلقى
العلم النافع من الله وحده ، وكتب عليه السياحة فى الأرض ليرتقى
فى أحضان الطبيعة ويعجب بها وليقوده ذلك الاعجاب الى أعقاب
الأسرار العلوية ، وليخفق قلبه بحب كبير للوجود وروح الوجود ،
ليتمكن بذلك الحب من فتح مغاليق ألغاز الحياة وما بعد الحياة •

وانطلقت القافلة تصنعى الى الحادى مرة وتشرد عنه مرات ،
وكانت الأفكار تجرى وراء رغبات الجسد والشهوات ، واذا
ما تحركت العواطف النبيلة كانت تهفو الى الأهل والأوطان • ولم
تحاول روح واحدة أن تهيم فى الوجود أو تشارك فى الكون
أو تندمج فى العالم ، بينما كان محمد فى كفاح مستمر لذاته يروضها
على السمو والتعالى والاندماج فى الطبيعة والتخلق الى ما وراء
الطبيعة ليتجلى له ذات يوم رب السموات والأرض ورب العالمين •
وعند دير فى الصحراء نزلت القافلة ، وخرج صاحب الدير
يتفرس فى الوجوه ويصنعى الى أحاديث الناس ، انه يرى فيما عنده

— ١٣٦ —

من كتب وعلم أن نبيا عربيا يوشك أن يبعث وأنه ليرجو أن يقوده حسن طالعه الى ذلك النبی أو تشنف أذنيه أنباء ظهوره •
ووقعت عينا صاحب الدير على محمد فأطال النظر اليه وقد لاح في وجهه دهش ، فهو يرى فيه صفات ذلك الذي بشرت به الأنبياء ، وأن شيئا غامضا في أغوار ذاته يؤكد له أن ذلك الفتى هو النبي الأُمى الذي سبيعه الله في الأميين لا في بنى اسرائيل ، فدنا الرجل من محمد وراح يجاذبه الحديث فإذا بالفتى يؤكد له أنه لم يسجد لصنم ولم يحلف بأصنام قومه قط ، وجاء أبو طالب وراح يغمر ابن أخيه بحنانه فالتفت صاحب الدير الى أبي طالب وقال :

— ما هذا الغلام منك ؟

— ابني •

— ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون له أب حى •

وصمت الرجل قليلا وهو يرنو الى عيني محمد الحمرأوين ، ثم قال في صوت كأنما كان آتيا من وراء السماء :

— هذا نبى •

ولاحت الحيرة في وجه أبى طالب ، وراح يقلب عينيه بين ابن أخيه وصاحب الدير ثم قال :

— وما النبي ؟

— الذى يأتى اليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض •
ولم يستطع أبو طالب أن يتصور أن انسانا يستطيع أن يسمو بانسانيته ليأتى اليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض ، فقال في انكار :

— الله أجل مما تقول •

كان أبو طالب من قوم لم يبعث الله اليهم من قبل رسلا ولا أنبياء فكان عسيرا عليه أن يقر حقيقة قدرة البشر على الاتصال بالله ، ولم يكن قد سمع بعد باصطفاء الله من يشاء من الملائكة والناس ليكونوا رسلا الى الانسانية يحملون أوامره ونواهيهم لصالح عبادته ، فأعرض عن نبوءة صاحب الدير ، ولو كان صدقه في بشارته لحق عليه أن يتبعه في دينه وأن يهجر دين الآباء •

واستأنفت القافلة رحلتها حتى اذا ما بلغت قرية الكفو وبينها وبين بصرى ستة أميال ، نزل الركب عند شجرة أمام صومعة بحيرا الراهب وكانت الصومعة مغلقة يرفرف عليها سكون عميق ، ولم ينتظر أحد ممن كان في القافلة أن يفتح باب الصومعة فلطالما مروا بها وهي غارقة في الصمت لا نائمة ولا حركة وكأنها قد لفظت أنفاسها في سجدة !

وراح بحيرا يرصد القافلة من وراء ستار ، أنه ليرى اليوم عجبا ، يرى غمامة تظل فتى من بين القوم ، وقد اختلط عليه الأمر من دهشته حتى لم يعد يدرى أيرى الغمامة ببصره أم ببصيرته ، بعينه أم بوحى خفى انبعث في أعماق أعماقه ، أنه يرنو الى الفتى لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه ، وان صوثا يرن في صميم ذاته : أنه هو • • أنه هو •

كان بحيرا راهبا متعبدا يقضى كل وقته في الصلاة وفي قراءة الكتب وقد انتهى اليه علم النصرانية ووعى بشارات السيد المسيح « بالفراقليط » وعرف أنه سيبعث في العرب ، فكان يجتهد في العبادة لعله يهتدى الى زمان ذلك الذي سيمكث دينه مع الناس الى

الأبد ، وقد أثار الله بصيرته فعلم أن أوان ذلك النبی قد آن ، فكانت أقصى أمانیه أن یرى ذلك النبی الذی سیبعثه الله رحمة للعالمین •
انه كان یحس فی تلك اللحظة ذلك الاحساس الذی نزل بقلوب الحواریین لما أوحى الله الیهم أن آمنو بى وبرسولى ، ألقى فی روعه أن على بعد خطوات منه النبی المنتظر ، فأشرقت جنباته بسرور روحی یفوق كل السرور ، فهو سعید الحظ میمون الطالع اذ یلقى خاتم الأنبیاء والمرسلین •

انه شرف لبحیرا وأى شرف لو أتیحت له فرصة التحدث الى محمد ، فسیخلد اسمه على مر السنین وسیرفع ذكره بعد أن كان مقدرا أن یطمس كآلاف الرهبان الذین انقطعوا فی صوامعهم من قبله ومن بعده •

وأرسل الیهم :

— انى قد صنعت لکم طعاما یا معشر قریش وأحب أن تحضروا کلکم صغیرکم وكبیرکم وعبدکم وحرمکم •
وجاءوه وقال رجل منهم :

— یا بحیرا ان لك الیوم لسانا • ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر علیك كثيرا فما شأنك الیوم ؟

— صدقت • قد كان ما تقول ولکنکم ضیف وقد أحببت أن أكرمکم وأصنع لکم طعاما فتأكلوا منه کلکم •

فاجتمعوا الیه وراح یتفرس فی وجوه الصبیان ، نظر الى عتیق (أبى بكر) فقد كان الى جوار أبیه ، ونظر الى كل صبى وفتی فلم یجد محمدا بین القوم ، فقد كان فی رجال قومه تحت الشجرة یرنو الى السماء وتهیم روحه فی الوجود ، فقال :

— لا يتخلف أحد منكم عن طعامي •

— يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغي له أن يأتيك الا غلام وهو أحدث القوم سنا •

— لا تفعلوا ، ادعوه ليحضر هذا الغلام معكم ، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم •
— هو والله أوسطنا نسبا ، وهو من ولد عبد المطلب •

فقال رجل من قريش :

— واللات والعزى ان كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا •

ثم قام اليه وجاء به وأجلسه مع القوم ، فجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشياء من جسمه ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرا فقال له :

— أسألك بحق اللات والعزى ألا ما أخبرتنى عما أسألك عنه •

فقال محمد فى رقة :

— لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغض شيئا قط بغضهما •

ودار الحديث بين بحيرا ومحمد ، بحيرا يسأل ومحمد يجيب ، انه يسأله عما يرى فى منامه وعما اذا كانت رؤياه تتحقق فيخبره محمد أن ما يراه يتحقق كفلق الصبح فرؤياه صادقة ، ويسأله عن آلهة قومه فيجيب محمد ببغضه للشرك ، ويستمر الحوار بين محمد الهادى وبحيرا المنفعل ، بين النبى المنتظر والراهب الذى أمضى سنين حياته يقرأ البشارات والنبوءات بالنبى الأمى الذى يجده

مكتوبا عنده فى التوراة والانجيل فقد كان يعرفه كما يعرف نفسه ،
ولكنه لم يكن ليحلم بأن الله سيكرمه بلقاء رسوله •
ان الله سيرعى من اصطفاه لرسالته ، وان الله بالغ أمره ،
وس يظهر دينه على الدين كله ، وس سيرفع ذكر محمد • وانه لمن
رضى الله على بحيرا أن يسر له كشف أمر نبيه ، وقد أحس بحيرا
تلك المكرمة فى نفسه فسجدت روحه لربه وان لم يخسر ساجدا
وباكيا •

كانت كل الدلائل الروحية تدل على أن الغلام الكريم هو النبى
المنتظر ، ولم يبق الا دليل مادى ملموس ذلك هو خاتم النبوة ،
فطلب بحيرا من محمد أن يكشف عن ظهره ، فلما رأى خاتم النبوة
مشت قشعريرة فى بدنه ولم يتمالك الشيخ الجليل الا أن ينحنى
ويقبل فى اجلال موضع الخاتم •

ورأى رجال قريش ما ارتسم على وجه الراهب من رضاء ، وظل
أبو بكر ينظر وهو مأخوذ ، ثم قالت قريش :
— ان لمحمد عند هذا الراهب لقدر •

وسار بحيرا إلى حيث كان أبو طالب وقال له :

— ما هذا الغلام منك ؟

— أبنى •

— ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا •

— فانه ابن أخى •

— فما فعل أبوه ؟

— مات وأمه حبلى به •

— صدقت •

— وما فعلت أمه ؟

— توفيت قريبا .

— صدقت . فارجع بابل أخيك الى بلاده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . واعلم أنى قد أدبت اليك النصيحة فأسرع به الى بلاده .

كان أبو طالب يسمع نبوءات الكهان فى مكة وفى كل مدن الحجاز وما كان يصدقها ، وقد سمع نبوءات الزهبان وألقاها دبر أذنه ، ورأى أن يفحم بحيرا فقتل له :

— ان كان الأمر كما وصفت فهو فى حصن من الله .

كان بحيرا على يقين من أن محمدا فى حماية الله ورعايته ، ولكنه كان يطلب التوقى والحذر فلم يزل يناشد أبا طالب حتى قبل أن يرده خشية أن يصيب ابن أخيه مكروه فتنقول قريش حذره الراهب وأبى الا أن يركب رأسه .

ونادى أبو طالب على بعض غلمانهم وأمرهم أن يعودوا الى مكة بابل أخيه ، فلما رأى عتيق (أبو بكر) أن صديقه الحميم سيعود قبل أن تنتهى الرحلة طلب من أبيه أن يعود معه ، ووافق أبو قحافة على عودة ابنه ففقل الركب الصغير عائدا بمحمد وأبى بكر ، وكانت أول صحبة بين الصديقين .

— ١٤٢ —

— ١٥ —

راحت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، ففتحت الدور التى بنيت على سفوح الجبال المطلة على الحرم ، وبدأ الناس ينحدرون الى الكعبة ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينطلقوا الى حلقات السمر يصغون الى الشعراء أو يشنفون آذانهم بغناء الثقيان بين كتوس الخمر وأحضان الحسان ، أو ليلعبوا الميسر بالأموال التى كسبوها من التجارة أو من اكراه فتياتهم على البغاء أو من عرق عبيدهم الذين يقومون بالجدادة والنجارة والنسيج والصياغة وكل الحرف طوال النهار ليجلبوا لساداتهم ما كسبت أيديهم •

وفتح الرعاة أبواب الحظائر فانسابت الغنم والأنعام الى الآبار والى المراعى فأثارت النقع ، وارتفعت أصواتها تملأ أجواء مكة ، ودبت الحياة فى ربوع أم القرى وفى الوادى المقدس ، فاقبال الليل ايذان بحياة صاخبة قد تمتد فى دور الأجواد وطلاب اللهو ، وما أكثرهم فى مكة ، الى تنفس الصبح •

وخرج زيد بن عمرو بن نفيل من غار حراء فهو يختبئ به من اضطهاد عمه الخطاب بن نفيل ، فاذا أراد أن يدخل مكة دخلها متسترا بالليل أو مستخفيا حتى لا يراه الشبان الذين وكل اليهم الخطاب أمر اضطهاده خشية أن يفتن أهل مكة عن دينهم •

كان الشبان وسفهاء القوم اذا رأوه أمطروه بالحجارة حتى يلجئوه الى الجبال ، فكان يلوذ بها ثم يقصد الى غار حراء يحتمى

به ويمضى أغلب وفته فيه ، وما كان يذهب الى دار زوجه صفية بنت الحضرى فقد كرهت منه انسلخه عن دين الآباء ومحاولته اثاره الفتن بين قومها الذين اطمأنوا الى حياتهم الناعمة ، فكان اذا ذهب اليها بعثت الى الخطاب أن ابن أخيه فى دارها فيأتى الخطاب وهو غاضب حائق فيطرده من الدار ، بل من مكة كلها •

وانطلق زيد يترقب ، ثم وقف على سفح جبل أبى قبيس ينظر الى التعبة والناس يتدفقون اليها من كل فج ومن كل سفح كالسيل ، يطوفون بها ويتمسحون بالأصنام التى وضعت حولها ، فأحس شوقا الى الطواف بالبيت وتمنى لو كان له جناحان يحلق بهما كحمام الحمى حول أول بيت وضع للناس دون أن تقع عيناه على الأصنام التى بات يكرها أشد الكره •

وراح يرقب الشمس وهى تغيب وراء الجبال فأحس ابتهاجا يملأ جوانحه وأنه مفعم بروح الله ، وتمنى لو أنه أوتى قوة ليصيح بقومه أن اعبدوا الله وحده ، ولكنه كان أضعف من أن يواجه الثورة العارمة التى ستشب فى وجهه ، وكان يقشعر جلده كلما فكر فى أن يصمد للتحدى وأن يصبر على العدوان •

انه لما طاف بالأرض سمع من الأحرار والرهبان أن النبى الذى سيظهر فى مكة قد أظل الأرض زمانه ، وأن ذلك النبى سينشر دين الله ، فعاد الى مكة يلتمس الحنيفية دين ابراهيم وينتظر ذلك النبى فى لهفة لينصره ويؤيده حتى يظهر الحق ويغمر نوره العالمين •
وشخص ببصره الى السماء وقال :

— اللهم انى أشهد أنى على دين ابراهيم عليه أحيا وعليه

أموت •

ثم التفت الى الكعبة وقال :

— هذه قبلة ابراهيم واسماعيل ، لا أعبد حجراً ولا أصلى له
ولا أكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام وانما أصلى لهذا البيت
حتى أموت •

وانحدر مع الليل الى الوادى المقدس وراح يطوف مع الطائفين
وهو يعجب لاضطهاد عمه اياه ، فورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش
وكثير من قومه قد اعتنقوا النصرانية وجلبوا تمثال العذراء وهى
تحمل المسيح من أرض الروم ووضعوه بين التماثيل حول الكعبة
فلم يضطهدهم المكيون بل كفلوا لهم حرية العبادة ، وان العبيد
والاماء من روم وفرس وأحباش ووثنيين يمارسون شعائر دينهم
فى حرية وسماحة فما بال الخطاب يتعقبه ويغرى به سفهاء قومه ؟

أوسعت رحمة قريش اليهود والنصارى والمجوس وعبد
الحجارة وضائق بالحنفاء الذين يطلبون دين ابراهيم الخليل
واسماعيل ؟ ان فى مكة حنفاء آخرين يعبدون الله وحده على قدر
علمهم ويسيروا فى الأرض دون أن يقع عليهم اضطهاد أو تعذيب ،
وما ذلك الا لأنهم لم يسفهاوا أحلام قومهم ولم يسبوا آلهتهم ،
فلماذا لا يمك زبد لسانه عن عيب ما يعبدون وأن يعيش فى
سلام مع أهله ، لهم دينهم وله دينه القويم ؟ !

لم يكن مكلفا برسالة ولم يعده الله لحمل ما ينوء به أولو العزم
من الرجال ، فقلبه أشرق باليقين وملأت أنوار الله جوانح صدره ،
ولكنه لم يروض ليكون أقوى الناس يقينا وأشدهم عزما وأوفرهم
علما وفهما وأرقهم قلبا ، ولم يأتئه الله حكمة وحكما ليفتح به أعينا

عميا وقلوبها غلغا وأذانا صما ، فاطمأن الى مسالمة قومه التماسا
للنجاة والسلامة .

ووقعت عينا شاب من شباب قريش على زيد بن عمرو وهو
يطوف بالببيت فراح يتفرس فيه ، حتى اذا ما تحقق منه طار الى
الخطاب بالنبا ليأتى الخطاب وسفهاء القوم ويطرده من الحرم قبل
أن يفسد ضعاف النفوس من قومه .

كان الخطاب فى داره يغدو ويروح فزوجه حنثمة بنت هاشم
ابن المغيرة كانت تضع ما فى بطنها ، انها وضعت أنثى أول ما وضعت
ولما بشر بها اسود وجهه وهو كظيم وأمسكها على هون ولم يدسها
فى التراب وسماها فاطمة .

ان زوجه مخزومية وأبناء عمها سادات بنى المغيرة أبو جهل
وعبد الله بن أبى ربيعة والوليد بن المغيرة ، وهو فى حيرة من أمره
لا يدرى ماذا يفعل لو وضعت امرأته أنثى مرة ثانية ، أيئدها
ويغضب بنى مخزوم أم يمسكها وقد تجلب له العار كما جلبت
ابنة قيس بن عاصم العار لقومها ؟

وأحس أن رأسه يكاد ينفجر فغادر الدار وانطلق الى دار عبد
الله بن جدعان ليسمر مع السمار حتى تضع زوجه ويأتيه البشير
أو النذير ، فلم يعد يستطيع صبرا على الانفعالات المواردة بين
جوانحه ، وقد زاد فى اغرائه على التوجه الى دار ابن جدعان أنه
علم أن أمية بن أبى الصلت هناك وأنه سيعود فى الصباح الى أهله
فى الطائف .

وذهب الخطاب فى سكون الليل الى دار ابن جدعان فاذا الموائد
قد مدت ، وجلست الجرادتان على شرف عال وراحتا تغنيان أعذب
(اليقيم)

الألحان ، واذا بابن جدعان وعن يمينه أمية بن أبى الصلت. وعن يساره ومن حوله سادات قريش : أمية بن خلف والعاص بن وائل وأبو لهب بن عبد المطلب والوليد ابن المغيرة وأبو زمعة الأسود ابن عبد المطلب وحرب بن أمية ، فلما رأى ابن جدعان اقبال الخطاب قام اليه وأجلسه الى جواره •

وبدأ الناس يأكلون فقال قائل :

— أهذه الوليمة تحفة أم قرى أم مأدبة ؟

كانت التحفة ما يصنع للزائر والقرى ما يصنع للضيف والمأدبة ما ليس له سبب ، فقال آخر :

— أيام ابن جدعان كلها ولائم •

ودارت الكتوس على الحاضرين وقد ملئت من نبيذ الشام ، وما أن رفع أبو لهب كأسه حتى تذكر تلك الليلة التى سرق فيها غزاة الكعبة ليشتري بها نبيذا •

كان ابن جدعان أكثر القرشيين طلبا للغزاة كأنما كان يخشى أن يغضب رب الكعبة فيذهب ماله ، ولم يهدأ له بال حتى عثر عليها وأعادها الى مكانها • كانت فعلة منكرة من أبى لهب ومن أصحابه وقد وصم بها الى الأبد ، فقد سماه قومه « سارق غزاة الكعبة » ، وانهم ليهمسون بتلك التسمية وأن لم يجروأ أحد على أن يلقي بها فى وجهه •

ان ابن جدعان قد حرم على نفسه الخمر ولكنه كان يقدمها الى ندمائه وكان يرى من فعالهم لما تلعب الخمر برعوسهم ما يزيده عزما على ألا يقرب الخمر أبدا ، فقد كانوا يأتون من الأعمال ما لا يليق بكرامة البشر •

وإمال أمية بن خلف على جاره وراح يؤكد له أن صوت عبده الحبشى بلال بن رباح أندى من صوت الجرادتين ، فإنه إذا ارتفع صوته بالحداء يصفى على القافلة كلها راحة وبشرا •

وانتهت المغنيتان من غنائهما فقام الشعراء وراح كل منهم يلقي على أسماع السكارى ما معه من الشعر ، ثم قام الزبير بن عبد المطلب فارهقت الأذان فقد كان الزبير شاعراً مقذعا ترهبه القبائل ويخشى الشعراء لذعه وسفريته وهجاءه وكانوا جميعاً يتحاشون التعرض لآل عبد المطلب بل لبنى هاشم جميعاً خوفاً من لسان الزبير الذى كان أقسى من ضربات السياف على الظهور الغارية •

وراح أمية بن أبى الصلت يتحدث ، وكان أمية قد ساح فى الأرض حتى بلغ فارس وسمع قصص « كليله ودمنة » التى نقلها برزويه طبيب أنو شروان الى البهلوية ، وكان برزويه قد أتى بأصلها الهندى أثناء رحلة نه الى بلاد الهند ، وقد وعى أمية كثيراً من تلك القصص التى انتشرت انتشاراً عظيماً فى فارس وفى الحيرة ، فكان يروى ما تسعفه به الذاكرة فى مجالسه ، وكثيراً ما كان يترك بصمات فكره على ما يروى منها •

واعتدل أمية بى أبى الصلت وصمت قليلاً حتى اذا ما أطمأن الى أنه صار قبلة الأنظار ، قال :

— كلان الديك نديماً للغراب ، فرهنه على الخمر وغدر به ، وتركه عند الخمار رهينة ، فجعله الخمار حارساً •

ودخل الشاب الذى رأى زيد بن عمرو فى الحرم يتلفت ، حتى اذا ما وقعت عيناه على الخطاب ذهب إليه والتقم أذنه وهمس قائلاً :

— عاد زيد الى مكة •

فاربذ وجه الخطاب وهب واقفا وقد ثارت فى صدره ثورة حائقة ، ثم انطلق لا يلقى على شىء والشباب فى أثره ، فلما بلغ الكعبة راح بنقب بعينه عن ابن أخيه حتى اذا ما رآه ناداه بصوت فيه غضب ووعيد ، فلما هوى الصوت على أذننى زيد ارتجف وسرعان ما دار على عقبه ووسع من خطوه ليختفى فى شعاب مكة •

كان زيد يطلب السلام بينه وبين قومه وكان أمله أن يكف عمه عن اضطهاده ، ولكن ما أن أصبح أمام الخطاب وجها لوجه حتى ارتعدت فرائصه وفر من أمامه مفضلا أن يبعث الى الرجل العنيف ، سفيراً يصلح بينهما ، على ألا يسب زيد الآلهة ولا يسفه الأحلام وعلى أن يترك زيد حراً يعبد ما يشاء فهو لا يطلب حرية أكثر من الحرية المكفولة لليهود والنصارى والمجوس ، بل وللعبيد والاماء من كل أمة ومن كل جنس وعلى أى دين •

لم يكن زيد بن عمرو بن نفيل معداً لأعباء الرسالة ، فلم يقل لعمه ما قاله محمد بن عبد الله لعمه بعد ذلك بثلاثين سنة : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » ، ولكنه أثر السلامة والفرار بدينه والاكتفاء بأنه قد رشد وحده •

وتذكر الخطاب زوجه حنثمة التى تركها وهى تلد فرأى أن يعود الى داره ليعلم ماذا وضعت له المخزومية ، ففسار خافق القلب يخشى أن يبشر بالأنثى فيسود وجهه • ولكنه ما أن أشرف على الدار حتى هرع اليه البشير يقول :

— ١٤٩ —

— ولد .. ولد ..

وانبسطت أسارير الخطاب وتهلل فؤاده بالفرح واندفع الى
حيث كانت زوجته وهو فى غاية الانفعال ، ونظر نظرة طويلة كلها
حب وحنان ورحمة وفكر ...

— بماذا أسميه ؟

سأسميه عمر .. عمر بن الخطاب *

— ١٦ —

بدت جبال مكة والوادى المقدس كأنها قطع من لجين ، فقد كان
القمر فى ليلة تمامه يريق أشعته الفضية على الكون فيضفى على
الوجود سحراً ويملاً الصدور انشراحاً ويطلق الأخيلة للرؤى المجنحة
التي تهيم فى دنيا الأحلام والأمانى والآمال *

وانعقدت حلقات السمر فى الدور وعلى روابى الجبال وفى
دار الندوة وفى الحرم ، وراح المكيون يتحاورون ويروون أساطير
الأولين تارة ويقصون قصص كيلة ودمنة التي انتشرت فى فارس
وفى الحيرة وفى كل القبائل العربية التي كانت على صلة بفارس
والحيرة انتشار الريح تارة أخرى ، ويتدارسون دياناتهم وكرامات
التهيم وقد نسوا دين أبيهم إبراهيم بعد أن مضت بينهم وبينه
قرون فتناول عليهم العمر وقست قلوبهم ، أو يلقون سمعهم الى
شعرائهم فالشعراء هم قطب الرعى فى كل سامر وفى كل ناد ،
وما زال القوم فى سمرهم حتى ظهرت تباشير الصباح *

وجاء محمد بن عبد الله بطوف بالحرم قبل أن ينطلق ليرعى غنم أهله ، فألفى بيت الله كأنما دثر بمخمل نسج بأسلاك من فضة وقد شع منه ضياء لطيف أنار روحه بفيض من نور انشرح له كل وجدانه ، انه حرم آمن يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدن اله كريم .

ووقعت عيناه على الأصنام التى نصبت حول البيت العتيق فاذا الصورة الرائعة التى رآها بعين بسيرته تهتز ، واذا بالانشراح الذى ملأ جوانحه ينحسر أمام الانقباض الذى زحف لينزل بصدرة . واذا بالحب العميق الذى أحسه للبيت ينقلب فى غمضة عين الى كراهية لتلك الحجارة التى لا ترى ولا تسمع ولا تملك لنفسها نفعا أو ضرا .

وسمع ما يدور بين الجالسين فى الحرم من لغو فأعرض عنه وراح يبتعد عن أحب مكان الى قلبه ، فالأصنام قد دنسته ، وهى كلما مد بصره اليها تهيض جناح روحه التى استمرأت السمو الى ما وراء الوجود ، وذلك اللغو الذى يتردد فى الوادى المقدس يؤذيه بل يرهقه أرهاقا . انه يريد أن يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة قبل أن تمتد اليها يد الانسان العايب . فما أجمل الطبيعة قبل أن تشوه وجهها أيدي البشر ! وما أروع ما توحى به ! انها ترفع الراغب فى الوصال الى ما وراءها ليتהל بالفرح وينعم بالتجلى .

وجعل الكعبة بما فيها من أصنام ولغو دبر أذنه ، وذهب الى حيث كانت غنم قومه فخرج بها قاصداً المرعى ، وقد أتت من بعيد أصوات القيان بالغناء فقد كان هناك عرس فى مكة .

كان يحب الغنم ويغمرها بعطفه ، وكان اذا ما رأى سخله ،

— وهى ولد الشاة حين تضعه ذكراً كان أو أنثى — كان يحملها ويمرر يده عليها فى شفقة ويضمها اليه فى حنان وقد امتلأ قلبه رحمة . وكانت اذا شردت شاردة يعيدها الى القطيع فى رفق ، واذا قفز حمل أو عنزة فى الفضاء فى مرح ، ترف ابتسامة رضا على شفثيه ، وما كان يجهد غنمه فى السير بل كان يترفق بها ، فهو برعايته للغنم يتدرب على رعاية الناس .

وألقي نفسه فى الفضاء ، أنه أمام الوجود وجها لوجه ، فراح يتلفت فى ابتهاج وقد أحس فى أعماق ذاته أن ذلك العالم الذى يراه عالم ناقص لا يستطيع أن ينهض على قدميه دون الوجود الأسمى ، الحقيقة المقدسة ، ذات الذوات وروح الأرواح وحقيقة الحقيقة .

كان القمر يغمر الكون بالضياء ، وكانت الغنم ترعى الكلا ، فراح يتأمل ويفكر ويتدبر فيحس كأن حكمة من فوق السموات تتدفق الى قلبه ؛ لو أن روح الكون جعل الليل سرمداً الى الأبد من اله غيره يأتى بالضياء ؟ وان جعل النهار سرمداً الى الأبد من اله غيره يأتى بليل يسكن الناس فيه ؟

ومد عينيه الى المرعى وراح يفكر فى الاله الذى ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، أهبل الذى يسوق الرياح ؟ آلات والعزى ومناة اللاتى يملكن للناس رزقا ؟ ان هبل عاجز وكل الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة ومن حولها ليس لها من الأمر شيء ، ان اله هذا الكون هو صانع ما فيه من آيات وصاحب ما فى الوجود من أسرار وعنده مفاتيح الغيب .

هذا القمر المتألق فى السماء شاهد بوجوده ، وهذا الفضاء

الواسع العريض شاهد بوجوده ، وهذه الغنم وهذا الكلاؤ وزفيف
النسيم وخفقان قلب الكون وتعاقب الليل والنهار شاهد بوجوده ،
وانه بكل كيانه منحة من القدرة الالهية ، من الحقيقة المتعالية •

وأحس رغبة فى النزوع الى الحقيقة الخالدة ، أن يرتفع الى
ما وراء عالم التجربة البشرية الناقصة ، أن يتصل بالخير الأسمى
وأن يقف منه موقف العبد من المعبود • ولم يدر بخلده ما يدور بخلد
الكهنة والسحرة من أن يتخذوا من هذه القوة المتعالية قوة سحرية
يستغلونها لمصلحتهم ، بل انه أراد أن يسلم لله وجهه وأن يستعين
به وأن يتوكل عليه •

أيستطيع أن ينفذ الى جوهر الحقيقة ؟ أن يغوص فى أعماق
« السر الالهى » ؟ أم يكفيه ذلك الاشراق الذى أمسى يحسنه فى
صميم ذاته ؛ وأن يكف عقله عن الجرى وراء استجلاء الحقيقة
المستغلفة ؟

انه يستشعر الجوهر الأسمى فى كل ما يمد اليه عينيه ، وانه
ليسمع صوته فى كل صوت يتجاوب فى أرجاء الوجود ، وانه من
أمامه ومن خلفه ومن فوقه وحيثما يوجه البصر ، بل انه فى قلب
قلبه وفى نور عينيه وفى كل جارية من جوارحه وفى أعماق أعماقه •
هو روح الروح •

انه يحس نشوة تنبعث من صميم احساسه بمن ليس دونه منتهى
ولا وراءه مرمى ، وأنسا وبهجة وانبهارا كلما شاهد عجائب ملكوته
وآثار قدرته ، وانه ليخر ساجدا وقد تهال بالفرح لعظمته وان كانت
روحه فى سجد دائم لا تعرف قياما ، فقد ملأه السرور أن قد عرف
الخير المطلق والعدالة المطلقة والحق المطلق •

ان شجرة الايمان تتزعزع فى ضميره ، وأن عليه أن يرعاها بالمجاهدة وأن يسقيها بالتأمل والتدبر والتفكير والقاء السمع الى من ليس دونه منتهى • وأن يرقى ذاته بالصبر الطويل وتحمل ألم الوحدة والحزن العميق حتى ينعم بفيض علوى من السعادة وحتى يشرق الله قلبه بأنوار اليقين •

ان الوجود شئ أكثر مما نراه ونحسه ونلمسه ونشمه ونتذوقه أو يتخيله العقل ، انه الطبيعة وما وراء الطبيعة ، انه الكون وروح الكون ، انه العالم والله ، وان قلب الحقيقة ارادة الله ، وان محمداً ليحس أن الله يهبه قلباً جديداً ناصعاً كلما هام فى ملكوته وفكر فيه • وجاء فتى من فتيان قريش فى غنم لأهله يرعاها ، فلما رأى محمداً راح يجاذبه أطراف الحديث ، وفيما هما يتحاوران تذكر محمد أصوات الفتيان التى مست أذنيه وهو منطلق بالغنم الى أعلى مكة ، فخطر له خاطر : لم لا ييسمر الليلة كما ييسمر الفتيان وانه ليسمر برىء لا شئ بعده ، واستراح لذلك الوسواس فالتفت الى الفتى وقال :

— أنظر الى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما ييسمر

الفتيان •

قال الفتى :

— نعم •

وترك محمد غنمه فى رعاية ذلك الفتى ثم سار يتكفأ مسروراً . فهو مقدم على تجربة جديدة لم يمارسها من قبل ، فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دغوف ومزامير فقال :

— ما هذا ؟

— فلان قد تزوج من فلانة •

فجلس وتأهب ليسمع ، ولكن الله ضرب على أذنيه فراح فى سبات ولم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً ، فالسماء تعدده لرسالة ليس سبيلها السمر واللقاء السمع الى الغناء وأصوات الدفوف والمزامير والألحان •

وانقضى الليل وهو غارق فى نومه ، وانفض السامر وأشرقت الشمس فلما أحس حرها استيقظ وراح يتلفت فى عجب ، فهو لا يدري كيف غلبه النوم وما كان فى عينيه نعاس ، بل كان نشيطاً يمنى النفس بليلة من ليالى السمر التى يسعد بها فتيان مكة •

ورجع الى صاحبه فهرع اليه الفتى وقال :

— ما فعلت •

وترقب الفتى أن يسمع وصفا مسهباً لتلك الليلة من محمد الذى اشتهر بفصاحته ، ولم يمن النفس بأن تهز الليلة محمداً فيصوغ شعراً فقد عرف أن محمداً يكره أوزان الشعر ولا يتبع الشعراء الذين يهيمون فى وديان مكة وشعابها •

وقال محمد فى اقتضاب :

— خرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت

دفوف ومزامير ، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتنى عيناى فنمت فما أيقظنى الا مس الشمس •

وعاد محمد بنعم أهله وهو يفكر فيما كان فى أمسه ، فان كان النوم قد غلبه فسينام النهار حتى يقوى على أن يسهر الليل يسمر كما يسمر الفتيان ، فهو مذ تفتحت عيناه على نور الدنيا لم يعرف اللهو ولا السمر ، وان كل ما يذكره تلك الأيام والليالى التى قضاه

فى بنى سعد فى أحضان حليلة ، يشارك اخوته الشسيماء وعبد الله وأنيسة لعبهم ، وكانت لعبته المفضلة « العظمة البيضاء » وكان كلما لعبها مع أنيسة وعبد الله يفوز عليهما فهو يطوحها أبعد من أخويه ، وكان يراها فى ظلمة الليل قبل أن تقع أعينهما عليها •

وانه ليذكر تلك الأيام التى قضاه فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار ، كانت أياما مترعة بالمتعة ، خرج فيها مع صبيان أخواله يجوس خلال أطام اليهود وأسواقهم ، ويقف على العداوة الناشئة بين الأوس والخزرج ، وقد تعلم العوم هناك كشفا عن حبه للمخاطرة والترقى والسمو على بيئته الملكية التى ما كانت تعرف العوم أو تفكر فيه •

وانه ليذكر أنيسة تلك الجارية من بنى النجار التى كانت تلعب معه على أطام من أطام عدى بن النجار ، وكان فى ذلك الوقت فى السابعة من عمره ، ومضى على ذلك ست سنوات لم يعرف فيها اللعب بل عرف التأمل والتدبر والتفكير فى ذلك الكون الرحيم الذى يحس توافقا بينه وبينه ، والذى يرفعه فى رفق الى ما وراءه ليتصل بمن ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى •

كان ذلك كل ما عرفه من لعب ، وما كان فيه شئ قبيح مما كان متفشيا فى أهل الجاهلية • وقد هفت نفسه الى أن يسمر ذلك السمر البرى الذى يسعد به كل فتیان مكة دون حرج أو تثريب ، ولكن الله عصمه فى الليلة الأولى ، وهو عازم على أن يتأهب للسمر فى الليلة التالية ليعوض ما فاتته •

وانصرم النهار وجاء الليل وارتفع القمر يبعث أشعته لتكنسو الأرض ببساط من فضة ، وسرى محمد يرمى غنمه فى أعالي مكة

وصوت القيان والدفوف والمزامير يهمس في الوجود همسا كله
اغراء وفتنة كوسوسة الشياطين في صدور الضالين •

والتفت محمد الى صاحبه وقال :

— أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة •

— نعم •

وانطلق محمد نشيطا حتى جاء دارا من دور السادات الذين
يمضون الليل فى سمر وحبور يصيخون السمع للغناء وصوت
الدفوف والمزامير ، فجلس وتأهب ليثنف أذنيه بالأصوات العذبة ،
بعد أن نام النهار ليسهر الليل كله مع الساهرين • ولكن ما كاد
يستقر فى مكانه حتى غلبه النوم قبل أن يرى شيئا أو يسمع شيئا ،
وانقضى الليل وهو غارق فى النوم وما أيقظه الا حر الشمس ، فقام
وهو يتلفت فى دهش ، وسرعان ما أحس رهبة وكأنما قد أضاء ذهنه
فجأة بحقيقة كانت غائبة عنه أو غابت عن ضميره فى الليلتين
اللتين فكر فيهما أن يسمر كما يسمر الفتیان •

انه سائر فى طريق التأمل والتدبر والاتصال بروح الوجود ،
وأنه ليستشعر أن ذات الذوات تدنو منه كلما دنا منها ، بل انه
ليستشعر أنها صارت قريبة منه أقرب من حبل الوريد ، فما الذى
جعله يعرج الى طريق اللهو والسمر ؟ !

أنه أسف لأنه هم بقبيح مما هم به أهل الجاهلية ، وأنه لسعيد
فى نفس الوقت لأنه اكتشف أن الحقيقة الخيرة ترعاه وتحول
بينه وبين أن ينغمس فى حياة ينتكب بها الطريق القويم الذى
يقوده الى غاية الغايات •

— ١٥٧ —

انه يجناهد ويجتهد ويتحمل الألم والعذاب والحرمان ليبلغ ما تصبو اليه نفسه من الوصال ، وأن اللطيف قد لطف به وعصمه عن أن يدخل من باب اللهو الذي يقوده الى الضلالة ، فعزم على ألا يعود لشيء من ذلك بعد أن رأى ببصيرته برهان ربه .

— ١٧ —

خرج حكيم بن حزام بن خويلد من دار الندوة ليطوف بالبيت قبل أن ينطلق الى دار عمته خديجة ، وكان حكيم آدم شديد الأدمة خفيف اللحم ولد قبل الفيل باثنتي عشرة سنة ، فقد دخلت أمه الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل مثتم به فضربها المخاض في الكعبة ، فأثتت بنطع حيث أعجلها الولاد ، فولدت حكيماً في الكعبة على النطع .

وكان حكيم راجح العقل له دراية ورأى ، وقد عرف عنه ذلك وهو لا يزال حدثاً ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ الأربعين الا حكيم بن حزام فانه دخلها للرأى وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكانت له كلمة بين شيوخ قريش وساداتها ، وصار من وجوه قريش ولما يبلغ العشرين من عمره ، وقد كان ذلك سبباً في تأجيج مطامع أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) وأبى سفيان بن حرب ، فقد طمع كل منهما في أن يدخل دار الندوة للرأى قبل أن يبلغ الأربعين كما فعل حكيم بن حزام .

وكان حكيم يعالج البر وأن كان يسجد لأصنام الكعبة ، وكان

رجلا تاجرا يخرج الى اليمن والى الشام فى رحلتى الشتاء والصيف فكان يربح أرباحا كثيرة فيعود على فقراء قومه يريد بذلك شراء الأموال والمحبة فى العشيرة • وكان يحضر الأسواق ، وكانت سوق مجننة تقوم عشرة أيام ، حتى اذا ما بدا هلال ذى الحجة انصرف العرب وانتهوا الى سوق ذى المجاز فتقام ثمانية أيام ، ثم ينصرفون الى أداء مناسك الحج والوقوف بعرفة •

كان دين ابراهيم قد اندثر ولم يبق منه الا حج البيت وتقدیس الحرم ، وان كان الشرك قد دنس عقيدة التوحيد وان كانت الأساطير قد طمست الدين القويم لما طال على الناس العمر بعد أن انقضت القرون ؛ فكان العرب جميعا وثنيين ويهود ونصارى أو حنفاء يحترمون البيت ، واذا ما جاء أوان الحج يأتون على كل ضامر من كل فج عميق •

وكان حكيم يؤمن بالتجارة ويجد فيها عز العرب ، فكان لا يدع سوقا بمكة أو تهامة الا حضرها ، وكان بتهامة أسواق أعظمها سوق حباشة ، وقد رأى فيها محمد بن عبد الله مع أعمامه من آل عبد المطلب يشتري بزرا من بز (ثياب) تهامة •

وانتهى حكيم من طوافه وخرج من الحرم قاصدا بيت عمته خديجة ، والناس ينظرون اليه وفى عيونهم حسد ، فهو رجل محدود فى التجارة ما باع شيئا قط الا ربح فيه ، ولقد كانت قریش تبعث بالأموال ويبعث بماله فلربما دعاه بعضهم الى أن يخالطه بنفقته يريد بذلك الحظ فى ماله ، وذلك أنه كان كل ما ربح تحنث به (فعل البر ابتغاء التخفف من الاثم) أو بعامته ، يريد بذلك البركة فى المال وتأليف قلوب عشيرته •

وكان ورقة بن نوفل عاكفا على التوراة والانجيل يقرأ فيهما وينقل منهما وينقب في ثناياهما عن النبی الأُمی الذی فاضت بشارات الأنبياء به ، والذي أكد الرهبان والكهان والمنجمون أن زمانه قد أخل الأرض •

انه يتحرق شوقا الى ذلك النبی ، وانه انما دخل فی دين النصرانية انتظارا لبزوغ الدين القيم من مكة ، فقد قيل له ان النبی المنتظر من ذرية ابراهيم واسماعيل وأنه من عند الحرم بيعث •

انه وعبد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل قد تركوا عبادة الأوثان ، وقد تنصر هو وعبد الله بينا راح زيد بن عمرو يبحث عن الحنيفية دين ابراهيم ، وان كانوا جميعا يترقبون أن يشرق نور النبی الذی فاضت صوامع الرهبان وبيع المتعبدین بذكره •

ان ورقة بن نوفل الأسدي القرشي قد هجر الدنيا ومباهجها وكرس حياته للعبادة وترقب ذلك الحدث الجليل الذی ملأ وجدانه واستولى على كل مشاعره ، فهو يرجو أن يظهر رسول الله ليؤيده وينصره نصرا مؤزرا ، ولقد قال أشعارا في هجر الدنيا وسارت بها الركبان وأنشدوا رواة الشعر في حلقات السمر :

رحلت قَتِيلَةً غيرها قبل الضحى

واخال أن شحطت بجارتك النوى

أو كلما رحلت قَتِيلَةً غَدَوَةٌ

وغدت مفارقة لأرضهم بكى

ولقد ركبت على السفينة ملجأ (١)
أذرت الصديق وأنتحى دار العدى
ولقد دخلت البيت يخشى أهله
بعد الهدوء وبعدهما سقط الندى
فوجدت فيه طفلة قد زينت
بالحنى تحسبه بها جمر الغضا (٢)
فنعمت نالا إذ أتيت فراشها
وسقطت منها حين جئت على هدى
فبتلك لذات الشباب قضيت
عننى فسائل بعضهم ماذا قضى
قدح الذباب (٣) فليس يورى قدحه
لا حاجة قضى ولا مالا نما
فارفع ضعيفك لا يحمل بك ضعفه
يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من
أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

كان ورقة شاعرا رقيقا وكانت المجالس ترحب به وتزهو
وتزدهر لو أنه كان من الشعراء الذين يهرعون إلى حلقات السمر ،
ولكنه أثر الاعتكاف والتعب والتحنن وانتظار اشراق نور النبوة •

(١) على جانب منها .
(٢) أحسن الخطب نارا وأزهره .
(٣) قدح الذباب لا يوقد نارا .

وأغلق ورقة الكتب التى يقرأ فيها ونهض فارتدى أفخر ثيابه وانطلق الى بيت ابنة عمه خديجة الطاهرة .

وكان عدى بن نوفل بن أسد فى دار أمه أمية بنت جابر بن سفيان ، وكان خاله ثابت بن جابر هناك وقد عرف خاله بتأبط شرا ، ففى ذات يوم تأبط ثابت سيفاً وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدرى تأبط شرا ، واشتهر بأنه من عدائى العرب ، وأنه اذا جاع نظر الى الأطباء فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه .

وكان تأبط شرا يروى مغامراته فى كل مجلس ، فما ان جلس عدى بن نوفل حتى راح خاله يقول :

— كنا ثلاثة ، أنا والشنفرى وعمر بن براق ، ونحن أعدى العدائين فى العرب لا تلحقنا الخيل ، وكان بيننا وبين بجيلة ثارات ، فوجدنا بجيلة قد أقعدوا لنا الماء رسدا ، فلما ملنا فى جوف الليل قلت لصاحبى : « ان بالماء رسدا ، وانى لأسمع وجيب قلوب القوم » . قالوا : « والله ما نسمع شيئاً ولا هو الا قلبك يَجِيب » .

فوضعت يدى على قلبى وقلت : « والله ما يجب وما كان وجائباً » . قالوا « فلا والله ما لنا بد من ورود الماء » .

فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرِب ثم رجع الينا ، فقال : « والله ما بالماء أحد لقد شربت من الحوض » . فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى » . ثم ذهب ابن براق فشرِب ورجع فلم يعرضوا له ، فقال : « ليس بالماء أحد » فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى » .

(. اليتيم)

ثم قلت للشنفري : « اذا أنا كرعت فى الحوض فان القوم سيشدون على فيأسرونى ، فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فاستتر فى أصل ذلك الجبل ، فاذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى . »

وقلت لابن براق : « انى سأمرك أن تستأسر القوم فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك » . ثم أقبلت حتى وردت الماء فلما كرعت فى الحوض شدوا على فأخذونى وكتفونى بوتر ، وطار الشنفري فأتى حيث أمرته وانحاز ابن براق حيث يرويه . فقلت : « يا بجيلة هل لكم فى خير ! هل لكم أن تياسروا لنا فى الفداء ويستأثر لكم ابن براق ؟ » فقالوا : « نعم » فقلت لابن براق : « ويلك يا ابن براق ، ان الشنفري قد طار وهو يصطلى نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك فهل لك أن تستأسر ويياسروننا فى الفداء ؟ » .

فقال : « أما والله حتى أجرب نفسى شوطا أو شوطين » . فجعل يعدو فى سفح الجبل ثم يرجع ، حتى اذا رأوا أنه قد أعيا وطمعوا فيه اتبعوه .

وناديت : « خذوا خذوا » فذهبوا يسعون فى أثره يطعمهم ويبعد عنهم ، ورجع الى الشنفري فقطع وثاقى فلما رآنى ابن براق قد قطع عنى انطلق وكروا الى فاذا أنا قائم ، فقلت : أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا أنسيكموه .

ثم انطلقت أنا والشنفري نسابق الريح . كانت العداوة ناشبة بين قبائل العرب وكان القتال يثور لأتفه الأسباب ، وكانت السيوف تسل لكلمة فخر أو لكلمة هجاء ، وما أيسر

أن تزهق روح فى مشادة بين سفيهين من سفهاء الأسرات فتقوم سلسلة لا نهاية لها من الثارات والخصومات وسفك الدماء •

وكان الشعراء ورواة الأخبار يؤججون نار العداوة والبغضاء بين القبائل يثيرون النخوة فى النفوس فتنتطلق أصوات من الحناجر « يا لثارات فلان » وتسل السيوف من أغمادها لتتهوى على أى برىء من أسرة العدو فى غدر وغفلة •

وراح تأبط شرا يروى مغامراته نثرا ونظما وعدى بن نوفل يصغى الى خاله وهو معجب بحديثه لا يدري ما اذا كان ما يرويه قد وقع حقا أو من وحى خياله ، وما كان يهمه أن يكون الحديث صدقا فقد كان يكفيه ما فيه من طلاوة وسحر ، وظل تأبط شرا ينتقل من حديث إلى حديث حتى راح يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها ، وقال :

فأصبحت والغول لى جارة	فيا جارة أنت ما أغولا
وطالبتها بضعا فالتوت	فكان من الرأى أن تقتلا
فجللتها مرهفا صارما	أبان المرافق والمفصلا
فطار بقحف (١) ابنة الجن ذو	شقاشق قد أطلق المحملا
فمن يك يسأل عن جارتى	فان لها باللوى منزلا
وغطاه أرض لها حائلا	ن من ورق الطلح لم تغزلا
وكنت اذا ما هممت اهتبلت (٢)	وأحرى اذا قلت أن أفعلا

ونهض عدى بن نوفل مستأذنا ، انه كان مأخوذا بخاله معجبا

(١) التحف : على الدماغ .

(٢) أصل ما أريد .

به ، ولولا أنه كان منطلقا الى دار خديجة بنت عمه لسهه أن يلقى
سمعه الى خاله يروى ظمأه الى الشعر وأيام العرب *

ودخل عدى دار خديجة فاذا بسادات بنى أسد بن عبد العزى
جالسين ، خويلد والى جواره أخوه عمرو عم خديجة ، وورقة بن
نوفل وحكيم بن حزام بن خويلد والأسود بن المطلب بن أسد ،
وكان القيان يضربن على الدفوف فقد انتهت أيام خديجة مع عتيق
ابن عابد بعد أن ولدت له بنتا اسمتها هند ، وأنها ستتزوج اليوم
سيدا من سادات قومها هو هند وستلد له ولدا وستسميه هالة
اكراما لأختها هالة وسيعرف زوجها بأبى هالة ، ثم تلد له ولدا آخر
اسمه هند وسيشهر هند بن هند ويرتفع ذكره لا لأنه ابن هند ، بل
لأنه سينتسب الى من ستعلو به عدنان بل الى من سيثرف به العرب
جميعا *

وأقبل العوام بن خويلد ومعه بعض سادات بنى عبد المطلب ،
فهو زوج صفية بنت عبد المطلب ، وهو الذى شد الأواصر بين بنى
أسد وبين بنى هاشم ، بل بين بنى خويلد بن أسد وبين بنى عبد
المطلب بن هاشم * وهرع الموجودون الى العوام يهنئونه بمولد
ابنه الزبير بن العوام *

وقام أبو هند وألقى كلمة ذكر فيها فضل قومه ، ثم قام خويلد
وراح يعدد مناقب بنى أسد ، وما انتهى الرجلان من اللقاء خطبتهما
حتى تم زواج خديجة بنت خويلد من هند ، بينا كان الفتى الذى
سيعلو به ذكر هؤلاء جميعا فى أحضان الطبيعة يسمو بروحه الى
ما فوق الكون ليتصل بذات الذوات ، حتى يوحى اليه بما فيه خير
قومه ، بل بما فيه خير البشرية فى الدنيا وفى الآخرة *

— ١٦٥ —

— ١٨ —

جاءت الأشهر الحرم فتأهب الناس للخروج الى الأسواق ، وكانوا ينطلقون الى سوق مجنة فسوق ذى المجاز فموسم الحج الأكبر ، ولكن فى هذه السنة ظهرت سوق جديدة بينها وبين الطائف ليلة وبينها وبين مكة ثلاث ليال ، وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء • وكانت هذه السوق يتعرض فيها فى أول الأمر الأشياء المسروقة ، ثم اجتمع الناس فيها وتعاكظوا (تفاخروا) فسميت عكاظ ، وعلا ذكرها فراح بنو هاشم وبنو أمية وبنو المغيرة وبنو تيم وكل قبائل قريش يتأهبون ليفدوا اليها آمنين يمنون النفس بأرباح وفيرة من التجارة ، فمن يريد الميرة أصبح يذهب اليها ، ومن فقد شيئاً التمسها فيها لعله يجده فى سلعها ، ومن أراد أن يخطب أو ينشد ذهب اليها ليذهب الشعر فى الناس •

وتجهز بنو هاشم ثم امتطوا رواحلهم ، وكان محمد بن عبد الله فى رفقة أعمامه • انه ذهب مع عمه الزبير الى اليمن ومر بذلك السهل الواسع الذى انتشرت فيه أحجار كبيرة بيضاء من المرمر عرفت بالعبيلات ، ألا أن ذلك كان قبل أن تصبح تلك الأرض الواسعة المطمئنة أشهر سوق من أسواق العزب •

وخرج عتيق (أبو بكر) مع بنى تيم الى عكاظ وكان سعيداً غاية السعادة ، فسيلتقى فى عكاظ وفى مجنة وفى ذى المجاز وفى موسم

الحج بصديقه محمد • وأن أسعد أيام حياته لتلك التى يمضيها فى رفقة صاحبه الذى كان يزداد اعجاباً به على مر الأيام •

وانطلقت قافلة قريش فى معبد الله ومحمد يرى فى كل ما يوجه اليه بصره ارادة الله الحرة ، فيتهال بالفرح بالحكمة التى كانت تنسكب فى روحه من فوق السموات ، حتى بات يحس أن شهيقه ان هو الا مجد الله ، وأن الحياة التى تسرى فى الوجود ان هى الا خفق قلب رحيم ، وأن شيئاً أسرا ساحراً يجذبه الى الجوهر الأسمى وينزعه من ذاته ويحفزه الى تجاوز الطبيعة ويهيىب به أن يتحد بالعالم وأن يستجيب للنداءات التى توصيه بأن يستمسك بمكارم الأخلاق •

كان الفضاء ممتداً أمامه ولكن نفسه كانت أكثر اتساعاً من تلك البيداء التى تضرب فيها قوافل قريش ، انه يحس حرية طاغية ولكنها لم تكن حرية مطلقة بل حرية واصلة توسع آفاق الروح المجنحة وتوهن رغبات الجسد أو تكبح جماحها •

وقويت بصيرته حتى صار يرى بنور الله ، وانداحت موجات تفكيره حتى وسعت الوجود وما وراء الوجود ، وأن ذاته التى تتدبر وتتروى وتتأمل فى تدريب شاق مستمر ، وفى نزوع الى غاية ليس بعدها غاية ، وان هى تترقى كل يوم بل كل ساعة وكل لحظة لتبلغ الأسمى ما تبلغه روح بشرية ، ألا هو الاتصال بالجوهر الأسمى وتلقى أوامر السماء لتبيلغها الى أهل الأرض •

وانقضت ليلة وقافلة قريش فى طريقها الى عكاظ ، وانقضت الليلة الثانية وأدبرت الليلة الثالثة وقد أشرفت القافلة على سهل واسع به أحجار كبيرة من المرمر والرخام ، ومحمد يجاهد ليلحق

نفسه الذكية بنفسه وبالوحى الذى بات يحس أنه ينزل بصدرة
وينير جوانحه بنور اليقين ، وباتصال روحه بذات الذوات •

ونزلت قافلة قريش برجالها وشبابها وعبيدها وتجارها بالقرب
من العبيلات ، وراح محمد يتلفت فقد كانت أول مرة يفد فيها الى
عكاظ ، فرأى أرضا واسعة مطمئنة كانت مجتمع مياه السيك ، والى
الشرق حرة كبيرة عالية ، فذهب اليها فاذا بها مشرفة على سهل
واسع ، واذا بأحجار بيضاء من المرمر عرفت بالعبيلات ، واذا ببعض
الرجال يطيفون بالعبيلات البيض وينحرون عندها •

ورمى ببصره شطر الجنوب فاذا جبل بعيد ينتهى اليه النظر ،
انه هضبة جلدان • والى الغرب والشمال من هذا الجبل البعيد
أكمة بيضاء من رخام هى العبيلا ، والى الشمال والغرب جبيل
أدكن هو العرفا ، وطمح البصر الى جبال بعيدة هى جبال عسير •
ويأتى من الجنوب والغرب وادى يشرب وتلتقى به أودية منها
وادى الأخيضر به نخل لقبيلة عدوان ؛ انها سوق لقيس عيلان
وثقيف ، وقد جاء اليها الناس من مكة ومن الطائف ومن نجد ومن
اليمن فقد كانت فى طريق أهل اليمن ونجد الى مكة •

وهبط محمد من فوق الحرة وراح يجوس خلال السوق فألقى
النايخة الذهبى وقد ضربت له قبة من آدم ، واجتمع اليه الناس
يصغون الى ما يقول من الأشعار • وكان محمد يكره الشعر ويمقت
ذلك الطواف الذى يمارسه الناس حول العبيلات ، وما كانت غير
مرمر أبيض •

ونصبت هوازن صنما لها فى السوق كان يعرف بجشهار ، فراح
الناس يطيفون به ويتمسحون به وينحرون عنده ويحلقون رؤوسهم •

فضاق محمد بما يفعل قومه وذهب بعيداً ليناجي السماء تلك المناجاة الصامته التي كانت أحر وأصفى من أى صلاة *

انه بات لا يستشعر راحة نفسية الا اذا ألقى بنفسه فى أحضان الطبيعة لترفعه الى ما وراءها ، الى الخير الأسمى وفيض النور * وانه مذ تلك الليلة التي خرج فيها مع قومه فى عيد من أعيادهم الى حيث تقام الأصنام ، ودنا من صنم بوانة فخلل اليه أن مارداً هائلاً يحول بينه وبينه ، ثم جرى ليرتمى فى أحضان بركة الحبشية وهو يخشى أن يكون به مس من الشيطان ، انه مذ تلك الليلة لم يدن من صنم ولم يحاول أن يمسّه *

وانه مذ خرج ليلتين متتاليتين ليسمر فى مكة كما يسمر الفتيان وعصمه الله بأن ألقى عليه النعاس لم يفكر قط فى السمر ، فحلقات السمر منتشرة فى كل مكان فى أرجاء عكاظ ، وأصوات الدفوف والمزامير وغناء القيان تسرى مع النسيم فى السهل الواسع ، ولكن محمداً قد صم أذنيه وفطم جوارحه عن كل لهو ، فهو غائب عن نفسه وعن كل ما حوله بالفيض الروحي الذى يغمره فيملاً عين وجود بالابتهاج *

وضربت خيمة لعامر بن الطرب العدواني وكان من حكماء قيس لا تعدل العرب بفهمه فهما ولا بحكمه حكما ، يتحاكمون اليه فى كل معضلة ، فما كان يغلظ فى حكمه ، وقد جاءه صعصعة بن معاوية يخطب اليه ابنته فقال :

— يا صعصعة انك جئت تشتري منى كبدى ، وأرحم ولدى عندي ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة ، والحسيب كفء

الحسيب ، والزوج الصالح يعد أبا ، قد أنكحتك خشيّة ألا أجد مثلك •

ثم أقبل على قومه ، فقال :

— يا معشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطّ له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه • ولولا قسم الحظوظ على غير الجود ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذي أرسل الحيا (المطر) أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بكّالة ، ومن الماء جرعة • أنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم الا كل ذى قلب واع ، ولكل شيء راع ، ولكل رزق ساع ، ما أكنس وما أحقق ! وما رأيت شيئاً قط الا سمعت حسه ، ووجدت مسه • وما رأيت موضوعاً الا مصنوعاً ، وما رأيت جائياً الا داعياً ، ولا غانماً الا خائباً ، ولا نعمة الا ومعها يؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ !

— ما هو قد فات فأصبت ، وأخبرت فصدقت ؟

— أرى أمور تثنى وشيئاً شياً ، حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشئ شيئاً ، ولذلك خلقت الأرض والسماء •

فتولوا عنه راجعين فقال :

— ويثُثمّها نصيحة لو كان من يقبلها •

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث فكانوا يرون أن الموت نهاية وأنهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت أمر لا يصدق فكانوا يقولون لكل من يقول بالبعث : ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين • وأنكر البعث أقوام من كل قبيلة ، بل ان أناساً

من قريش أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة • وان كانوا يقدمون القرابين للأصنام ويهدون اليها فانهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة بل لئن عليهم بالنعم والخيرات فى هذه الحياة الدنيا •

وكانت فئة قليلة من الجاهليين تؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، فإذا ما مات أحد منهم عقروا ناقة أو جملا أو بقرة أو شاة عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا أو عطشا ، أو يحفر لها أو تترك فيها حتى تبلى ، فقد كانوا يعتقدون أن الناس ركبانا على البلايا ، وأن من لا بلية له يحشر مائتيا •

وكان فى السوق غيلان بن سلمة الثقفى وهو من حكماء قيس ، وكان عنده حرب بن أمية وأبو سفيان بن حرب فالصداقة بينه وبين بنى أمية كانت وثيقة ، وكثيراً ما اشترك غيلان فى تجارة بنى أمية • وكانت له ثلاثة أيام : يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه الى جماله فقد كان جميلا آية فى الحسن وكان يسره أن يطيل النظر الى جماله فى المرأة • وكانت عنده عشر نسوة غير الاماء ، فقد كان العربى يتزوج بلا حدود ولا قيود يأخذ من النساء ما يشاء ما دام قادراً على أن يطعمهن ويقسوم بنفقتهن •

والتقى محمد بصديقه عتيق (أبو بكر) فذهبا فى السوق ، أبو بكر يصغى الى الأنساب وحكماء العرب من تميمين وعدوانيين وقرشيين ويهتم بالديات ، ومحمد يرصد فعال قومهم ويقيسها على ما كان ينبغى أن تكون عليه ، وإذا بقيس بن ساعدة الأيادى يقبل على جمل أورق فيهرع الناس اليه ، فقس تضرب بحكمته الأمثال ،

أيقن بالبعث والحساب وسلم بالقضاء وذكر النشور ووعظ دائماً
وخوف الدهر وشوق الى الحنيفية •

وألقي محمد سمعه الى قس ، وراح أبو بكر يرنو اليه في
انتباه ، وقال قس بن ساعدة :

— يأيها الناس ، اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ،
ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت • ان في السماء لخبراً ، وان في
الأرض لعبراً • مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تلمر ،
وبحار لا تغور • وأقسم قس قسماً حقاً ، لئن كان في الأمر رضى
ليكونن بعده سخط •

ان لله ديناً هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه • ما لى
أرى الناس يذهبون ولا يرجعون • أرضوا بالمقام فأناموا ؟ أم
تركوا فناموا ؟

وانفض الناس من حوله وبعضهم يزوى شعره :	
فى الذاهبين الأوليـ	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى اليـ	ك ولا من الباقيـ غابر
أيقنت أنى لا محـ	لة حيث صار القوم صائر

ودار الحديث حول قس فقال قائل من آياد ، ان قساً وقف
ذات يوم يعظهم فقال :

— أما بعد ، فيا معشر آياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء
والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد • يقسم قس برب
العباد ، وساطح المهاد ، لتحتسرن على الانفراد ، فى يوم التناد •

إذا نفخ في الصور (١) ، ونقر في الناقور ، وأشرفت الأرض
ووعظ الواعظ ، فانتبذ القنط وأبصر الملاحظ ، فويك لمن صرف
عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم
الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد
النصير ، وظهر التقصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير *

وفي ناحية من السوق كان راوية يروى شعر قس :

ذكر القلب من جواه اذكار	وليال خالهن نهار
وسجال هواطل من غمام	ترن ماء وفي جواهن نار
ضوءها يطمس العيون وأرعا	د شداد في الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخ	ير وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات	وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح في ظلم الليب	ل نراها في كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الليب	ل وكل متابع موار
وصغير وأشمت وكبير	كلهم في الصعيد يوما مزار
وكبير مما يقصر عنه	حديثه خاطر الذي لا يحار
فالذي قد ذكرت دل على الا	ه نفوسا لها هدى واعتبار

وقام الشعراء في السوق يتفاخرون ليذهب صيتهم في الناس ،
وكان بدر بن معشر أحد بنى غفار بن مليك بن ضمرة بن بكر بن
عبد مناة بن كنانة ، وهو أبو أبي ذر الغفاري ، جعل له مجلس
بسوق عكاظ ، وكان حدثا منيعا في نفسه ، فقام في المجلس وقام
على رأسه قائم وأنشأ يقول :

(١) انظر التذييل .

نحن بنو مدركة بن خندف
من يقطعنوا في عينه لم تطعرف
ومن يكونوا قومه يغططرف (١)
كأنهم لجة بحر مسد (٢)

ومد رجله وقال :

— أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها •
فجاء الأحيمر بن مازن ، أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية
وضربها بسيفه ضربة يسيرة شجت الجلد قليلا وقال :
خذها اليك أيها المخندف
نحن بني دهمان ذو التغطرف
بحر لبحر زاخر لم ينزف
نبني على الأحياء بالمعرف

وشارت كنانة لبدر ، وشارت هوازن القبيلة التي استرضع فيها
محمد للأحيمر ، وكادت الحرب أن تنشب في الأشهر الحرم بين
الحيين ، وتحاور الرجال حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم
تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير ، وكان دم الغفاري هو أول دم
سالك في عكاظ في الشهر الحرام ، فكان ذلك أول يوم من أيام
الفيجار •

وانتهت أيام عكاظ فرحلت القبائل الى سوق مجنة ، وقد حسب
الشعراء أن شعريهم سيرفع ذكرهم على مر الأيام ، وظن زعماء

(١) يخنال في مشيته تكبرا •

(٢) مظلم •

القبائل أن المناوشات التي تدور بين أحياء العرب والتي عرفت بأيام العرب ستخلد أعمالهم ، وما دار بخلد أحدهم أن محمد بن عبد الله ذلك الفتى الذي يبدو هادئاً ساكناً ، والذي يسير الى جوار صديقه عتيق (أبى بكر) هو الذى سيكتب تاريخهم ويحفر أسماءهم على جبين الزمن بأحرف من نور •

دبت الحياة فى بيت أبى طالب ، وقامت فاطمة تجهز الطعام لزوجها وأبنائها وللفتى محمد الذى كان أول من غادر فراشه وذهب الى النافذة يرقب الأفق الشرقى فى الفجر ، لتبتهج نفسه بتأمل مولد النهار •

كان فى تطور روحى مستمر ، وكان الكون النابض بروح الله هو المنهل العذب الذى ترده روحه لتعجب منه فى نهم واشتياق • وانه يحس عطشاً الى المعرفة على الدوام ، فكانت الأواصر تشتد بينه وبين الوجود وروح الوجود على مر الأيام ، وكان البعد الذى بينه وبين الخير الأسمى يطوى مع الزمن ، فهو يسير فى طريق الحقيقة الخالدة ويدنو من الاثراق •

انه يرى أن غايته وراء هذه الطبيعة وفوق الكون : فهذا الوجود لا يمكن أن يكون مبدع نفسه ومنظم نفسه • والأصنام التي فى جوف الكعبة ومن حولها ان هى الا حجارة نحنتها يد البشر فكيف يسجد لها انسان ؟ ان الأمر ليس فيه التباس ولا اشتباه ولا غموض

ولا شك : بل يقين ما بعده يقين ، وتوازن وانسجام وتوافق مع مبدع الكون ومنظم الحياة ، مع الحقيقة الأزلية الأبدية ، مع الإرادة الخيرة المتعالية التي أصبح يحسها في أعماق وجوده : مع الله •

ووضع الطعام فخف إليه بنو أبي طالب ينتهبون • بينا ذهب أبو طالب إلى محمد يقدم إليه طعامه فقد اهتدى أبو طالب إلى أن محمدا إذا ما جلس مع أبناء عمه على طعام لا ينتهب كما ينتهبون ، ويمنعه حياؤه ورقته بل ورحمته من أن يمد يده إلى ما تمتد إليه أيد قلما تشبع من طعام ، فكان أبو طالب يفرد له طعاما وما كان محمد يأتي عليه على الرغم من قلته ، فامتلاء المعدة يهيض جناح روحه بينا كانت سعادته في أن تحلق روحه إلى ما فوق السموات ، لتقتبس نور الهداية من نور النور •

كان أبو طالب كثير العيال وكانت دكان العطارة لا تسد حاجات الأسرة التي يزيد عددها على مر السنين ، وكانت رفادة حجاج بيت الله وسقايتهم عبئا ثقيلا ينوء به الرجل الذي ورث ذلك الشرف عن أبيه ، وإن الأرباح التي جناها من رحلة الشام قد ذابت جميعها في موسم الحج بل لقد اقترض من أخيه العباس مبلغا ليس باليسير لينفق منه على اطعام فقراء الحجاج وسقايتهم ، فالرفادة والسقاية شرف يهون في سبيله كل مال •

بعث العباس بضاعته المتواضعة مع أخيه إلى الشام وقد حققت له أرباحا مكنته من أن يزيد في تجارته التي بعث بها إلى سوق عكاظ وسوق مجنة وذى مجاز • ولما لم يكن العباس رب أسرة كبيرة كأخيه أبي طالب فقد ربا له ماله واستطاع أن يقرض أخاه وإن كان على ثقة من أن أبا طالب لن يستطيع أن يرد ما اقترض فهو

يُطَمَح في أن تتَّوَل إليه السَّقَايَة والرَّفَادَة وان كان من أحدث أبناء عبد المطلب سنا ، فذلك الشرف يستأهل أن يترك لأخيه كل ما اقترضه وكل ما سيقترضه من الأموال ، فانها لأمنية عزيزة وشرف ما بعده شرف أن يتنازل له أخوه المعسر عن الرفادة والسقاية لقاء أن يتنازل له عن دينه +

وكان محمد يحس املاق أبى طالب فكان يرعى غنم أهله بقراريط وكان ينطلق الى الأسواق في المواسم مع أعمامه ليكسب قوته بجهده ، فما كان يرضى أن يكون عالة على أحد من أعمامه ، فكل ما ورثه عن أبيه جاريته الحبشية وبعض غنمات لا تغنى ولا تسمن من جوع •

كانت دور بنى هاشم متقاربة ، فدار الزبير عمه قريبة من دار أبى طالب ، وبيت عبد المطلب الكبير الذى ينزل فيه أعمامه حمزة والمقدّم وضرار ، ودار أبى لهب الى جوار دور بنى عبد المطلب ، ولم تكن دور عماته بعيدة عن الحى فدار صفية زوجة العوام بن خويلد ، ودار أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله ، ودار ابنتها أروى بنت كريز التى تزوجت عفان بن أبى العاص بن أمية وولدت له عثمان بن عفان ، ودار عاتكة وأروى وأميمة وبرة كلها دور تطل على الحرم ، وهو يستطيع أن يدور عليها لو شاء ليجد الترحيب به والمبالغة فى تكريمه ، ولكنه كان يؤثر أن يفر بنفسه من أسر أسرته لينطلق حرا طليقا فى الوجود الذى أصبح يستريح كلما ارتمى فى أحضانه ، وأضحى يشرح له صدره كلما أحس بتوافق بينه وبينه ، وأمسى يبتهج لما تهيم ذاته لتتصل بذات الذوات ، وبات يتהלأ

بالفبح لما يحس كأنما الحكمة تنسكب من فوق السموات فى صميم وجوده وعين ذاته وأعماق أعماقه •

كان فى بنى هاشم كثيرون فى مثل سنه ، وكان فى قريش فتيان ظرفاء ممن بحب من كان وحيدا مثله أن يألفهم ويألفونه ، ليفر من وحدته ويقضى على ألم الانطواء فى قوقعة ذاته ، ولكنه لم يكن يستريح لصحبتهم فهم يطلبون اللهو وما كان طالب لهو ، وهم يسجدون للأصنام دون تفكير لأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وهو تأبى عليه كرامته الانسانية أن يخسر ساجدا لحجر ، وهم يمضون النهار وطرفا من الليل فى اللغو وهو يمر باللغو مر الكرام ، وهم يرون فى آباءهم وأمهاتهم كل آمالهم وهو ينعطف إلى الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ويستشعر بكل وجوده أن روح الأرواح تحنو عليه وترعاه وتأتيه الحكمة وتعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنه مفعم بروح الله •

كان يحب بركة جاريته الحبشية وكان بناديبها بيا أمامه ، وكان لا ينسى أن ثويبة جارية عمه أبى لهب قد أرضعته فكان يعطف عليها ويترفق بها ، وكان كلما رآها تذكر حليلة السعدية واخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله الذين أول ما تفتحت عيناه تفتحت عليهم وخفق قلبه الكبير بحبهم ، وكان يحب عمه الزبير فهو لا ينسى ما قالت له بركة من أن عمه الزبير كان يرقصه وهو طفل ويقول :

مجمد بن عبد م عشت بعيش أنعم
فى دولة ومغنم دام سجييس^(١) الألم

(١) الأزم : الكريم من الابل ، والسجيس : بمعنى أبدا يريد دائم له العيش الكريم •

(اليتيم)

وكان عمه أبو طالب فى سويداء قلبه ، أما زوجة عمه فاطمة فلا يدري كيف يجازيها عن عطفها السابع الذى غمرته به مذ ماتت آمنة وعوضته بحنانها عن حنان الأم الراحلة •

وكان عمه حمزة رفيق طفولته وصباه ولداً معا وترعرا معا ، وكان ألهمها مشتركا لما مات عبد المطلب ، فقد ذاق حمزة مرارة أوله يتم ، أما هو فقد تجرع فى صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فإتمه بعد عبد المطلب كان أقسى من يتمه بعد آمنة ، وقد جمع اليتيم بين قلبيهما ؛ انه يحب حمزة حب الشقيق للشقيق بل حب النفس لذاتها •

وكان عمه حبل يغدق عليه من ماله وعطفه كلما رآه ، فقد اشتهر حبل بكرمه حتى سمي الغيداق لاغداقه على قومه ، وهو يحب عمه وعماته وكل من اتصل بهم من قرشيين ومكيين وعبيد وأماء ، ولكن حبه للذات العلية التى صار يستشعرها فى صميم وجدانه يفوق كل حب أحس به لأهل الأرض •

انه لو شاء أن يحيا حياة ناعمة راضية لوجد ذلك ميسورا ، فتيان قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وتيمييين وأسديين يمضون نهارهم يتسكعون فى الحرم يتمسحون بالأصنام ويطوفون بالكعبة ، ويدخلون الى حيث كان هبل يرقبون الذين يستقسمون بالأزلام ، أو يسارعون الى جفان الكرام الذين ينفقون الأموال ليذهب هيتهم فى القبائل ، أو يهرعون الى حلقات المناقشات الدينية التى كانت تدور بين هواة التسكع الذهنى من حنفاء ومجوس ووثنيين ويهود ونصارى ، فاذا ما جن الليل انسلوا الى السمار يمتعون العيون برقص الاماء ، ويشنفون الآذان بغناء القيان وشعر الشعراء •

كان عمه أبو طالب شاعرا من فحول شعراء قريش ، وكان عمه الزبير شاعرا مفلقا شديد العارضة قذع الهجاء ، وكانت دار أبي طالب موئل الشعراء في الليل ، فلو شاء أن يسمر فما أيسر أن يسمر في نادي قومه ، ولو شاء أن يلهو لذهب مع أبي لهب وأبي سفيان ، ولكنه لم يخلق للسمر أو اللهو أو العبث بل خلق ليكون نورا يقتبس نوره من نور النور ليثبته على العالمين .

وغادر محمد دار أبي طالب وانحدر الى الحرم ، فاذا بسادات قريش قد أتوا بأبنائهم ليطوفوا بالبيت ثم ينطلق من ينطلق الى دار الندوة ، ويذهب من يذهب الى الأسواق ، ويجلس من شاء أن يجلس في ظل الكعبة يبرم العقود ويوثق المواثيق ويعقد الصفقات التجارية .

كان أبو بكر في رفقة أبيه أبي قحافة ، وكان خالد في رفقة الوليد بن المغيرة ، وعثمان مع أبيه عفان بن أبي العاص ، وعمر مع العاص بن وائل ، وصبيان قريش وفتيانها مع الآباء أو العبيد أو الأصدقاء ، وما طمع أحدهم في أكثر من حياة مترعة بالمتعة ، وما خطر لهم على قلب أن يتجاوز صيتهم حدود مكة ، وكانت أقصى آمانيهم أن يأتى ذلك اليوم الذي يستقبلهم فيه البلاط الفارسي أو البلاط الروماني في القسطنطينية أو قصر الخورنق بالحيرة ، ولم يطف بأذهانهم أن أسماءهم ستخلد في تاريخ البشرية بفضل ابن عبد الله الذي يسير في الحرم هونا متواضعا لتلك القوة العلية التي صار يوقرها كل التوقير ، فقد كان ذلك بعيدا عن كل تصور ، وما كانت تتطال اليه الأحلام .

كان الناس يطوفون بأول بيت وضع للناس ولكنهم لم يكونوا

على ملة واحدة ولا على قلب رجل واحد ، فمنهم من أنكروا الخالق والبعث وقالوا : ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق وأنكروا البعث ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الالاعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا اليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، ومنهم من يعتقدون التناسخ فيقولون اذا مات الانسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانصب طيرا « هامة » فيرجع الى رأس القبر كل مائة سنة • ومنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ، ومنهم من كان يعبد النار ويحسب أنه على دين زرادشت ، ومنهم من اعتنق اليهودية ، ومنهم من كان على دين النصرانية ، وقد قالت امرأة تنهى ابنها عن الظلم في الحرم :

أبْنَى لَا تَظْلِمَ بِمَكَّةَ لَا الصَّغِيرَ وَلَا الْكَبِيرَ
أَبْنَى ، مَنْ يَظْلِمُ بِمَكَّةَ يَلْقَ أَطْرَافَ الشَّرُورِ
أَبْنَى قَدْ جَرَبْتُهَا فَوَجَدْتُ ظَالِمًا يَبُورُ
أَبْنَى ! أَسْمَنَ طَيْرَهَا وَالْوَحْشَ يَأْمَنُ فِي ثَبِيرِ

وما دروا أنهم أنفسهم يظلمون •

وطاف محمد بالبيت وان كانت في نفسه كراهية للأصنام التي حولها ، وما أتم طوافه حتى غادر المسجد الى أعالي مكة ، الى الصحراء المتراصة ، حيث الحرية الرائدة والحياة الروحية الحقة التي تنتصر فيها الروح على الجسد ، وتندمج في الخير الأسمى ، في القوة الالهية نفسها •

انه يتعاطف مع الوجود والوجود ، وينجذب الى الكون ورب الكون ، ويحب العالمين ورب العالمين ، مفضلا العزلة على الاندماج فى مجتمعه ، لا لأن الجحيم هو الغير ولا لينفصل انفصالا مطلقا عن دنيا الناس طلبا للسلامة وراحة البال ، بل ليستمد من الحق أفكارا جديدة وعواطف خيرة ومعتقدات سليمة ومبادئ رئيسية تخرج الناس من الظلمات الى النور ، وترتفع بالبشرية الى ذروة العزة والكرامة والانسانية .

انه يفر من المجتمع لخير المجتمع ، وانه وان ذهب الى البيداء ليتأمل ويفكر ويتدبر بعيدا عن الجماعة فهو فى قلب الجماعة ، فما لاذ بالقوة العلية ملتصقا بالخير لنفسه وحده ، بل طلبا للحكمة التى سيسبغها على قومه وعلى العالم أجمع ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كان الاخلاص فى النية يملأ قلبه ، والتجرد من الغرض الدنيوى سمته ، لا يرغب الا فى الخير ولا يطمح الا اليه ، فسمت روحه وارتفعت واتصلت بروح الوجود ، فلم يعد الله عالما غامضا بل حقيقة حياة تعيش فى ضميره ويراهها ببصيرته ، وتدنو منه وتغمره بالبركات كلما خر ساجدا وباكيا .

اجتمع الناس يتسامرون فى الدور وحول الحرم ينشدون الشعر ويروون ما وصل اليهم من كتاب كليله ودمنة ، أو يحاكون قصصه ويتسلون بالأحاجى ، أو يقصون قصص ملوك فارس وما جرى بين شعرائهم وساداتهم وبين النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ومن ذهب الى قصور ملوك الغساسنة كان يروى ما بهره فى تلك القصور من قيان وغناء وخمور وحضارة تضاهى حضارة الروم ، أما الذين لم يسعدهم الحظ بالسياحة فى الأرض فقد كانوا يقصون قصصا تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل والتى عرفت بأيام العرب •

كانت حلقة من السمار تصغى الى قصص الحيوانات والأحاجى ، قال قائل :

— ذهبت النعامه تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين ، وذهب الغراب يتعلم مشية القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل ، وأن الضفدع كان بلا ذنب لأن الضب سلبه اياه •

وقال آخر :

— ان الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبيرا فجعلها على رأسه يطلب موضعا فبقيت فى رأسه ، فالتفتت فى رأسه هى قبرها وانما أنتنت ريحها لذلك •

— الهَدِيل فرخ كان على عهد نوح فصاده جارج ، فما من حمامة الا وهى تبكيه •

— ان امرأ القيس آلى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر ، فبينما هو يسير فاذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمّته ، فأعجبته فقال لها : يا جارية ! ما ثمانية وأربعة واثنان ؟ فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلية ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنان فتدنيا المرأة • فخطبها من أبيها • وراح رجل فى حلقة أخرى يروى ما جرى فى حرب البسوس قال :

— كان كليب بن ربيعة سيدا على معد ، وقد اجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قَسَمَ الْمَلِك وتاجه وتحيته وطاعته بعد أن قضى على جموع اليمن وهزمهم ، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وأنقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماء ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا تورد ابل واحد مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قال العرب : أعز عن كليب وائل •

وكان بنو جثشم وبنو شيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جسّاس بن مرة •

وكانت البسوس بنت منفذ التميمية خالة جسّاس بن مرة ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجسّاس ، وكانت لها ناقة

يقال لها سراب . فمرت ابل لكليب بسراب ناقة البسوس وهى
مَعْقولة بفناء بيتها فى جوار جساس بن مرة . فلما رأت سراب
الابل نازعت عِقْالها حتى قطعته وتبعت الابل واختلطت بها حتى
انتهت الى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها
أنكرها فانترع لها سهما فخرم ضلعها ، فنفرت الناقة وهى ترغو .
فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت :
— واذلاه ! واجاراه !

وخرجت فأحُمشت جساسا فركب فرسا له عريانة ، وأخذ آلتته
وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ومعه رمحه ،
حتى دخلا على كليب الحمى فقال له :

— يا أبا الماجدة ! عمدت الى ناقة جارتي فمقرنتها .

— أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟

فأحسسه الغضب فطعنه جساس فقصم صُلْبُه ، وطعنه عمرو
ابن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله .
وقال لجساس :

— أغثنى بشرية من ماء .

— هيهات تجاوزت شبيثا والأحص (١) .

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له
النَّهْي . وتشمر المهلهل أخو كليب وهو عدى بن ربيعة ، وانما قيل
له المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر (أرقه) ، واستعد لحرب بكر .
وترك النساء والغزل وحرم القمار والشراب وجمع اليه قومه

(١) غديران بمنازل ربيعة ينجد . أى ليس هذا الوقت لجلب الماء .

فأرسل رجالا منهم الى بنى شيبان يعذر اليهم فيما وقع من الأمر •
فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو فى نادى قومه فقالوا له :
— انكم أتيتكم عظيما بقتلكم كلييا بناب من الابل ، فقطعتم
الرحم وانتهكتم الحرمه ، وأنا كرهنا العجلة عليكم دون الاعذار
اليكم ، ونحن نعرض عليهم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا مقنع •
فقال مرة :

— وما هى ؟

— تحيى لنا كلييا أو تدفع الينا جساسا قاتله فنقتله به ، أو هماما
فانه كفاء له ، أو تمكنا من نفسك فان فيك وفاء من دمه •
— أما احيائى كلييا فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فانه غلام
طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوى
عليه ، وأما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم
فرسان قومه ، فلن يسلموه لى فأدفعه اليكم يقتل بجريرة غيره ،
وأما أنا فهل هى الا أن تجول الخيل جولة غدا فأكون أول قتيل
بينها ، فما أتعجل من الموت ؟

ولكن لكم عندى خصلتان : أما أحدهما ، فهو لاء بنى الباقون
فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسسه فانطلقوا به الى رحالكم فاذبحوه
ذبح الجذور ، والا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلا من
بنى وائل •

فغضب القوم وقالوا :

— لقد أسأت ، ترذل (١) لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم

كليب •

(١) ترذل : أى تعطينا الرذل من ولدك

• ووقعت الحرب بينهم •

ولحقت جلييلة زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب فانضمت الى بنى كليب وساروا يداً معهم على بكر ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا متجامة بنى ثيبان ومساعدتهم على قتال اخوتهم ، وأعظموا قتل جساسي كلييا رئيسهم بناب من الابل •

فطعننت لثجيم عنهم وكفت يشكر عن نصرتهم وأنقبض الحارث بن عباد في أهل بيته وهو أبو بحير وفارس النعمة • وقال المهلهل يرثى كلييا :

بت ليلي ، بالأنعمين (١) طويلا
أرقب النجم ساهرا أن يزولا
كيف أهدأ ، ولا يزال قتيل
من بنى وائل ينسئ قتيل
غيت دارنا تهامة في الدهر
وفيهنا بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا ، أمّرت عليهم
بينهم يقتل العزيز الذليلا
فصبحنا بنى لثجيم بضرب
يترك الهام وقعته مقلولا
لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا
وأخو الحرب من أطاق النزولا
انتضوا معنّس القسي وأبرقا

(٢) الأنعمان : واديان .

نا كما تَوعد الفحول الفحولاً
 قتلوا ربهم كليياً سفاها
 ثم قالوا : ما أن نخاف عويلاً
 كذبوا ، والحرام والحيل ، حتى
 تسلب الخدر بيضه المحجولاً (١)
 ويموت الجنين فى عاطف الرحم
 ونروى رماحنا والخيولاً

وراح الرجل يقص ما كان بين بكر وتغلب ابنى وائل من
 قتال ، ويروى أحداث يوم النّهى ويوم الذّنائب ويوم وأردات
 ويوم عنيزة ويوم قضة ، يوم أسرف مهلهل فى القتل ولم يبال
 بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع ، وكان أكثر بكر قعدت عن نصره بنى
 شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، فكان الحارث بن عباد قد اعتزل
 تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير بن الحارث ، فلما بلغ الحارث
 قتله قال :

— نعم القتل ، أصلح بين ابنى وائل •

وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفواً له ، فقيل له :

— انما قتله بشسع نعل كليب •

وراحوا يروون له أن المهلهل لما قتل بجيرا قال : بؤ بشسع نعل
 كليب • فغضب الحارث بن عباد وكانت له فرس يقال لها النعامة ،
 فركبها وتولى أمر بكر ، فقتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت
 قبائل تغلب ، فقال فى ذلك الحارث بن عباد :

قرباً مربط النعامة منى

لقت حرب وائل عن حيالى (١)

لم أكن من جناتها ، علم الله ،
 وأتى بحرهما اليوم صالى
 وأسّر الحارث بن عباد المهمل (عدى بن ربيعة) وهو لا يعرفه ،
 فقال له :

- دلنى على عدى بن ربيعة وأخلى عنك •
- عليك العهد بذلك ان دللتك عليه ؟
- نعم •
- فأنا عدى •

فجز ناصيته وتركه وقال فيه :

لهف نفسى على عدى ولم أعرف
 عديا ، اذ أمكنتنى اليدان

وفى حلقة من حلقات السمر فى دار سيد من سادات قريش
 الذين عادوا من فارس ، راح السيد يروى آخر أنباء الفرس ،
 قال :

— مات كسرى أنو شروان وتولى الملك من بعده هرمزد وهو
 يحاول أن يشتهر بالعدل كما اشتهر أنو شروان ، ولكن هيهات !
 ان أنو شروان قد وضع على باب قصره سلسلة تنتهى بجرس عند
 الملك ليتمكن لذوى المظالم ابلاغ الملك ظلاماتهم ، وقد ظلت السلسلة
 سبع سنوات ونصف سنة لم يمسه انسان • ثم دق الجرس فظهر
 أن حمارا أجرب قد تحكك بالسلسلة ، فأمر الملك بالبحث عن صاحب
 الحمار وأرغم على العناية بحماره •

— ان أمر أكاسرة الفرس عجيب ، فما من أجد يعرف أين
 ينامون خشية الاعتداء عليهم ، فانه يفرش للملك منهم أربعون

فراشا فى أربعين موضعا ليس منها فراش ألا ومن رآه من بعيد على الانفراد لا يشك أنه فراش الملك خاصة وأنه نائم فيه ، ولعله لا يكون على واحد منها بل لعله ينام على مجلس رقيق وربما توسد ذراعه ونام .

وليس لأحد الحق فى أن يدخل غرفة الملك الخاصة ، حتى ابن الملك عليه أن يستأذن قبل أن يدخل . وقد حدث ذات يوم أن رأى يزدجر ابنه بهرام وكان فى الثالثة عشرة بموضع لم يكن له فقال :

— مررت بالحاجب ؟

— نعم .

— وعلم بدخولك ؟

— نعم .

— فاخرج اليه واضربه ثلاثين سوطا ونحه عن الستر ووكه بالحجابة آزاد مرد .

ففعل ذلك بهرام ، فلما جاء بهرام بعد ذلك ليـدخل دفعه آزاد مرد فى صدره دفعة أوجعته كثيراً وقال :

— ان رأيـتك بهذا الموضع ثانية ضربتك ستين سوطا ، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس وثلاثين لثلاث تطمع فى الجناية على .

فبلغ ذلك يزدجر فدعا آزاد مرد فخلع عليه وأحسن اليه . وفى حلقة من حلقات الشعراء راح كل منهم يتحدث عن الشيطان الذى يلقي اليه الشعر ، قال قائل :

انى وان كنت صغير السن فان فى العين نبوءاً عني
فان شيطانى أَمِير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن
وقال آخر :

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر
وقال رجل لا ينظم الشعر :
— أحقا ما يقال : ان الشعراء كلاب الجن ؟
— ومن قال ذلك ؟

— عمرو بن كلثوم فى معلقته ، انه يقول :
وأنزلنا البيوت بذى طلوح الى الشامات تنفى الموعدينا
وقد هرت كلاب الجن منا وثذبنا قتادة من يلينا
وراح الأعشى قيس بن ثعلبة يروى عن نفسه قال :

— خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فضلت فى
أوائل أرض اليمن لأنى لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل ، فأصابنى
مطر فرميت ببصرى أطلب مكانا ألجا إليه ، فوقعت عيني على
خباء من شعر فقصدته ، واذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت
عليه فردّ على السلام ، وأدخل ناقتى خباء آخر كان بجانب البيت
فحططت رحلى وجلست فقال :

— من أنت ؟ وأين تقصد ؟

— أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب •

— حياك الاله ، أظنك امتدحته بشعر •

— نعم •

— فأشدنيه •

فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال :

— هسبك • أهذه القصيدة لك ؟

— نعم •

— من سمية التى تنسب بها ؟

— لا أعرفها ، انما هو اسم ألقى فى روعى •

فنادى :

— يا سمية اخرجى •

واذا جارية خماسية قد خرجت فوقفت وقالت :

— ماذا تريد يا أبت ؟

— أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب

ونسبت بك فى أولها •

فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها

حرفا ، فلما أتمتها قال :

— انصرفى •

ثم قال :

— هن قلت غير ذلك ؟

— نعم ، كان بينى وبين ابن عم لى يقال يزيد بن مسهر يكنى

أبا ثابت ما يكون بين بنى العم فهجائى وهجوته فأفحمته ، قال :

— ماذا قلت فيه ؟

قلت :

ودع هريرة أن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال :

— حسبك • من هريرة هذه التى نسبت بها ؟

— لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها •

فننادى :

— يا هريرة •

فاذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت ، فقال :

— أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها أبا ثابت يزيد بن

مسهر •

فأنشدتها من أولها الى آخرها لم تخرم منها حرفا ، فسقط

فى يدي وتحيرت وتغشيتنى رعدة ، فلما رأى ما نزل بى قال :

— ليفرخ روعك يا أبا بصير ، أنا هاجسك مسحل بن أثاثه الذى

ألقى على لسانك الشعر •

وفى حلقة أخرى من حلقات السمر راح الشباب يتحدثون

أحاديث الهوى وينشدون أشعار الغزل ، ويروون كيف شق المحب

برقع حبيبته وكيف شقت الحبيبة رداء الحبيب ليصلح جبهما

ويدوم ، وقال قائل منهم :

وكم قد شققنا من رداء محبر

ومن برقع عن طفلة غير عانس

إذا شق برد شق بالبرد برقع

دواليك حتى كلنا غير لابس

نروم بهذا الفعل بثقيا على الهوى

والف الهوى يغرى بهذى الوسواس

كان الشعر هو محور السمر فى مكة ، وكانت الخمر تدور على

السمار ، وكانت القيان يغنين شعر الفحول بما فيه من تهتك ومجون ،

وكان شباب مكة فى أحضان البغايا أو يلعبون الميسر ، وكان أطهر سمر أن يقرأ المتعبدون من الشيوخ فى صحيفة لقمان حكمه ووصاياه لابنه ، أو يعكف الذبن تنصروا على النظر فى التوراة والانجيل •

ولم يؤم محمد نواذى قومه ولم يلق سمعه الى أساطير الشعوب وقصص الأيام وشعر المجنّان وخلاعة الشبان المترفين الغارقين فى اللهو حتى الآذان ، فما خلق الا ليتمم مكارم الأخلاق ، فحببت اليه العزلة ، فكان هناك فى بيداء مكة يعمل على تنقية وجدانه بمحاولة الاتصال بالله بتخلية القلب من كل من عداه وما عداه ، يستلهم من معارفه ويستنضىء بأنواره وترفعه تأملاته العميقة الى ما فوق السموات ليتحقق له الكمال الخلقى الباطنى الذى ينشده •

انه فى كفاح مستمر متجدد مع نفسه ، وانه يحس أنه على مر الأيام يزداد دنواً من الذات العلية ، فحبه لله قد صار وجداً ، والتفكير فيه قد أصبح مراقبة • وقد أضاعت مصابيح أفكاره بفيض نوره ، وانتشرت شى جوانبه أشعة من الحقيقة الأزلية ، وتغلغلت فى أغوار ذاته لتتخذ أعماقا رصينة وأغواراً بعيدة تعدد لما هو ميسر له •

لم يعد يرفع صوته بابتهاالاته ولا بصلواته فقد اهتدى الى أن الخير الأسمى يعلم ما فى نفسه وما تخفى الصدور ، وأنه يتولاه برعايته لينمى فيه القيم الأخلاقية ليلبغ غايته ، ولن يصل الى نبع المعرفة قبل أن يوحى اليه فالوحي تاج المعرفة ، وانه طريق شاق ، كله جهاد وكفاح وأن أشق الجهاد جهاد النفس •

(اليتيم)

— ١٩٤ —

— ٢١ —

شرد أبو طالب يفكر وقد لاح الهم فى وجهه ، فموسم الحج جاء وليس عنده من المال ما ينفقه على اطعام فقراء الحجاج وسنائيتهم ، انه اقترض من أخيه العباس ما أنفقه فى السقاية والرفادة فى العام الفائت ، وان عليه أن يسدد دينه فى هذا العام وأن يحصل على مال وفير ينفقه على ضيفان بيت الله ، وأن تجارته تقصر عن سد الدين واطعام الناس فى الموسم •

كان عند المطلب بيت الزبيب فى مياه زمزم التى توضع فى أحواض من آدم هنا وهناك ، وكان ينحر الجزور للناس ويتركها للطير فى رؤوس الجبال حتى لقبوه بالفياض ، وان أبا طالب يسير على سنة أبيه ليحافظ على الشرف الذى آل اليه ، ولكن أبا طالب كثير العيال وبيته مفتوح للقرشيين جميعا ولعابري السبيل ، ويده مبسوفة لا يرد سائلا ولا محتاجا ، فذاب كل ما جنى من أرباح رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ولم يبق عنده الا بعض أنواع الطيب التى سيخرج بها الى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهو على ثقة من أن ثمنها لن يكفى حاجة فقراء الحجيج ، وان علك النفس بالتريث الى أن تنتهى أيام الأسواق فمن يدري فقد يأتى اليسر بعد العسر والفرج بعد الضيق •

كان أغنياء قريش يخرجون عن بعض مالهم لأبى طالب لينفق منه على اطعام الناس فى الموسم ، وكان أبو طالب يحمل العباء

الأكبر فهو صاحب شرف السقاية والرفادة ، فراح يمنى نفسه بأن
يجود الأجواد فى هذه السنة بمال أكثر مما جادوا به فى السنين
الماضية يربأ الصدع ويسد العجز ويحول بينه وبين الاقتراض ،
ويمر هذا الموسم بسلام •

وجاء ما جاد به الأجواد الى الحظائر والمخازن ، وراح أبو طالب
يحصى فى لهفة ما شارك به أثرياء قومه فى رعاية ضيف الله فاذا
به نفس ما اشتركوا به فى العام الفائت بلا زيادة ولا نقصان ،
فغام وجهه بسحابة من الكدر ، وفطن الى أنه أعجز من أن ينهض
بذلك الشرف شرف السقاية والرفادة الذى انحدر اليه من هاشم
العظيم وعبد المطلب مطعم الطير فى رعوس الجبال •

وهم بأن يذهب الى أخيه العباس يقترض منه ما يحتاج اليه
من مال ولكنه أثر أن يتريث حتى يعود من الأسواق انتظاراً لما
نأتى به الأيام فمن يدري فقد يكسب غداً ما يغنيه عن الاقتراض •

وكانت سوق عكاظ تقوم صبح هلال ذى القعدة وتستمر
عشرين يوماً ، فخرجت قوافل قريش تحمل تجارتها من طيب وبخور
وحرير وأسلحة وتوابل وحبوب وزيت جلبت من اليمن والحبشة
والشام ومصر وفارس وبلاد الروم ، يموج فيها ساداتها وعبيدها
واماؤها من عرب وأحباش وروم وفرس اتأخذ مكانها فى السوق
التي ذاع صيتها ، حتى صار النعمان بن المنذر ملك الحيرة يبعث
بها لطيمة (جمالاً تحمل التجارة) فى جوار رجل شريف من أشراف
العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها من آدم
الطائف ما يحتاج اليه •

وانسابت قوافل مكة ثلاث ليال فى طريق اليمن فى ظلام

دامس ، حتى لاحت صفور المرمر البيضاء فصاح الناس فى ابتهاج .

— العيالات •

واشتدت الابل حتى اذا ما بلغت السهل العريض أناخت به ، وخف الرجال والنساء والولدان من سادة وعبيد الى مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ثم راحوا يطوفون بها ويذبحون عندها ، فهى صنم ذى الخلصة وكانت تتعبد له خثعم ودوس وبجيلة •

وراح الذين لا يؤمنون باله ولا بعث ولا حساب يسفرون من الطائفين بالصنم ويتندرون بما كان بينه وبين امرىء القيس ، فان امرأ القيس بن حجر حين وترته بنو أسد بقتل أبيه استقسم عند ذى الخلصة بثلاثة أزلام وهى الزاجر والآمر والمريض ، فخرج له الزاجر ينهائى عن الثأر لأبيه فسب الصنم ورماء بالحجر وقال له :
— اعضض ببظر أمك •

ومنذ ذلك الوقت لم يستقسم عنده بالأزلام وان كان الناس يطوفون به ويتمسحون •

وراحت القوافل تزد من كل حدب ، وضربت خيام حكام القبائل ، ونصبت خيمة النابغة الذبياني اتكون قبلة الشعراء ، وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا سوق عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب •

ومن كان له أسير سعى فى فداائه ، ومن كانت له حكومة ، ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة ، وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس •

وكانت قبيلة كلب قد أصابت رجلاً من بجيلة يقال له مالك بن عتبة ، فوافوا عكاظ ، فمر مالك بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل يأكل تمرأ ، فتناول من ذلك التمر شيئاً ليتحرم به ، فجذبه الكلبى فقال له القاسم :

— انه رجل من عشيرتى *

فرماه الكلبى بنظرة احتقار وقال :

— لو كانت له عشيرة منعته *

فانطلق القاسم الى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستنجدهم فقالوا :

— نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها *

فانطلق الى آخرين فاستنجدهم فقالوا :

— كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدي العرب أردنا أن

نتبعها !

وراح يفكر فى رجل ينجده فالتمعت الفكرة فى رأسه ، فانطلق يبعذ السير الى قسر ، حتى اذا ما لاحت له القباب الحمر ذهب اليها والتمس أن يقابل جرير بن عبد الله البجلي سيد بنى مالك ابن سعد بن زيد بن قسر ، فلما قابله قصص عليه قصته ، وما أنتهى منها حتى دعا جرير قومه الى النهوض معه لانتزاع مالك من كلب فتبعوه *

خرج جرير فى ثياب مصبغة لم ير العرب مثلاً من قبل ، ورجاله معه حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانترع منهم مالك بن عتبة ، وقامت كلب دونه فقال جرير :

— زعمتم أن قومه لا يمنعونه *

— ١٩٨ —

فقال كلب :

— ان رجالنا خلوف •

فقال جرير :

— لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئًا •

فقالوا :

— كأنك تستطيل على قضاة • ان شئت قاييسناكم المجد •

فقال جرير :

— ميعادنا من قابل سوق عكاظ •

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل ، وصاحب
أمر كلب خالد بن أرطاة • وانطلقوا الى حيث كان الأقرع بن
حابس ، وارتضى الحيان أن يكون حكما بينهما •

وجاء أشراف قريش ليشهدوا المناظرة بين كلب وبجيلة ، وقام
خالد بن أرطاة فقال لجرير :

— ما تجعل ؟

— الخطر في يدك •

— ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء •

فقال جرير يزيد الرهان :

— ألف قبينة عذراء في ألف قبينة عذراء ، وان شئت فألف أوقية
صفراء لألف أوقية صفراء •

كان النساء لا وزن لهن ، يرثن الوريث ويلعب عليهن الرجال
الميسر ، أو تقاد ألف منهن في مفاخرة وما تساوى احداهن من أوقية
من الذهب ، وقال خالد :

— من لى بالوفاء ؟

فقال جرير :

— كفيلك الملات والعزى واساف ونائلة ويعوق وذو الخلفة
ونسر ، فمن عليك بالوفاء ؟

— ود ومناة وفلس ورضا *

قال جرير :

— لك بالوفاء سبعون غلاما مشعمًا مخزولا يوضعون على
أيدي الأكفاء من أهل الله *

ووضعوا الرهون على أيدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس
وأشراف قريش أهل بيت الله *

وبدأت المغفرة لما قال الأقرع بن حابس لخالد :

— ما عندك يا خالد ؟

وراح خالد يجمع شتات فكره ليذكر أفضل خصال قومه ، ثم
قال :

— نزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح *

فالتفت الأقرع وقال :

— ما عندك يا جرير ؟

قال :

— نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر ، نخيف

ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حي لثقاح ، نطعم ما هبت

الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ، ونحن الملوك القسر *

ووقف الأقرع ليعلن حكمه فحبست الأنفاس وأرهفت الآذان ،

وتعلقت العيون بشفتيه فما سينطق به سيحمله الركبان الى كل

مكان ، ترى لمن يحكم ؟

وقال الأقرع فى صوت رن فى سوق عكاظ كرنين الذهب فى
آذان بجيلة ، وكنعيب اليوم فى آذان كلب :
— والمالات والعزى ، لو فاخرت يا جرير قيصر ملك الروم ،
وكسرى عظيم فارس ، والنعمان ملك العرب ، لنصرتك عليهم *
وضجت السوق بصيحات فرح وصيحات انكار ، وجاء رجل
من بجيلة بفرس الى جرير فركبه من فرط فرحه من الجانب الأيسر ،
فقال الشبانئون :

— لم يحسن أن يركب الفرس *
فقال جرير :

— الخيل ميامن ، وانا لا نركب الا من وجوها *
وذهب الشعراء الى خيمة النابغة ، وراح كل شاعر يلقي عليه
ما عنده وهو يزعم أنه أشعر العرب ، ثم قام الشعراء ينشدون
أشعارهم فى السوق فتعطل البيع والشراء ، وأقبل الناس من كل
جانب يتزاحمون بالناكب ، فقد كان الشعر أشجى عندهم من شدة
المغنين وغناء القيان *

وانفض سامر الشعراء فراح الرواة يترنمون بما سمعوا كأنما
قد حفرت القصائد فى ذاكرتهم ، ليذيعوه فى القبائل وليكون مادة
السمر فى نواديهم يملئون به فراغ الليالى ويسدون به جوع
الأرواح *

وانتشر الشباب يلهو ويمرح ويشتد فى اللهو أحيانا حتى
يقسو على الناس ويجرح كرامتهم ويسىء الى مشاعرهم ، وتنتطق
الضحكات مجالطة عقب كل اساءة كأنما لم يخلق الناس الا ليكونوا
هزيفا للسخرية والأذى ووسيلة من وسائل الاضحاك *

وجاء فتية من قريش ورأوا امرأة من بنى عامر بن صعصعة
وضيئة جميلة وعليها برقع ، وهى فى درع عليه تهاويل تجذب
الأبصار فطافوا بها ثم قالوا :

— أسفرى عن وجهك •

فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر درعها بشوكة
فضحكوا وقالوا :

— منعنا النظر الى وجهها ، فقد رأينا دبرها •

فنادت المرأة فى فزع وغضب :

— يا عامر !

وخف اليها بنو عامر بن صعصعة ، وما ان عرفوا ما حل بالعامرية
حتى استولوا سيوفهم ، وجاء القرشيون ينصرون شبابهم ظالمين ،
وتحاور الناس ، ثم نشب بينهم قتال سالت فيه دماء يسييرة •
وقبل أن تشتعل نار الحرب بين الحيين جاء حرب بن أمية زعيم
قريش وأعلن أنه يحمل ما سال من دماء ويعوض عنها ، وأصلح
بينهم وبذلك أنتهى الفجار الثانى •

وانقضت أيام عكاظ ، وحمل الناس ما بقى معهم من سلع
وانطلقوا الى سوق ذى المجنة للتجارة قبل أن يذهبوا الى سوق
ذى المجاز ، فموسم الحج الأعظم • وسار أبو طالب على راحلته
شارد اللب يفكر فى أمره فقد نفدت بضاعته ولم تأت بالأرباح
التي كان يرجوها ليسدد دينه وينفق منها على ضيف الله • فلم يبق
أمامه الا أن يأتى أخاه العباس يقترض منه ويعده أن يسدد دين
السنة الماضية وهذه السنة فى العام القابل •

ومشى أبو طالب الى أخيه العباس وطلب منه أن يقرضه قرضاً

ينفق منه على حجاج بيت الله ، فقال له العباس انه لم يسدد قرض العام الفائت ، فوعد أبو طالب أن يسدد القرضين في العام القابل ، فقال العباس لأخيه وهو يقرضه ما طلب :
— ان عجزت عن تسديد القرضين آخذ بدينى الرفاة والسقاية ♦

وقبل أبو طالب ذلك الشرط وهو يرجو أن تتحسن أحواله المالية ويسدد ما عليه ، حتى لا يخرج من يده ذلك الشرف الذى ورثه عن أبيه دون بنى عبد المطلب جميعا ♦

وانقضت أيام الأسواق ، وخلف الناس دنياهم وراء ظهورهم وراحوا يتدفقون الى الحرم يطوفون بالبيت ويذبحون بين اساف ونائلة ويسعون بين الصفا والمروة ، ثم يذهبون الى عرفة جميعا فى يوم واحد ويقفون المواقف ، وسرعان ما يعودون الى اللعب واللهو والانغماس فى شهوات الدنيا ♦

كانت أيام التعبد أياما معدودات وكثيراً ما كان العبث يتخللها ، وما كان أحد فى العرب يحتمل أن تكون حياته كلها لله وفى الله الا فتى واحد هو محمد بن عبد الله ، فهو يتعالى عن أهوائه وأغراضه الخاصة ويعكف على التأمل حتى لكانه يشعر برنين الوجود يجلجل فى وجدانه ، أنه يسير من خلال الليل المظلم الجاثم على الأرض الى الله ، ويعرج على أنوار النهار الى ما فوق السموات ، فمساؤه مع اليقين نهار ، ونهاره سعادة وأنس وانسراح ♦

انه كله فى يد الله ، قد خرج من حوله الى حول الله ، وغايته هى ذات الله ، ومحراب قلبه هو الله ، لا يتحول عنه لا فى زمان ولا الى مكان ، فأحيا الله بمعرفته فؤاده ، وظهر بمراقبته أسرار ،

— ٢٠٣ —

وانه سائر فى طريق الرقى ، وانه ليطرب ويسعد لما يستشعر من
نماء •

انه يراقب نفسه ويدعو قلبه الى أن يتنبه الى النعم التى
حباه الله بها على الدوام • وان مراقبة النفس هى الأساس الذى
سيقوم عليه كل البناء الشامخ الذى سيربط الأرض بالسما • وان
الاخلاص المطلق هو السبيل الذى سيقود الى الرحاب الأسمى ،
الى لب الحقيقة • وان ما يفعم به قلبه من رضى وشكر ، وما يقترب
به من حياة ، وما يتحلى به من ايثار ، وما ينصف به من صدق ،
وما يتزكى به من مكارم الأخلاق ، سيفتح له أبواب السموات
ليكون خزانة أسرار الله وعلمه ، ورسول رب العالمين •

— ٢٢ —

كانت يثرب تموج بالمعداوات ، فما كان يمر عام دون أن ينشب
قتال بين الأوس والخزرج ، أو بين أحد الحيين العربيين وبين
يهود بنى النضير أو بنى قينقاع أو اليهود النازلين بخيبر أو ثيماء •
وفى أيام السلم كان شعراء كل طرف من أطراف النزاع يؤججون
نار البغضاء بقصائد الفخر أو الهجو ، وكان ظهور شاعر فى إحدى
القبائل يعتبر من الأحداث الهامة التى تحتفل بها القبيلة ، وقد
احتفل الخزرج احتفالا رائعا اشتركت فيه القيان بالضرب على
المزاهر والرقص والغناء يوم أن برز فيهم حسان بن ثابت •

شب حسان بين سادة قومه ، فأبوه ثابت بن حزام بن المنذر

كان من حكام يثرب ، ولو أنه كان خزرجيا الا أنه حكم بين الأوس والخزرج يوم سُمَيْر وحقق دم الحيين ، وان حسان لا يفتأ يذكر ذلك الحدث ويفخر بأن أباه اذ حكموه أراد اطفاء الفتنة فيما بين القوم ولم شعثهم ، فأخرج خمسا من الابل من قبيلته حين أبت عليه الأوس أن يؤدي الى طالب الدية أكثر من خمس ، وأبى صاحب الدية أن يأخذ دون عشر + فلما أخرج ثابت الخُمس أَرْضى صاحب الدية بذلك ورضيت الأوس واصطلحوا بعهد وميثاق ألا يقتل رجل فى داره ولا فى معقله (نخله) ، فاذا خرج رجل من داره أو معقله فلا دبة له ولا عقل ، وقال فى ذلك :

وأبى فى سُمَيْنحة القائل ألفا صل حين التفت عليه الخصوم
وقام فى الأوس قيس بن الخطيم يفخر بقومه وينال من
أعدائهم ، وكانت الخزرج العدو اللدود ، فما افتخر حسان بأبيه
حتى رد عليه قيس بقصيدة طويلة :

ردّ الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا
ونشبت العداوة بين حسان وقيس ، بين شاعري القبيلتين
المتنافستين اللتين لم تهدأ الثارات بينهما +

قتل جدّ قيس رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر
ابن صعصة يقال له مالك ، وقتل أباه الخطيم بن عدى رجل من
عبد النقيس ممن يسكن هَجَر + وكان قيس يوم قتل أبواه صغيراً ،
وقتل الخطيم قبل أن يثار بأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها
أن يخرج فيطلب بثار أبيه وجده فيهلك ، فعمدت الى كومة من
تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أجارا ، وجعلت تقول

لقيس : هذا قبر أبيك وجدك • فكان قيس لا يشك أن ذلك على ذلك •

ونشأ أيّداً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان بنى ظفر فقال له ذلك الفتى :

— والله لو جعلت شدة ساعدك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها على •
— ومن قاتل أبي وجدى ؟
— سل أمك تخبرك •

فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثديه ، وقال لأمه :

— أخبريني من قاتل أبي وجدى ؟
— ماتا كما يموت الناس ، وهذا قبرهما بالفناء •
— والله لتخبرنني من قتلها أو أتااملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري •
— أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس •
— والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبي وجدى •
— يا بنى ان مالكا قاتل جدك من قوم خدّاش بن زهير ، ولأبيك عند خدّاش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يثعنك •

فخرج قيس من ساعته حتى ناضحه (بغيره يسقى عليه الماء) وهو يسقى نخله ، فضرب الحبل بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غرارتين من تمر وقال :

— من يكفينى أمر هذه العجوز ؟ (يعنى أمه) فان مت أنفق عليها من هذا الحائط (البستان) حتى تموت ، ثم هو له ، وان عشت فمالى عائد الىّ ، وله منه ما شاء أن يأكل من ثمره •

فقال رجل من قومه :

— أنا له •

فأعطاه الحائط ثم خرج يسأل عن خدّاش بن زهير حتى دل عليه بمرّ الظهران بالقرب من مكة ، فصار الى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ، ثم نادى امرأة خدّاش :

— هل من طعام ؟

فأطلّعت عليه فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

قالت :

— والله ما عندنا من ثرّ (ما يهيا للضيف من قرى) نرضاه

لك الا تمر •

— لا أبالى ، فأخرجى ما كان عندك •

فأرسلت اليه بمكيال كبير فيه تمر ، فأخذ منه ثمرة فأكل شقها ورد شقها الباقي فى المكيال ، ثم أمر بالمكيال فأدخل على امرأة خدّاش ، ثم ذهب لبعض حاجته •

ورجع خدّاش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال :

— هذا رجل متحرّم (له عندنا حرمة وذمة) •

وأقبل قيس راجعاً وكان خدّاش مع امرأته يأكل رطباً ، فلما

رأى خدّاش رجّله وهو على بعيره قال لامرأته •

— هذا ضيفك ؟

— نعم •

— كأن غدمه قدم الخطيم صديقي اليتربي •

فلما دنا قيس منه قرع طئب البيت بسنان رمحہ واستأذن ،
فأذن له خدأش ، فدخل اليه ، فطلب اليه أن ينتسب فانسب
وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه وأن يشير عليه فى أمره ،
فرحب به خدأش وذكر نعمة أبيه عنده وقال :

— ان هذا الأمر ما زلت أتوقعه منك منذ حين • فأما قاتل جدك
فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فاذا اجتمعنا فى نادينا جلست
الى جنبه وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخذَه فثب اليه فاقتله •

وذهب قيس وخدأش الى حيث كان الرجل ، فلما جالسه
خدأش قام قيس على رأس غريمه ، فحين ضرب خدأش فخذَه
ضرب قيس رأسه بسيف يقال له ذو الخرصين ، فثار اليه القوم
ليقتلوه ، فحال خدأش بينهم وبينه وقال :

— دعوه فإنه والله ما قتل الا قاتل جده •

وهذا الناس كأن لم يكن هناك قتيل ، فقد كانت الثارات بين
العرب أمرا مألوفا لا غرابة فيه ، بل كانت الغرابة كل الغرابة والعار
الذى ما بعده عار أن يسكت انسان على ثأره ، وكانت دماء الأبرياء
تسيل دون أن يستنكر أحد ذلك أن يرى فيه ظلما •

ودعا خدأش بجمل من ابله فركبه ، وانطلق مع قيس الى العبدى
الذى قتل أباه ، حتى اذا كانا قريبا من هجر أشار عليه خدأش أن
ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فاذا دل عليه قال له ان لصا من
لصوص قومك عارضنى فأخذ متاعا لى ، فسألت من سيد قومه
فدلت عليك ، فانطلق معى حتى تأخذ متاعى منه فان أتبعك وحده
فستال ما تريد ، وان أخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك مم

ضحكت ؟ فقل . ان الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت اذا دعى الى اللص من قومه ، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذ هيبه له ، فان أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وان أبى الا أن يمشوا معه فأتنى به فانى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

كان الخداع والكذب والخيانة متفشيا فى قبائل العرب جميعا ، وما كانت مكارم الأخلاق تتبع اذا ما كان الأمر يتعلق بثأر ، بل كان الأبرياء يقتلون غفلة فى ضعة وجبن ، وكان القتلة يفخرون بما أتوا من أعمال حقيرة ما داموا قد ثأروا لقتلهم ورفعوا عن جباههم العار الذى يجللهم ، وما كان يديرر بخلد أحد من العرب أن تحقن الدماء بينهم ذات يوم وأن تتعطل الثارات ، فذلك أبعد من خيال أى حالم من الحالمين بالسلام ، وما أقلهم فى قبائل يسودها قانون المغيب وعصبية الجاهلية .

ونزل خدائش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خدائش فأحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ، فلما طلع على خدائش قال له :

— اختر يا قيس اما أن أعينك واما أن أكفيك .

— لا أريد واحدة منهما ، ولكن ان تقتلنى فلا يفتلك .

ثم ثار اليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانه ، فلما فرغ منه قال له خدائش :

— انا ان فررنا الآن طلبنا قومه ، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله فان قومه لا يظنون أنك قتلتهم وأقامت قريبا منه ولكنهم

إذا افتقدونا اقتفوا أثره ، فإذا وجدوه قتيلا خرجوا في طلبنا في كل وجه ، فإذا يتسوا رجعوا .

فدخلوا في دارات من رمال هناك ، وافتقد العبدى قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما في كل وجه ثم رجعوا .

وأقام قيس وخداش مكانهما أياما ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله وقال :

تذكر ليلى حسنها وصفاءها
وبانت فما أن يستطيع لقاءها
ومثلك قد أصببت ليس بكنته
ولا جارة أفضت إلى خبائها

إذا ما اصطبحت أربعا خط مئزرى (١)
وأتبعته دلو في السماح رشاءها (٢)

ثأرت عديا والخطيم فلم أضع
وصية أشياخ جعلت أزاها

وفرغ قيس من ثأره وعاد إلى قومه ليفخر بفضائلهم وليهجو الخزرج وحسان بن ثابت ، وقد قامت مشادة بين الأوس والخزرج في الحديقة ، وهى قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة ، وتراموا

(١) يريد أنه إذا شرب ربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء .
(٢) يريد أنه بلغ فى السماح منتهاه : يقال أتبع الدلو رشاءها وأتبع الفرس لجامها إذا بلغ آخر مجهوده .

بالحجارة وتضاربوا بالخشب والرطائب والسعف ، ولكن ما انتهت
المشادة حتى قال قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا .
كأن يدي بالسيف مخرق لاعب
فالشعراء يقولون ما لا يفعلون *

وتزوج حسان بن ثابت عمرة بنت الصامت الأوسية ، فكان
كل واحد منهما معجبا بصاحبه ، ولكن حمية الجاهلية قد قطعت
أواصر المحبة وقضت على غرام مشبوب ، فقد تكلم حسان بكلام
نال به الأوس أغضب عمرة ، فغيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس ،
فغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك ندم وشدة ، وندم هو بعد ،
ولكن ماذا يفعل الندم في مساويء الجاهلية ؟

وشد حسان الرحال الى الحيرة ، وانطلق الى قصر الخورنق
فقد كان النعمان بن المنذر يرحب بالشعراء * وما ان بلغ القصر
حتى فتحت له أبوابه ، ودخل فألقى النعمان محمولا على أكتاف
الرجال يتعاقبونه ، فقد كانت ملوك العرب اذا مرض أحدهم حملوه
على الأعناق لأنه عندهم أوطأ له من الأرض *

وراح النعمان يحادث حسان بن ثابت ليقوى روحه وينسى
مرضه ، ويصغى الى جيد شعره فيخفف عنه آلامه ، وكان
النعمان يفضل النابغة الذبياني على كل الشعراء ، وكأن خاطره
يهمس وهو يستمتع لحسان : ليت النابغة يقبل وينسى ما بيننا من
جفاء *

كان النابغة عند النعمان كبيرا عنده خاصا به ، وكان من ندمائه

وأهل أنسه فحسد على منزلته منه ، فاتهموه بأمر فغضب عليه
النعمان وأراد البطش به ، وكان للنعمان بواب يقال له عِصام
شَهِير الجرمى قال للنابغة :

— ان النعمان موقع بك فانطلق •

فهرب النابغة الى ملوك غسان ملوك الشام فكان يمدحهم ،
وترك النعمان فاشتد ذلك عليه ، وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث
اليه :

— انك لم تعتذر من سخطه ان كانت بلغتك ، ولكننا تغيرنا لك
عن شيء مما كنا لك عليه ، ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته
ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدى وبينى وبينهم ما قد علمت •

وكان النعمان وأبوه وجده قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه
مالا عظيما ، وما كان يأكل ويشرب الا فى آنية من الذهب والفضة
من عطايا النعمان وأبيه وجده • وبلغ النابغة أن النعمان ثقیل من
مرض أصابه ويخشى عليه منه ، فأتاه النابغة فألفاه محمولا على
رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بين الحيرة ، فقال لبوابه
عصام :

ألم أقسم عليك لتخبرتنى
أحمول على النعش (١) الهمام
فانى لا ألومك فى دخول
ولكن ما وراءك يا عِصام

(١) المراد بالنعش هنا مركب شبه هودج •

فان يهلك أبو قابوس يهلك
ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب (١) عيش
أجب الظهر ليس له سنام

ودخل النابغة فلما رآه النعمان أبو قابوس تهلك بالفرح ، وراح
النابغة يروى شعره والنعمان يصغى إليه ، ثم نزل النعمان عن
أعناق الرجال وأدنى النابغة منه ، ثم أمر له بمائة ناقة من نجائب
له يقال لها العصافير ، وحسام وآنية من فضة ، وحسده حسان على
ثلاث لا يدرى على أيتن كان أشد حسدا : أعلى ادناء النعمان
له بعد المباحة ومسامرته له وأصغائه إليه ، أم على جودة شعره ،
أم على مائة بعير من عصافيره ؟

وانتهت زيارة حسان للحيرة فعاد الى يثرب ، وما ان بلغ
أرباض المدينة حتى ألقى مشادة بين اليهود والعرب فانكمش فهو
يمقت القتال ، ولما خبت أوارها قال اليهود :

— ان نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد

وارم •

ولم تكن هذه أول مرة يسمع فيها حسان بن ثابت بذلك المبعوث ،
فانه خرج من داره مع أبيه وأخته ذات ليلة وكان ابن سبع سنين
على صوت يهودى ينادى :

— يا قوم ! يا قوم !

فلما اجتمع اليه الناس قال :

(١) خيط يشد به ذنب البعير .

— طلع الليلة نجم أحمد الذى يولد به •

وعرف أن أحمد هو النبى الذى يتوعدهم به اليهود ، وما دار
بخلده أن ذلك النبى هو ذلك الغلام الذى جاء الى دار عدى بن
النجار ليزور قبر أبيه عبد الله ، وأن أخوال جده عبد المطلب هم
آبائهم بنو النجار ، وأن الخثولة تربط بينه وبين ذلك النبى ،
وأن كل ما قال من شعر لن يخلده على مر الأيام الا فى ذلك النبى
المنتظر ، فسيكون شاعره • ولو قيل لحسان فى ذلك الوقت الذى
يخوض فيه فى الجاهلية أنه سيؤيد بروح القدس لما فقه شيئاً من
ذلك القول ، ولكن رسول الله سيقول لحسان لما يهجوهم المشركون :
أجب عنى « اللهم أيده بروح القدس » وسيقول : « اهجم
وجبريل معك » • « أن روح القدس مع حسان مادام ينافع عن
رسول الله » •

ان حسان يتمرغ فى الجاهلية ، وسيسمو به الاسلام حتى
يقف الجبان الرعديد للخليفة عمر بن الخطاب لما يمر عليه وهو ينشد
فى المسجد ويقول له :

— أفى مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟

فيقول حسان فى ثبات :

— كنت أنشد وفيه من هو خير منك •

— ٢١٤ —

— ٢٢ —

استأجر خدّاش وهو رجل من قريش ، رجلا من بنى هاشم ،
فانطلق معه فى أبله ، فمر به رجل من بنى هاشم قد انقطعت عروة
جوّالقه فقال :

— أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقى مخافة أن تنفر الابل •
فأعطاه عقالا فشد به عروة جوالقه ، فلما نزلوا عقلت الابل
الا بعيرا واحدا ، فقال خدّاش :

— ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الابل ؟

— ليس له عقال •

— فأين عقاله ؟

— مر بى رجل من بنى هاشم قد انقطع عروة جوالقه ، واستغاث
بى فأعطيته •

فحذفه (رماه) خدّاش بعصا كان فيها أجله ، فمر به رجل من
أهل اليمن وهو يوجد بأنفاسه وقال له :

— أنتشهد الموسم ؟

كان موسم الحج قد آن وكانت قبائل العرب فى طريقها الى
عكاظ ، قال اليمنى :

— ما أشهد وربما شهدته •

— هل أنت مبلغ عنى رسالة من الدهر ؟

— نيعنم ذلك •

فكتب الرجل وهو فى النفس الأخير •

— اذا أنت شهدت الموسم فنناد : يا آل قريش ، فاذا أجابوك
فنناد : يا آل بنى هاشم ، فان أجابوك فاسأل عن أبى طالب فأخبره
أن خدasha قتلنى فى عقال •

كان أبو طالب فى قوافل قريش المنطلقة الى عكاظ ، وكان
مطرقا مهموما فقد استدان من أخيه العباس السنتين الفائنتين
لينفق على السقاية والرفادة على أمل أن تزدهر تجارته وتربو
أرباحه فيتمكن من سداد دينه ويبقى من ماله فضل ينفقه على
فقراء الحجاج ، وقد أرسل تجارته فى رحلة الشتاء الى اليمن
وفى رحلة الصيف الى الشام ، وقد ربحت تجارته ولكن عياله وأهل
بيته والضيغان أتوا على كل أرباحه فلم يبق معه ما يكفى سداد
دين أخيه •

ان العباس أقرضه السنة الفائنة على شرط ان عجز عن سداد
الدين أن تتول اليه السقاية والرفادة ، وهو عاجز هذه السنة عن
أن يؤدى ما عليه ، ولا يحسب أنه قادر على أن يتشبث بهذا الشرف
فأعباؤه المالية تتزايد على مر الأيام ، وقد صار العباس فى ثلاث
سنين من أثرياء مكة يقترض من يثاء بالربا ، وهو قادر على أن
ينهض بعبء سقاية حجيج بيت الله واطعام فقرائهم •

وحطت قوافل قريش فى سوق عكاظ ، وذهب أبو طالب الى
أخيه العباس وقال له أنه لن يسدد ما عليه وأنه قد أصبح من
حق العباس أن يأخذ السقاية والرفادة بما عليه من دين ، فكاد
العباس أن يطير فرحا بهذا النبا ، ففى غمضة عين صار سيدا من
سادات قومه له من الشرف ما لحزام بن حكيم الذى دخل دار

الندوة قبل أن يطر شاربه ، بل أنه تساوى فى الشرف مع حرب
ابن أمية زعيم بنى أمية وهو لا يزال حدثا ، فحرب بن أمية حاكم
لواء قريش ، وهو صاحب السقاية والرفادة فى قريش !

وضربت للنابغة الذبياني فى السوق قبة حمراء من آدم ، وجاء
اليه الأعشى وحسان بن ثابت والخنساء وشعراء العرب ، فراح
الأعشى ينشد شعره وامرأة عربية ترقبه من بعيد • انها امرأة
المحلق فقد قدم الأثنى مكة قبل أن ينطلق الى عكاظ ، وتسامع الناس
به فقالت امرأة المحلق له :

— ان الأعشى تدم وهو رجل مفوه محدود فى الشعر ، ما مدح
أحدا الا رفعه ولا هجا أحدا الا وضعه ، وأنت رجل كما قد علمت
فقير خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لقطة نعيش بها ، فلو سبقت
الناس اليه فدعوته الى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري
به شرابا يتعاطاه ، لرجوت لك حسن العاقبة •

فسبق اليه المحلق فأنزله ونحر له ، فلما أكل الأعشى وأصحابه
وكان فى عصابة قيسية ، قدم اليه الشراب واشتوى اليه من كبد
الناقة وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه
الكأس سأل عن حاله وعياله ، فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنات
فقال الأعشى :

— كفيت أمرهن •

وها هو ذا الأعشى بعكاظ ، ترى أيزكر بنات المحلق ؟
وانتهى الأعشى من قصيدته وراح حسان ينشد :
لنا الجففات الغر يلعبن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابن محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
فلما انتهى منها قال النابغة :
— أنت شاعر •

ولم يعجب الخنساء اطراء النابغة لحسان فقالت :
— أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولم ينضوى اليهم
من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ؟ ألا استعمل
جمع الكثرة : الجفان والسيوف ؟ وأى فخر فى أن تكون جفنة وقت
الضحوة — وهو وقت تناول الطعام — غراء لامعة كجفان البائع ؟
أما يئسبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جففات ؟ ثم أنى
يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطن ؟
أما كان يجب أن يتركها الى يسئلن أو يفضن أو ما شاكل ذلك ؟

وراحت الخنساء تنشد شعرها وقد ألقى الشعراء اليها سمعهم
فاستولت على ألبابهم ، ولا غرو فأبوها شاعر وخالها شاعر وأختها
سلمى شاعرة وأخوها زهير بن أبى سلمى من فحول شعرائهم ،
وما انتهت الخنساء من قصيدتها حتى راح أحد الحاضرين يترنم
بقصيدة أخيها زهير أحكم حكماء العرب :

ومن لم يصبانع فى أمور كثيرة
يُخرّس بأنياب ويؤطأ بمنبم (١)
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ومن لم يذد عن حَوْضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومهما تكن عند امرىء من خايقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم
وقال قائل .

— ان كعب بن زهير ينشد الشعر ولما يشب عن الطوق •
وانتهت ندوة الشعراء فى قبة النابغة ، وقام الأعشى ينشد
قصيدته على الناس فخلق قلب امرأة المحلق وأصبحت كل حواسها
آذاناً ، قال :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق
وما بى من سقم وما بى تعشق
ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين
يريد الأعشى بقوله ، الى أن سمع :
نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقي تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم
مع القوم ولدان من النسل دردق^(١)

(١) الدردق : الأطفال وصغار الابل .

تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمعلق
رضيعي لبلان ثدى أم تحالفا
بأسحم داج عوض (١) لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه
كما زان متن الهندوانى رونق

ووقف المحلق مذهولا ودموعه تتترقق فى عينيه ، فهو لا يكاد
يصدق أذنيه ، وما أتم الأعشى قصيدته الا والناس ينسلون اليه
جريا يخطبون بناته •

ودبت الحياة فى عكاظ ، شعر ينشد هنا وجدال يشب هناك ،
وشباب ماجن يطلق الضحكات ، وبيع وشراء ، وفخر وهجاء •
وجاء رجل من بنى نصر بن معاوية من هوازن بقرد ، فأوقفه فى
السوق وقال بصوت عال :

— من يبيعى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

وكان فلان هذا رجلا من بنى كنانة كان عليه دين للنصرى فأعدم
وصار لا يقدر على سداد دينه ، واستمر النصرى يصيح تعبيراً
للكنانى ولقومه :

— من يبيعى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

فمر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، فهتف
النصرى :

— يا لهوازن !

وهتف الكنانى :

— يا لكانانة !

فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم رأوا الخطب يسيرا فتراجعوا ولم يفهم الشر بينهم ، وكان ذلك الفجار الثالث وبه انتهت أيام الفجار الأول :

وانقضى عشرون يوما من صبح هلال ذى القعدة ، فحمل الناس تجارتهم وأمتعتههم على رواحلهم وانطلقوا الى سوق ذى مجنة ليستأنفوا تجارتهم ، وقبل غروب الشمس كان سهل عكاظ العريض الذى كان ينبض بالحياة قاعا صفصفا لا صوت ولا نامة ، ولولا وسوسة نسيم الليل فى سعف النخيل وعواء كلب آت من بعيد لسكنت السوق سكون الرموس •

وانقضت أيام ذى المجنة وذى مجاز وتدفق الناس الى مكة ليؤدوا فريضة الحج التى بقيت فى القبائل مذ أيام ابراهيم خليل الرحمن ، وان تسلل اليها الأشرك لما طال على الناس العمر •

كانوا يقفون المواقف كلها ، وكانوا يهدون الهدى ويرمون الجمار • وكان الرجل منهم اذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد ، فاذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من أذخر أو من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء •

كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن فى العرب ملوك كذلك ، فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياما يدفع به بعضهم عن بعض ، فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ما قتله •

وقد كانت قريش ابتدعت رأى الحمس رأيا رأوه وأداروه ،
فقالوا :

— نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمه وولاة البيت وقطان مكة
وسكانها • فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا •
ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل
كما تعظمون الحرم فانكم أن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم
وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم •

فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعترفون ويقررون
أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم عليه السلام ، ويرون لساائر
العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها الا أنهم قالوا :

— نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمه
ولا نعظم غيرها كما نعظمها ونحن الحمس أهل الحرم •

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكنى الحل والحرم مثل
الذى لهم بولادتهم اياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم
ما يحرم عليهم ، وكانت كثانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك •
ثم ابتدعوا أمورا لم تكن لهم حتى قالوا :

— لا ينبغى للحمس أن يأتقظوا الأقط (يتخذ من اللبن المخيض
يطبخ ثم يترك حتى يمتص) ولا يسالوا السمن وهم حرم ،
ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا ان استظلوا الا فى بيوت
الأدم ما كانوا حرما •

ثم رفعوا ذلك فقالوا :

— لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من
الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا • ولا يطوفوا بالبيت

إذا قدموا أول طوافهم الا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً •

وسموا تلك الثياب « اللقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطاقوا بالبيت عراة •
كان العرب يقاسون تنطع الحمس كما قاسى بنو اسرائيل من تنطع الصدوقيين والفريسيين • وكان محمد بن عبد الله يرى ذلك العنت فيضيق بذلك السخف ويرمى نفسه فى أحضان الكون ويرتفع الى ما وراء الطبيعة ويسمو ليتصل بذات الذوات • وسيوحى اليه الله لما يبعثه الى الناس رسولا ببطلان ما ابتدعوه : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » •

وأبطل الله ما ابتدعوه من تحريم الطعام واللبوس عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » •

وراح خدائش الذى قتل الهاشمى الذى استأجره يطوف بالبيت ، ووقعت عينا أبى طالب عليه فأتاه وقال له :

— ما فعل صاحبنا ؟

— ٢٢٣ —

فقال خدائش فى بساطة :

— مرض ، فأحسننت القيام عليه فوليت دفنه •

فقال أبو طالب فى أسى :

— قد كان أهل ذاك منك •

وصدقه أبو طالب وراح يغدو ويروح فى الحرم يسهر على
راحة الحجيج ، فان كانت الرقادة والسقاية قد خرجت من يده
الى يد العباس فهو يستطيع أن يؤدى الى الحجاج بعض الخدمات
وأن يبذل لهم من عطفه ورعايته •

ورن صوت فى الحرم ينادى :

— يا آل قریش •

قالوا :

— هذه قریش •

قال الرجل اليماني الذى أوصى اليه المقتول أن يبلغ عنه :

— يا بنى هاشم •

— هذه بنو هاشم ؟

— من أبو طالب •

— هذا أبو طالب •

فذهب اليماني الى أبى طالب وقال :

— أمرنى فلان أن أبلغك رسالة أن خدائشا قتله فى عقال •

فأتى أبو طالب خدائشا وقال له :

— اختر منا احدى ثلاث : ان شئت أن تؤدى مائة من الابل

فانك قتلت صاحبنا ، وأن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم
تقتله ، فان أبييت قتلناك به •
فأتى خدائش قومه فقالوا :
— نحلف •

وكان حويطب بن أبي قيس العامري فيمن قبل أن يحلف ،
وكانت أمه امرأة من بنى هاشم ، فلما عرفت أن ابنها سيحلف
قسامة لبعى باطل بين الركن والمقام فزعت وخافت على ابنها فهي
تسمع من قومها أن أناسا حلفوا عند البيت على باطل ثم خرجوا
فنزلوا تحت صخرة فانهدمت عليهم ، فجاءت أمه الى أبي طالب
وقالت :

— أحب أن تجيز ابني هذا برجل من الخمسين ، ولا تصبر
الأيمان (أى لا تلزمه أن يحلف بأعظم الأيمان) •
ففعل ، فأتاه رجل منهم فقال :

— يا أبا طالب ، أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من
الابل يصيب كل رجل بغيران ، فاقبلهما عنى ولا تصبر يمينى حيث
يصبر الايمان •

فقبلهما أبو طالب وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا بين الركن
والمقام أن خدائشا برىء من دم المقتول ، وبات الناس ينتظرون
ما سيحل بالذين حلفوا عند البيت على باطل ، وقال قائل :
— والذى نفسى بيده لن يحول الحول ومن الثمانية والأربعين
عين تطرف •

كان أبو طالب راضيا عن حياته كل الرضا وان قل ماله ،
سيدا فى قومه مسموع الكلمة وان خرج من يده شرف السقاية

والرفادة ، وكان الزبير مرهوب الجانب تخشى القبائل قذعه وهجوه ، وكان أبو لهب غارقاً في اللهو والميسر والمجون وما كانت مثل هذه الأفعال تشين الرجل في مكة ، بل كانت ترفع ذكره ويتغنى بها الشعراء في المجلس ، وكان حمزة يشب فارساً ويتحلى بأخلاق الفرسان من نجدة ومروءة وكرم وإن عرف الكأس والشراب ، وكان العباس متهاطلاً بعد أن أنقاده شرف السقاية والرفادة حلمه الذي كان يحلم به مذ مات عبد المطلب •

وكانت قريش تزعم على القبائل بأنها أهل الحرم الذي يأمن فيه الطير وأنهم بنو إبراهيم وإسماعيل ، وكانت راضية بما ابتدع لهم الحمس من فضائل وتفضيل ، وكان النصارى منهم واليهود يعظمون البيت أكبر تعظيم ويؤمنون بما قام حوله من أساطير ، ولم يحاول منهم أحد أن يعيد قومه إلى الجادة ويزيل الخرافات عن جوهر الحقيقة ، حتى الحنفاء اكتفوا بأن بحثوا عن دين إبراهيم وعبد كل منهم ربه على طريقته ، واكتفى بهداية ذاته ولم يدع إلى ربه ويحتمل في سبيل دعوته الاضطهاد والتعذيب •

كان محمد بن عبد الله وحده يحاول أن ينطلق من جسده وينفصل عن مجتمعه ليهيئ في الوجود ويتصل بالله ، وأن الاتصال لا ينفصل عن ارادة الاتصال ، فهو في صميم ذاته يستشعر أن الوصال غاية الغايات ، في سبيله جهاد وصراع وعقبات وألم وتضحيات ، ولكنه شيء ينبغي أن يكون •

إن الله هو المطلق الأوحد الذي يوجه إليه نفسه ويسلم له وجهه ، وإن عليه أن يسعى إليه وأن يجعله أمله الذي يبذل كل طاقاته ليلبغ ، وإن كل جهد يهون وكل ألم يستمرأ وكل تضحية

تحتل في سبيل أن تتحقق الغاية التي ما بعدها غاية : الاتصال
بجوهر الحقيقة ، والاقتراس من نور النور ، وخفق قلب اليقين في
جنبات صدره .

انه لا يألو جهداً في سبيل تحرير ذاته من أسر جاهلية قومه ،
ويجاهد جهاداً دائباً لكيلا يجد ذاته أسير نظام اجتماعي تخفق
في نطاقه كل حرية وكل شخصية . وان ذلك أليم شاق ، فهو يهجر
الدعة والمهدوء حيث لا ألم ولا شقاء الى صراع النفس ومجاهدة
الرغبات والشهوات والسمو بالعرائز ليصل الى الانتصار الروحي
الذي جعله هدفه ومبتغاه .

انه يعرض عن كل سعادة أرضية سهلة هينة ، ويحتل كل
حرمان في صبر ، ويفطم جوارحه عن شهوات النفس ، وينأى
بروحه عن مسرات قومه ، ويحيا الحياة الروحية الصحيحة ، ويتحرر
من القيود التي تشده الى الأرض مهما قاسى في سبيل ذلك من
ألم ومشقة ليصل الى السعادة الحققة ، سعادة الوصال التي تتهلل
لها نفسه ، والتي يفيض بها وجدانه بفرح يفوق كل أفراح الأرض .

انه أصبح يشعر بالحقيقة المطلقة في باطن تأمله العقلي الذي
صار طابعه ، فهو ينظر الى السموات والأرض فيرى آيات الله
التي هلا الله بها أجواء الكائنات ، ويسير في الأرض فيكون له
قلب يعقل به ويحفزه الى التطلع لما وراء العقول والحواس والطبيعة
من أسرار . وان طول التأمل ومداومة التدبر والنظر في الكون
هي مفتاح الاشراقات الروحية التي تزداد تألقا على مر الأيام .

انه لا يريد أن يطفئ مصباح عقله ويتبع ما ألقى عليه آباءه ،

— ٢٢٧ —

فهو يهتدى الى أن آباءه لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، بل انه يريد أن يسمو عن مجتمعه بل ويسمو على ذاته وأن يسير فى طريق الترقى بالكفاح والجهاد والحرمان والتقشف والصبر الطويل ، حتى يصل الى الروح المطلق ، روح الأرواح وذات الذوات •

— ٢٤ —

كان أمية بن أبى الصلت من ثقيف ، وكان يمضى أغلب أيامه فى مكة فأما رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف قرشية ، وهو يجب عبد الله بن جدعان سيد بنى تميم لكرمه ، ويا طالما أمضى الأمسيات معه يصغى الى مغنيتيه الجرادتين اللتين ذاع صيتهما فى مكة ، وكانت أحب أغانيهما الى نفسه تلك الأغنيات التى تشدوان بها من شعره •

وكان ابن أبى الصلت يداعب ابن جدعان بشعره بين الحين والحين ، وكان يمدحه ويمدح طعامه وسمره ، وقد قال فيما قال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى	حياؤك ان شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع	لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح	عن المخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة وجودا	اذا ما الكلب أجحره الشتاء
وأرضك أرض مكرمة بنتها	بنو تميم وأنت لها سماء
اذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تعرضه الثناء

وكان أمية بن أبى الصلت يلتقى أبا قحافة وابنه أبا بكر فى دار ابن جدعان ، وكان أبو قحافة يخرج فى تجارة قریش ، وكان ابن أبى الصلت يخرج فى قوافلها ، ولكن الصداقة لم تتوطد بين أبى قحافة وبين أمية ، بل اشتدت أواصرها بينه وبين أبى سفيان بن حرب •

كان بحكم مولده أميل فى شعوره الى بنى أمية منه الى بنى هاشم ، فهو وأن كان يصغى الى شعر الزبير وأخيه أبى طالب ويشارك أبا لهب فى سمره ، الا أنه قد اتخذ أبا سفيان بن حرب خزانة أسرارہ ، وما كان يلتفت الى محمد بن عبد الله فهو يراه غلاما من بنى هاشم يسير فى ركاب أعمامه اذا ما ذهبوا الى الأسواق ، ويغيب عن مجالس السمر والشراب ، ولم يشتهر بالظرف كظاهر بن الزبير ولا بالخلاعة كأبى سفيان وأبى لهب ، بل عرف عنه الانطواء والحياء والفرار من نوادى قومه ، وما كان ميله الى العزلة ليلفت نظر شاعر مثل أمية يحيا حياة صاحبة فى الدور وفى القصور وفى أسواق العرب •

وكان يؤم دار ربيعة بن عبد شمس خاله ، ويداعب ابنى خاله عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ويروى لمن فى الدار أبياتا من شعره ، ويحكى روائع ما رآه فى قصور اليمن والحيرة وحوارن عاصمة الغساسنة ، فقد سافر مع عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذى يزن لما انتصر على الحبشة ، كان يومها فى مقتبل عمره ، وقد قال بين يدي ابن ذى يزن :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا

فى رأس (غمدان) دار منك محلا

وشد الرحال الى النعمان بن المنذر فى قصر الخورنق ، وأنطلق الى أمراء الغساسنة ينشد أشعاره ويزين السؤال والعطاء ، ولا غرو فهو القائل :

عطاؤك زين لامرئ ان حبوته
بخير وما كان العطاء يزين
وليس بشكين لامرئ بذل وجهه
اليك كما بعض السؤال يشين

وكان يروى نواذر الشعراء والأجواد ، ويقص أن أول ما ظهر من جود حاتم الطائي أن أباه خلفه فى ابله وهو غلام ، فمر به جماعة من الشعراء فيهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبى حازم والنابغة الذبياني يريدون النعمان بن المنذر ، فقالوا له :

— هل من قرى ؟

ولم يعرفهم فقال :

— أتسألونى القرى وقد رأيتم الابل والغنم ؟ ! انزلوا •
فنزلوا فنحز لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ، ففرق فيهم الابل والغنم ، وجاء أبوه ولم يجد ابلا ولا غنما فقال :

— ما فعلت ؟

— طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة •

وعرفه القصة فقال أبوه :

— اذا لا أساكنك بعدها أبدا ولا آويك •

— اذا لا أبالى •

وكان حديث حاتم يعيد الى الأذهان ذكر أشعاره ، فكان أحدهم يروى ما قاله لزوجته ماوية بنت عبد الله :

أمأوى قد طال التجنب والهجر
 وقد عذرتنا في طلبكم العذر
 أمأوى ان المال غاد ورائح
 ويبقى من المال الأحاديث والذكر
 أمأوى اما مانع فمبين
 واما عطاء لا يثمنه البزجر
 أمأوى انى لا أقول لسائل
 اذا جاء يوما حل فى مالى النزر
 أمأوى لا يغنى الثراء عن الفتى
 اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
 أمأوى ان يصبح صدائى بقفرة
 من الأرض لا ماء لىدى ولا خمر
 ترى أن ما انفقت لم يك ضرئى
 وأن يىدى مما بخلت به صفر
 اذا أنا دلائى الذين يلوننى
 بمظلمة لج جوانبها غير
 وراحوا سراعا ينفضون أكفهم
 يقولون قد آدمى أظافرنا الحفر
 أمأوى ان المال مال بذلته
 فأوله شكر وآخره ذكر
 وقد يعلم الأقوام لو أن حاتما
 أراد ثراء المال كان له وفر

فانى وجدى رب واحد أمة
أخذت فلا قتل" عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتى
شهوداً وقد آوى باخوته الدهر
غنيا زمانا بالتقصّد والغنى
وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر
فما زادنا مأوى على ذى قرابة
غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقير

ونأهبت قافلة قريش للانطلاق الى الشام ، وخرج أمية بن أبى
الصلت فى تجارة ثقيف • انه لا يفارق أباً سفيان بن حرب فى
الليل أو فى النهار ، انه يجاذبه أطراف الحديث ويروى شعره
ويصغى الى ما يردده أبو سفيان من أشعار غيره من الشعراء ،
فقد كان الشعر غذاء الأرواح وراحة النفوس •

ونزلت القافلة بالقرب من صومعة راهب ، فاذا بأمية ينسل
الى الصومعة ويطرق الباب فى رفق ثم يستأذن فى الدخول ، فلما
أذن له الراهب دلف الى داخل الصومعة وأدار عينيه فى المكان
وهو يعجب للبساطة التى تسود الصومعة ، ويمتلىء فؤاده خشوعاً
للمروحية التى تغمر كل شىء •

وجلس أمية الى الراهب ودار بينهما حديث الدين ، فاذا بالراهب
يذكر أن نبيا سيعث من قبل بيت الله وأن زمانه قد آن ، وراح
يصف ذلك النبى فسرت قشعريرة فى جسم أمية فبعض صفات
النبى المنتظر هى صفاته ، وتدسس فى ضميره أنه قد يكون ذلك
النبى ، فعزم على أن ينزل بصوامع الراهبان وأن يطوف بالكنائس

يتدارس أمر الدين ، حتى إذا ما بعث الى قومه كان على علم بالكتاب والايمان وبمن سبقه من الأنبياء الصالحين •

واستأنفت القافلة رحلتها فشرد أمية يفكر فيما سمع من الراهب ، وكان يظل فى تأمله وتفكيره حتى تحط القافلة بالقرب من صومعة أو بيعة أو كنيسة فيهرع الى رجال الدين يحاورهم ويحاورونه ويلقى اليهم سمعه • وما أنتهت الرحلة حتى كان أمية ابن أبى الصلت قد تنصر ولبس مسوح الرهبان وعاد يحمل الكتاب المقدس ، وقد وطد النفس على أن يعكف عليه يلتهم ما فيه •

واعترل أمية قومه الثقفيين وراح يقرأ فى التوراة ، حتى اذا ما وجد بشارة بالنبي المرتقب وقف عندها يستبطن أسرارها ، قرأ : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وترك الكتاب وأطلق لخياله العنان ؛ جاء الله من طور سيناء ، فان مجيء الله هو مجيء كتابه وأمره ، وقد نزلت التوراة على موسى فى طور سيناء ؛ وأشرق من ساعير كناية عن ظهور أمره وكلامه ، وساعير جبل بالشام وبالقرب منه قرية الناصرة التى ولد فيها المسيح ونزل فيها الانجيل على المسيح ؛ واستعلن من فاران أى سيظهر أمره من فاران ، وفاران هى مكة وليست الطائف • وكاد الأسى ينزل بقلب أمية ولكنه راح يقنع نفسه أن الطائف مصيف مكة وأنها قطعة منها !

واستأنف القراءة فى التوراة حتى توقف عند قول الله لموسى : « والله ربك يقيم نبيا من اخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حوريت يوم الاجتماع حين قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله لى : نعم ما قالوا : وسأقيم لهم نبيا مثلك

من اخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيقول لهم كل شىء آمره به ،
وأياها رجل لم يطع من تكلم باسمى فانى أنتقم منه » •

وشرد أمية يفكر فيما قرأ ، فموسى وقومه من بنى اسحاق
واخوته بنو اسماعيل ، ولو كان الموعود من بنى اسحاق لكان من
أنفسهم ، لا من اخوتهم ، وانه ليذكر أنه قرأ فى التوراة : « لا يقوم
فى بنى إسرائيل أحد مثل موسى » فالنبي الموعود من بنى اسماعيل
وهو من بنى اسماعيل ، وانه ليتأهب بالاعتكاف والدراسة أن يوحى
الله اليه بكلامه لينطق به •

وراح يقرأ فى زبور داود : « اللهم اجعل جاعل السثة يحيا ،
يعلم الناس أنه بشر » • « انه فاضت الرحمة على شفئك ، من
أجل ذلك أبارك عليك الى الأبد • فتقلد السيف فان بهاءك وحمدك
المغال ، وأركب كلمة الحق فان ناموسك وشرائعك مقرونة بهيية
يمينك ، والأمم يخرون تحتك » •

وراح يقرأ فى أشعيا : « عبدى الذى سرت به فى نفسى ،
انزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ،
لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العمى
والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا •
مشفق (محمد) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض •
تفرح البرية ، وسكانها يهللون الله على كل شرف ويكرزونه على
كل رابية ، ولا يضعف ولا يغلب ولا يميل الى الهوى ولا يذل
المسالحين الذين هم كالقصبه الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ،

وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه » (١) •

وقرأ قول أشعيا : « قم نظّارا فانظر ما ترى فأخبر به ، فقلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل ، يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها » •

وانفعل أمية بما قرأ أشد الانفعال ، فقد جاء عيسى على حمار ولم يبق الا صاحب الجمل ولا يظن الا أنه هو ، وبلغ به التأثير حتى طفرت الدموع من مآقيه وسالت تغسل وجهه •

وقرأ : « أيتها العاقر افرحى واهترى وانطلقى بالتسبيح ، فان أهلك يكونون أكثر من أهلى » •

وفكر أمية فالعاقر مكة لأن الله لم يبعث بها نبيا ، وها هو أوان بعثه قد آن وسيكون أهلها أكثر من أهل أورشليم وقرأ قول شمعون : « جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » • وقرأ كتاب حزقيل ، وكان يروى كفران اليهود للنعم فشبههم فيها بالكرمة حيث قال : لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمى بها على الأرض ، فأحرقت السمائم أثرها ، فعند ذلك غرس غرس فى البدو وفى الأرض المهملة العطشى ، فخرجت من أغصانه الفاضلة نار فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب » •

(١) الأجزاء السابقة ذكرت البشارات حسب الترجمة العربية للكتاب المقدس التى طبعت بتكلفة جمعية التوراة الأمريكية ، أما البشارات هنا فهى مأخوذة عن الترجمة الواردة فى « خير البشر » لابن ظفر والسيرة الحلبية والزرقاتنى •

يا لها من بشارة ! وهل أرض البدو المهملّة العطشى غير أرض العرب ، وهل سيُخزى الله اليهود بغيره ؟ وعكف أمية على التوراة يقرأ من كلام خيقوق : « اذا جاءت الأمة الآخرة يسبّح بهم صاحب الجمل تسبّحاً جديداً فى الكنائس الجدد ، فافرحوا وسيروا الى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار (١) » .

وملأت فكرة أنه النبى المنتظر وجدانه ، فراح ينظر فى الانجيل ويقف طويلا عند البشارات وعند الفارقليط الذى بشر به المسيح : « ان أحببتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب الى أبى فيعطىكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » . « ان هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للأب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شئ ويذكركم جميع ما أقول لكم » .

« اذا قال الفارقليط الذى أرسل اليكم من عند أبى ، روح الحق الذى يخرج من الأب ، فهو يشهد لى وأنتم تشهدون لى أيضاً لكيوننكم معى من أول الأمر » .

لم يكن أمية بن أبى الصلت يعرف بماذا يشهد للمسيح ، فهو لا يدرى شيئاً عما أفترى عليه وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، ولكنه لم يقف طويلا عند هذه البشارة وراح يقرأ قول

المسيح : « ان انطلاقي خير لكم ، لأنى ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فاذا انطلقت أرسلتُ به اليكم ، فاذا جاء فند أهل العلم » . ترى ما الذى يفنده الرسول المرتقب ؟ انه سيفند علماء اليهود النصارى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح قتل وصلب بعد أن عذب ، وما انفرد به علماء اليهود من بهتانهم فى الطعن على السيد المسيح ، وما انفرد به علماء النصارى من الدعوة الى ألوهية المسيح . ان الله سيوحى الى عبده بالحقائق ، وكان أمية يؤمن بالصلب والقتل والبنوة !

« الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب » .

على أية خطيئة سيوبخ أمية العالم ، انه لا يدري ، وانه يترقب أن يسمع من الله ما يقوله فى شأن هذه الخطيئة ، وما دار بخلده أن الخطيئة التى أوجبت توبيخ العالم هى قولهم اتخذ الرحمن ولدا ، وقولهم : ان الله هو المسيح بن مريم ، وقولهم ان الله ثالث ثلاثة ، وسيوحى الله الى رسوله « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » ، « لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم » .

وأوهم أمية بن الصلت نفسه أنه هو ذلك النبي الذى تنتظره بلاد العرب ، فخرج الى نساء ثقيف وراح يحدثهن أن نبيا قد أوثك أن يبعث ، وأنه ذلك النبي المنتظر .

كان النعمان بن المنذر فى قاعة العرش بقصر الخورنق ، وكان رجال من أشراف عرب الجزيرة عنده فيهم عروة الرحائل بن عتبة ابن جعفر بن كلاب سيد هوازن ، والبراء بن كنانة ، وكان موسم الحج قد أشرف ، وكان النعمان يبعث بسوق عكاظ فى كل عام قافلة تجارية فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك • ويشترى له بثمنها من آدم الطائف ما يحتاج اليه •

وكانت العرب تجتمع فى عكاظ للتجارة والتهيو للحج من أول ذى القعدة ، فجهز النعمان غير التجارة ثم قال :

— من يجيرها ؟

فقال البراء بن قيس النمري :

— أنا أجيرها على بنى كنانة •

فقال النعمان :

— ما أريد ألا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة •

فقال عروة الرحائل وهو يومئذ رجل هوازن :

— أكلب خليع يجيرها لك أبييت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على أهل

الشيخ والقيصوم من أهل نجد وتهامة •

فقال البراء بن قيس غضب وانكار :

— أعلى بنى كنانة تجيرها يا عروة ؟

— وعلى الناس كلهم •

فدفعها النعمان الى عروة فخرج بها ، وتبعها البراءض وعروة لا يخشى منه شيئاً لأنه كان بين ظهرائى قومه من غطفان الى جانب فذك الى أرض يقال لها أواراة فى بلاد بنى تميم ، فنزل بها عروة فشرب من الخمر وغنته قينة ، ثم قام فنام • فجاء البراءض فدخل عليه فناشده عروة وقال :

— كانت منى زلة ، وكانت الفعلة منى ضلّة •

فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة منى ضلّة

هلا على غيرى جعلت الزلة

فسوف أعلو بالحسام القلة

وظل البراءض بفخر يقتل سيد هوازن ويقول :

وداهية يهال الناس منها

شددت لها ، بنى بكر ، ضلوعى

هتكت بها بيوت بنى كلاب

وأرضعت الموالى بالضروع

جمعت له يدى بفصل سيف

أفل ، فخر كالجذع الصريع

واستاق البراءض العير الى خيبر ، واتبعه المساور بن مالك

الغطفانى وأسد بنى خيثم الغنوى حتى دخل خيبر ، فكان البراءض أول من لقيهما فقال لهما :

— من الرجلان ؟

— من غطفان وغنّى •

— ٢٣٩ —

فقال البراض قد أحس الخطر :

— ما شأن غطفان وغنى بهذه البلدة ؟
قالا :

— ومن أنت ؟

— من أهل خيبر •

— ألك علم بالبراض ؟

— دخل علينا طريداً خليعاً فلم يؤوه أحمد بخير ولا أدخله
بيتنا •

— فأين يكون ؟

— وهل لكما به طاقة أن ذلكتما عليه ؟

— نعم •

— فانزلا •

— فانزلا •

فنزلا وعقلا راحلتيهما • قال :

— فأيكما أجراً عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟

قال الغطفاني :

— أنا •

قال البراض :

— فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما •

ففعل • فانطلق البراض يمشى بين يدي الغطفاني حتى انتهى

الى خربة فى جانب خيبر خارجة عن البيوت ، فقال البراض :

— هو فى هذه الخربة واليها يأوى ، فانظرنى حتى أنظر أثم

هو أم لا • فوقف له ودخل البراض ، ثم خرج اليه وقال :

— ٢٤٠ —

— هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك اذا دخلت ، فهل عندك سيف فيه صرامة ؟

— نعم •

— هات سيفك أنظر اليه أصارم هو ؟

فأعطاه اياه ، فهزه البرأض ثم ضربه حتى قتله ووضع السيف خلف الباب ، وأقبل على الرجل الآخر فقال الغنوى :

— ما وراءك ؟

— لم أرَ أجبن من صاحبك ، تركته قائما فى الباب الذى نيه الرجل والرجل نائم لا يتقدم اليه ولا يتأخر عنه •
قال الغنوى :

— يا لهفاه ، لو كان أحد ينظر راحلتينا ؟

— هما على أن ذهبت •

فانطلق الغنوى والبرأض خلفه ، حتى اذا جاوز الغنوى باب الخبرة أخذ البرأض السيف من خلف الباب ، ثم ضربه حتى قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق •

وكانت سوق عكاظ تموج بقريش وكنانة وهوازن وكل قبائل العرب •

وبلغ قريشا خبر البرأض فأيقنوا أن هوازن لن ترضى بقتل البرأض بعروة ، فالبرأض خليع من بنى كنانة وعروة الرحال سيد هوازن ولا بد من أن يقتلوا به عظيما من قريش ، فقر رأيهم على أن يعودوا الى الحرم يلوذون به •

وبلغ قيس قتل زعيمهم وثرار قريش الى مكة ، فخرجت فى

— ٢٤١ —

أثرهم وعليهم أبو براء بن مالك فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ،
ونادوهم :

— يا معشر قريش ، انا نعاهد الله أن لا يبطل دم عروة الرحاك
أبدا ونقتل به عظيما منكم ، وميعادنا واياكم هذه الليالي من العام
المقبل .

فقال حرب بن أمية لأبى سفيان ابنه :

— قل لهم ان موعدكم قابل فى هذا اليوم .

فقال خدّاش بن زهير فى هذا اليوم وهو يوم نخلة :

يا سِدَّةً ما شددنا ، غير كاذبة
على سَخِينَة (١) لولا البيت والحرم
لما رأوا خيلنا ترجى أوائلها
آساد غيل حمى أشبالها الأجَمُ
واسْتَقْبَلُوا بضارب ، لا كفء له
بيدى العزّل الأكفال ما كتموا .
ولتوا شلالا ، وعُظْمُ الخيل لاحقة
كما تخب الى أوطانها النعم
ولت بهم كل محتضار ملهمة
كأنها لقوة (٢) يحثها ضرَم

وحال الحول وتأهب الناس للانطلاق الى عكاظ ، فجمعت
كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم من بنى أسد

(١) كانت العرب تسمى قريشا سَخِينَة لاكلها السخن .

(٢) اللقوة : الخفيفة السريعة .

بن خزيمة ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كميّ بأداة كاملة
سوى من سلح من قومه •

وجمعت سُلَيم وهوازن جموعهما وأحلافهما غير كلاب وبنى
كعب فأنهما لم يشهدا يوما الفجار غير يوم نخلة ، فاجتمعوا بشمطة
من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها على قرن الحول ، وعلى كل
قبيلة من قريش وكنانة سيدهما ، وكذلك على قبائل قيس ، غير أن
أمر كنانة كلها الى حرب بن أمية ، وعلى إحدى مجنبتيهما عبد الله
ابن جدعان ، وعلى الأخرى كريض بن ربيعة ، وحرب بن أمية في
القلب ، وأمر هوازن كلها الى مسعود بن معتب الثقفي •

فتتناهض الناس وزحف بعضهم الى بعض ، فكانت الدائرة في
أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى اذا كان آخر النهار تداعت
هوازن وصابرت وانقضت كنانة ، فاستحضر القتل فيهم فقتل منهم
تحت رايتهم مائة رجل ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر •

فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة •

ومرت سنة وجمع هؤلاء وأولئك فالتقوا على قرن الحول في
اليوم الثالث من أيام عكاظ ، ودارت الحرب وقتل من قريش العوام
ابن خويلد والد الزبير بن العوام وشقيق خديجة ، وستحزن عليه
خديجة حزنا يفوق حزنها على أبيها الذي مات في نفس العام •

قتل مرة بن مَعْتَب الثقفي العوام بن خويلد ، فقال رجل من
ثقيف :

منّا من أترّك العوام مجندلا

نتتابه الطير لحما بن أحجار

وانتصرت في هذا اليوم هوازن على كنانة ، ولما كانت الحرب

قد دارت عند العبلاء فقد سمي ذلك اليوم يوم العبلاء ، وفيه يقول
خداش بن زهير :

ألم يبلغك ما لقيت قريش
وحى بنى كنانة اذا أتبيروا (١)
دهمناهم بأرعن مكفهرا
فظل لنا ، بعقوتهم (٢) زئير

وانصرم عام ، وخرجت قريش وكنانة وخرج آل عبد المطلب
فيمن خرج الى عكاظ . وقد أخذ أبو طالب ابن أخيه محمد بن عبد
الله معه فهو يتفأل به ويرجو أن يكون النصر حليفهم ببركته .
وحمل ابن جدعان مائة رجل على مائة بغير ممن لم تكن له حمولة ،
وقد كان لهوازن على كنانة يومان ، يوم شمطة ويوم العبلاء ،
وكانت قريش وكنانة تطمع في النصر وازالة ما لحق بهم من عار .

والتقى هؤلاء وأولئك على قرن الحول في الثالث من أيام
عكاظ بشرب ، فحميت قريش وكنانة ، وقيد أمية وحرب ابنا أمية
ابن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا
العنابس (الأسود) . وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وراح محمد
بن عبد الله ينبل على أعمامه ، وراح أبو ربيعة بن المغيرة يقاتل
برمحين فسمى بذى الرمحين ، واستبسل قصي بن المغيرة وهاشم
بن المغيرة في القتال ، فانهزمت هوازن وقتلت قتلا ذريعا وأثلجت
صدور القرشيين ، والتفت أبو طالب الى ابن أخيه محمد بن عبد الله
وقال له :

(١) أهلكوا .
(٢) العقوة : شجر .

— لا أبالك لا تغب عنا •

وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يمدح بنى المغيرة :

لَكَدَتِ أَخْتُ بَنِي سَكَمٍ	أَلَا لِلَّهِ قُصُومٌ وَ
مَنَافُ مَدْرَةٍ (١) الْخَصْمِ	هَشَامٌ وَأَبُو عَبْدِ
مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَزْمِ	وَذُو الرَّمْحَيْنِ ، أَشْبَالُ
وَذَا مِنْ كَثِيبٍ يَرْمَى	فَهْـذَانِ يَذُودَانِ

وقال جَذَلُ الطَّعَانِ :

جاءت هوازن ، أرسالا واخوتها
بنو سليم ، فهابوا الموت وانصرفوا
فاستقبلوا بضراب فضٍّ جمَّعهم
مثل الحريق ، فما عاجوا ولا عطفوا

وانقضت سنة وقريش سعيدة بنصرها وأبو طالب ينظر الى
ابن أخيه فى اكبار ، فقد وفر فى ضميره أن النصر كان ببركة ابن
عبد الله • وخرجت قريش وأراد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أن
يخرج مع الخارجين ولكن حرب بن أمية أشفق من خروجه ، فقد
كان يتيما فى حجره فضن به •

والتقى القرشيون والكتانيون بهوازن وبنى سليم بالحريرة
وهى حررة الى جنب عكاظ ، ودار قتال رهيب ، فقتل أبو سفيان
ابن أمية أخو حرب بن أمية ، وقتل خلق من الجانبين ، واذا برجل
بين الصفيين ينادى :

— يا معشر مضر علام تفانون ؟

(١) السيد : زعيم القوم •

فقلت هوازن ما تدعو اليه ؟
 — الصلح ، الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ونعفو عن
 دمائنا .

— وكيف ؟
 — ندفع لكم رهنا منا الى أن نوفى لكم ذلك .
 — ومن لنا بهذا ؟
 — أنا ؟
 — ومن أنت ؟
 — عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

وراح حرب بن أمية ينظر الى عتبة في اعجاب وان كان قد
 خرج بغير اذنه ، ورضيت بما حكم هوازن وكنانة وقريش ، ودفعوا
 الى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام ابن أخى خديجة
 بنت خويلد ، فلما رأت هوازن الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء
 وأطلقوهم ، وخشى الطرفان أن تثار حروب فى الأشهر الحرم
 فاتفقا على أن يترك كل من يرد الى عكاظ سلاحه عند عبد الله بن جدعان ،
 حتى اذا ما أنتهت أيام الموسم ، أعاد ابن جدعان الى كل سلاحه ،
 وبذلك انقضت أيام الفجار التى قال فيها محمد بن عبد الله بعد أن
 بعث : « قد حضرته مع عموئى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى
 لم أكن فعلت » .

— ٢٤٦ —

— ٢٦ —

تداعى الناس الى الصلح بعد أن سالت دماء بريئة فى الفجار
الآخر ، وعادت كنانة وقريش والأحبابيش حلفاؤهم ، وراح الناس
يطوفون بالبيت ويشكرون آلهم أن حقنت دماءهم •

كانت الأحبابيش قوة عربية عسكرية تحمى القوافل وتخوض
غمار القتال مع حلفائها ، وقد تحالفت قريش والأحبابيش الأحلاف
فصاروا حلفاء لقريش دون بنى كنانة ، والذين عقدوا معهم من
قريش بنو عبد مناف بن قصي • والأحبابيش بنو الحارث بن عبد
مناة بن كنانة ، والحياء والمصطلق من خزاعة والقارة بنو الهون بن
خزيمة ، فكانت قريش والأحبابيش أحلafa متعاقدين ، والأحبابيش
على بنى بكر بن عبد مناة وبنى مدلج ، شأن دهمهم أمر اجتمعوا
فصاروا يدا واحدة • وكانت هذيل مع قريش والأحبابيش ، وكانت
خزاعة كلها الا الحياء والمصطلق مع بنى مدلج •

وتحالفت قريش وبنو الحارث بن عبد مناة والحياء والمصطلق
من خزاعة بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة ، فسموا أحبابيش قريش
باسم الوادى • وكان تحالف قريش والأحبابيش على الركن ، يقوم
رجلان أحدهما من قريش والآخر من الأحبابيش فيضعان أيديهما على
الركن فيحلفان بالله القائل بحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر
الحرام ، على النصر على الخلق جميعا ، وعلى التعاقل والتعاون
وعلى من عاداهم من الناس جميعا ما بل بحر صوفة ، وما قام

حرء وثبير ، وما طلعت الشمس من مشرقها وما غربت من مغربها •
 وذهب رجال الحكومة الى دار الندوة ، وأخذت كل أسرة
 مكانها عند البيت فالأسرة هي المجتمع عند المكيين ، والمال هو عصب
 الحياة ومقوم الرجال ، والرقيق هو نبع الثراء ومصدر الثروات ،
 ومن عجب أن ساد في هذا المجتمع أبو طالب وعتبة بن ربيعة بن
 عبد شمس وكانا أفلس من أبى المزلق ، وهو رجل من بنى عبد شمس
 لم يكن يجد مئونة ليلته ، وكذا أبوه وجده كلهم يعرفون بالأفلس •
 وعاد المجتمع المكي الى لهوه وعبه وسمره ، وراحت كل قبيلة
 تنحصر بنيتها في مظالمهم ، فكان أشراف القوم يغتصبون حقوق
 الغرباء الوافدين الى الحرم فلا يجد المظلومون ناصرا ولا وليا ،
 وراح الأرقاء يقومون بأشق الأعمال بالنهار والفتيات بأحط الأعمال
 في الليل ، ليضعوا في أيدي السادة أموالا ينفقونها على القيان
 والخمر والميسر وفي دور البغايا •

وهجر محمد بن عبد الله المجتمع المكي بشروره ووثنيته وعصبيته
 ومظالمه • كان اذا ما انتهى من عمله اعتزل الناس وهام في الوجود
 ليتطلع الى عرش فوق تاج الشمس ، عرش النور الذي لا يأفل
 ولا يغيب يستلهم منه نور اليقين ، فقد اختار العزلة في نور النور
 لينفرد بالأنس به والاتجاه اليه ، ويقتبس من فضله علما وحكمة •
 كان يقلب وجهه في السماء في صمت ، وان كانت كل جوارحه
 في أعماق صلاة ! ، فما آن بعد أوان ازاحة الصمت عن فمه ، فشدو
 الطبيعة لم يزل في سمعه صداها ، وجمال الكون في عينيه انبهارا ،
 بيد أن غايته فوق أدراك العيون كل العيون ، وفوق أدراك الخيال كل
 الخيال •

كان الوجود فى جوارحه ترنيمة قدسية ، ولو كان شاعرا لتغنى بما تهلت به الحواس • ولكنه كان وراء جوهر الحقيقة ، روح الحق ، ذات الذوات ، فراح يغوص فى أعماق الأعماق ويخلق فوق السموات لتسكن الجوارح الى قواعد الأشياء وتسلم بها ، وليهم القلب الى الحكمة والتفويض حتى يكون الرضا بما يكون كيفما يكون •

ان نفسه تواقة الى طلب العلم الحق ، وهو يبنى أن يذوقه من منابعه الغزيرة التى تفيض بالسقى • وقد بدأ يحس فى صميم وجدانه أن رب الكون لا يعطى العلم من لا يسأله ، ولا يلهمه لمن لا ينتقيه ، فراح يجتهد فى سؤاله ويجاهد فى سبيل تقواه والخضوع له والرغبة فيه ليشرح له صدره بالعلم • وينير له قلبه بالفهم ونور اليقين •

وفى عزلته راح يفكر فى الموت وما بعد الموت ، فى عبد الله وآمنة وعبد المطلب وكل الذين ذهبوا دون أوبة ، ترى ماذا بعد الموت ؟ انه يعجز عن اماطة اللثام عن ذلك السر وأن استشعر فى أعماق ذاته أن أستار سر الوجود تكاد أن ترتفع عن الحقيقة ، انه فى طريقه الى الخير الأسمى وسينفذ الى سر الأزلية ، وعندها سترتفع الحجب عن كل ما فى الوجود من أسرار •

انه فى ساعات تأمله يعيد نسيج نفسه بالعلم والنور والحكمة التى يستمدّها من الذات العلية ، من الحقيقة المقدسة ، وانه ليتحمّل كل مشقة وكل ألم وحرمان فى صبر عجيب ليصبح الانسان الكامل ، خير البشرية ، الذى يتلقى وحى السماء ليلبّغه لأهل الأرض •

وكان الفجار الآخر هو حديث النوادي فى مكة بعد أن تم

الصلح بين كنانة وقريش وبين هوازن ، وكان كل رجل منهم يحدث حديثه في فخر أو أسى أو ندم ويروى ما علق في ذهنه من الأشعار الكثيرة التي أنشدت في تلك الأيام .

كان ابن محمية أخو بنى الدئل بن بكر في نادى قومه يروى في ندم ما فعله يوم الحزيرة آخر أيام الفجار ، قال :

— كان الرجل يلقي الرجل أو الرجلين أو أكثر من ذلك أو أقل فيقتلون ويقتل بعضهم بعضا ، وبيننا كنت سائرا لقيت أخا خدأش ابن زهير بالصفاح بين حنين وأنصاب الحرم على يسار الداخل الى مكة من عرفات ، فتذكرت ما قاله خدأش فينا من هجو ، فرفعت سيفي لأقتل الرجل فقال :

— جئت معتمرا .

وكانت دماء الغضب قد ثارت في عروقي فقلت :

— لا يلقي الدين أن قلت معتمرا .

وعدوت عليه فقتلته ، ولما رأيته جثة هامدة تحت قدمي أعتراني ندم ، واقشعر جلدى خشية غضب الاله أن قتلت من جاء معتمرا بيغى وجهه ، فقلت :

اللهم ان العامري المعتمر لم آت فيه عذر المعتذر

وراح ابن محمية يروى ما قال من شعر ، بينا كان رجل يقص في ناد آخر حول الحرم بعض ما كان في يوم الحزيرة قال :

— ثم ان الناس تداعوا الى السلم على أن يثرى الفضل من القتلى التي فيهم أى الفريقين أفضل على الآخر ، فتواغدا عكاظا ليتعادوا القتلى ، وتعاقدوا وثائقوا أن يتموا على ذلك ، وجعلوا بينهما موعدا يلتقون فيه لذلك ، فأبى وهب بن متعب ما اتفق عليه

الفريقان ، وحالف على قومه وجعل لا يرضى بالصلح حتى يدركوا
ثأرهم ، فلما رأى أمية بن جندعان بن الأشكر عناده قال :
المراء وهب وهب آل متعبنة
مل الغواة وان يماطك يملك
يسعى يعوذها بجزل وقودها
واذا تعامى صلح قومك فاعمل

واندس وهب يزين لهوازن نقض الصلح حتى مكرت هوازن
يكنانة وهم على رأس الصلح ، فبعثت خيلا عليها سلمة بن شعبل
البكائي وخالد بن هوذة فيهم ناس من بنى هلال ، وريسهم ربيعة
بن أبي طبان ، وناس من بنى نصر عليهم مالك بن عوف ، فأغاروا
على بنى ليث بصحراء النعيم وهم غازون فقاتلوهم ، وجعل مالك
يقاتل ويرتجز وهو أمرد يقول :

— أمرد يبدى حلة شيب اللها •

فقتلت بنو مدلج يومئذ عبيد بن عوف البكائي وسبيع بن أبي
المؤمل من بنى محارب ، ثم انهزمت بنو ليث فاستحرق القتل ببني
المالوح بن يعمر فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، وساقوا نعماً ، ثم أقبلوا
فعرضت لهم خزاعة وطمعوا فيهم فقاتلوهم ، فلما رأوا أنه لا بد
لهم منهم قالوا :

— عرضونا من غنيمتكم عراضة •

فأبوا فخلو سبيلهم •

ثم أن الناس تداعوا الى الصلح ورهنوا أوهانا للوفاء بديان من
كان له الفضل في القتلى ، وتم الصلح ووضعت الحرب أوزارها •
وفى حلقة أخرى كان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وعثمان بن

عفان ورجال من بنى عبد شمس وبنى أمية يتحدثون عن فضل عتبة فى حقن الدماء ، ورثاء أبى سفيان بن أمية أخى حرب ، وسرعان ما طوى الرثاء ليتحدث الناس فى فخر عن العنابس أسود بنى أمية الذين أبوا أن يزولوا يوم شرب ، فكان لهم النصر فى ذلك اليوم .

وفى حلقة أخرى كان بنو مخزوم مجتمعين يتحدثون حديث الحرب وفيهم خالد بن الوليد ، وكان فتى لم يبلغ الحلم يصغى الى الحديث فى انتباه ، فحديث القتال والكر والفر واللعب بالسيف يستهويه ، فلعبة الفرسان كانت حتى ذلك الوقت لعبته المفضلة ، وهو فى شوق الآن الى أن يخرج مع الرجال للقتال عوضا عن الخروج مع فتیان الحى الى شعاب مكة وجبالها لممارسة لعبة الحرب .

وكان فى حجر الخطاب بن نفيل عمر بن الخطاب يصغى الى حديث القوم ، فأبواه يصحبه الى نوادى قومه والى الحرم والى أعياد الآلهة فثب متعصبا لدينه ، فهو يخشى عليه الفتنة التى يريد زيد بن عمرو بن نفيل أن يبعثها فى صبيان بنى مخزوم وشبابها .

وراح الناس يتحدثون عما فعله أبو ربيعة وكيف حارب برمحين ، وراح الشعراء يتغنون بشجاعة ذى الرمحين وبنى المغيرة جميعا ، فانبسطت أسارير أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) فهو يزهو بنسبه ويطمع فى أن ترفع الأقدار قبيلته فوق بنى هاشم وبنى أمية ، اللحيين اللذين ينافسان بنى المغيرة أشد المنافسة .

والثقت بنو تميم حول عبد الله بن جدعان وفيهم أبو قحافة وابنه عتيق ، عبد الكعبة (أبو بكر) وكانوا فى سرور ، فأيام الفجار قد انتهت بأن تصالح الناس على أن تترك أسلحتهم عند ابن جدعان فى

الأشهر الحرم حتى لا يكون فيها قتال ، فازداد بنو تميم شرفا على شرف .

وراح شيوخ بنى تميم يتحدثون فى الانساب والديات ، فأدلى أبو بكر بدلوه بين الدلاء ، فلم يعد يكتفى بأن يلقى سمعه الى الأحاديث بل أصبح يشارك فيها بآرائه ، بعد أن اشتهر بمعرفته للأنساب وحسن أحكامه فى الديات .

وفى ركن من الحرم اجتمع بنو أسد بن عبد العزى وكان حكيم ابن حزام قطب الرحى ، فقد كان بين الرهاقن الذين قدمتهم قريش لهوازن وفاء بعهدهما بعد أن عرض عتبة بن ربيعة الصلح ، وكان الزبير بن العوام طفلا صغيرا فى حجر عمه ، فقد قتل أبوه العوام ابن خويلد فى أيام الفجار ، وحزن عليه بنو أسد وبنو هاشم حزن الشكى على وحيدها .

واجتمع بنو هاشم فى ظل الكعبة حيث كان يجلس عبد المطلب ، وراح الزبير بن عبد المطلب يقص ما أهاج الفجار وما قيل فى كل يوم من أيامها من شعر ، وأبو لهب وحمزة والعباس وأبو طالب وبنوه وشيوخ بنى هاشم وشبابهم يصغون الى حديثه ويشاركون فيه .

وشرد أبو طالب طويلا ثم راح يتحدث عن بركة ابن أخيه عبد الله ، فما حضر محمد يوما من أيام قريش الا كتب لها فيه النصر ، وما استكى قومه من الجفاف ورفع يديه الى السماء حتى هطك الغيث بالحيا .

وراحت الأهواء تعبت بوقائع الأحداث كما تشاء ، تنسب فضلا الى من ليس له فضل وتسلم الناس أثسيائهم ، وراح الشعراء ينتشدقون بما لم يفعلوه ، ويزجون المديح الى كل من

وضع الذهب فى أكفهم أو ملاً بالطعام بطونهم ، فما كان للحقائق وزن ، وكانت الأموال تهون فى سبيل وضع أكاليل الغار — وان كانت من زيف — على هامات القبائل وساداتها •

وجاء رجل من زبيد الى مكة بسلعة له فباعها من العاص بن وائل ، فظلمه ثمنها ، فراح يطوف على بنى عبد الدار وجمع وسهم ومخزوم وأميه ، فيسألهم أن يعينوه على العاص بن وائل ، فزجروه وعبسوا فى وجهه وأبوا أن يغلبوه على العاص ، فلما نظر الى سلعته قد حيل دونها رقى على جبل أبى قبيس وقريش فى أنديتها فصاح بأعلى صوته :

يا لفهر لظلم بضاعته	ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أئعث لم يقض عمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
هل قائم من بنى سهم بخفرتة	وعادل أو ضلالك ماك معتمر

وبلغ الصوت آذان الزبير بن عبد المطلب فهب شائراً وقال :

— ان هذا الأمر لا ينبغى لنا أن نمسك عنه •

وعزم ابن عبد المطلب أن يجمع قريش لئيتحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وأن لا يغبن ظالم مظلوما ، فراح يطوف فى بنى هاشم وزهرة وأسد وتيم ومخزوم وأميه وهو يقول :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم	وان كنا جميعاً أهك دار
نسميه الفضول اذا عقدنا	مقربة الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أننا	أبابة الضيم نمنع كل عار

واجتمع بنو هاشم وتيم وزهرة وأسد فى دار عبد الله بن

جدعان ، وصنع لهم طعاما كثيرا • وكان فى القوم محمد بن عبد الله وأبو بكر صديقه الوفى الحميم ، وكان محمد منشرح الصدر فهو يشهد مولد حلف من أفضل أحلاف قریش ، فما اجتمعوا الا ليتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلم حتى تدفع عنه مظلمته •

انه يمقت البغى ويكره الظلم ، وانه ليرى فى هذا الاجتماع خطوة نحو غاية أسمى وهى رفع الظلم عن أنفسهم بعد أن يرفعوه عن الناس ، فهم أنفسهم يظلمون بعبادة الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها شيئا •

انه يجب العدل ، وان اجتماع قومه على أن يتعاهدوا ويتحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، يثلج صدره ويملا جوانحه رضا •

وراحوا يقسمون بالله ليكونن يدا للمظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما رسا حراء وثبير فى مكانهما •

ثم عمدوا الى ماء زمزم فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أثوا به فشربوه ، ثم انطلقوا الى العاص بن وائل والزبير بن عبد المطلب يقول :

ان الفضول تحالفوا وتعاهدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمظلوم فيهم سالم

ووقفوا على رأس العاص وقالوا :

— والله لا نفارقك حتى تؤدى اليه حقه •

فأعطى الرجل حقه ، فمكتوا كذلك لا يظلم أحد حقه بمكة
الا أخذوه له ، فكان عتبة بن ربيعة يظهر الندم لعدم دخول بنى
عبد شمس فى ذلك الحلف بقوله :

— لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من بنى عبد
شمس حتى أدخل فى حلف الفضول •

وقدم رجل من خثعم مكة تاجرا ومعه ابنة له يقال لها القبول ،
أوضأ نساء العالمين ، فلما رآها نبيه بن الحجاج بن عامر السهمي
بهره جمالها ، فراح يلف حولها ويدور ، ولم يبرح حتى نقلها اليه
وغلب أباه عليها •

ولم يدر الرجل ماذا يفعل فى ذلك الغاصب فقيل له :

— عليك بحلف الفضول •

فأتاهم وشكا ذلك اليهم ، فأتوا نبيه بن الحجاج وهو بناحية
مكة وهى معه ، وقالوا :

— أخرج ابنة هذا الرجل والا فاننا من قد عرفنا •

فقال :

— يا قوم متعونى بها الليلة •

— قبحك الله ما أجهلك لا والله ولا شخت لقحة •

فأخرجها اليهم فأعطوها أباه ، وركب معهم الخثعمي •

لم تكن فى مكة حكومة ، كان القوى يلوى حق الضعيف ، وكان
السيد يأكل ما يشتهى من حقوق ، وكانت القبائل تساند أبناءها

— ٢٥٦ —

فى ظلمهم ، فرأى محمد بن عبد الله فى حلف الفضول خطوة على طريق العدل والأمن والسلام ، فكان تأييده لذلك الحلف تأييدا مطلقا ، حتى انه قال فيه بعد أن جاء لقومه بشريعة العدل المطلق والأمن الأسمى والسلام وسعادة الدارين :

— شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إليه فى الاسلام لأجبت •

التذيل

حاولت فى هذا الجزء كما حاولت فى الأجزاء السابقة على قدر جهدى أن أمحص الروايات المتباينة ، وأن أستبعد الآراء التى لا تتفق مع منطق الحوادث وجمال الرسول الكريم حتى فى أيام طفولته وشبابه قبل مبعثه ، وحاولت ألا أتأثر بأى رأى حتى لو أجمعت عليه كل كتب السيرة العربية أو أغلبها قبل أن أدرسه دراسة فاحصة مقارنة وأستريح إليه •

وقد استبعدت بعض الأحداث التى ليس لها أثر فى تكوين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم • قال : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كنا قد تعرى وأخذ أزاره وجعله فى رقبتة يحمل عليها الحجارة ، فانى لأقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكنى لاكم (أى من الملائكة) ما أراها لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك أزارك • فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وأزارى على من بين أصحابى •

ولم أرو فى السيرة مثل هذه الحادثة لأنها ليست ذات دلالة فى حياة الرسول ، ولوضوح أثر الوضع فيها ، فان كانت قد وقعت فى طفولته فكيف تتكرر فى شبابه ، ثم قبل مبعثه بسنوات قليلة ؟

زعم كتاب السيرة أن قد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك عند إصلاح أبى طالب لززم ، فعن ابن اسحاق أيضا قال : كان أبو طالب يعالج ززم ، وكان النبى (ص) ينقل الحجارة وهو (اليتيم)

غلام ، فأخذ ازاره وانتقى به الحجارة فغشى عليه ، فلما أفاق سأل
أبو طالب فقال : آتاني آت عليه ثياب بيض فقال لى : استتر *
فما رؤيت عورته من يومئذ *

وعاد ابن اسحاق يروى كيف نهى (ص) عن التعرى وكشف
العورة ، من قبل أن يبعث بخمس سنين عند بنيان الكعبة *

والنهى عن التعرى قد يكون مقبولا وهو فى صباه ، أما وهو
غلام * أما وهو رجل على أعتاب الرسالة فشىء غير مقبول
ولا معقول * والحادثة فى ذاتها غير ذات بال ، وقد سقتها لأدلل
على أن ابن اسحق وغيره من كتاب السيرة كانوا يسجلون كل
ما يصل اليهم من آراء دون نقد أو تمحيص ، لذلك ماجت كل كتب
السيرة بالقيم والغث ، بالراجح والمرجوح ، وبالصحيح والخطأ
والضعيف *

ومن أمثلة التضارب فى الروايات ما جاء عن بركة الحبشية
جارية عبد الله ، فالجلال السيوطى يقول فى الخصائص الصغرى :
ترك عبد الله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، أسلمت قديما هى
وولدها أيمن ، وكان من عبد حبشى يقال له عبيد * ويقول ابن
الجوزى : ان النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها حين تزوج خديجة
وزوجها عبيد الحبشى ابن زيد من بنى الحارث ، فولدت له أيمن ،
وجاء فى الاصابة فى تمييز الصحابة : كانت أم أيمن تزوجت فى
الجاهلية بمكة عبيدا الحبشى ابن زيد ، وكان قدم مكة وأقام بها ،
ثم نقل أم أيمن الى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها فرجعت
الى مكة فتزوجها زيد بن حارثة * وقال البلاذرى : وقد زوجها صلى
الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة ، وانما رغب زيد فيها لما سمعه

صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأُم أيمن ، فجاءت منه بأُسامة • فكان يقال له الحب ابن الحب • وقيل : أعتقها عبد الله قبل موته • وقيل : كانت لأُمه صلى الله عليه وسلم •

وقد وقفت طويلا عند بركة الحبشية وقد خالجنى شك في أن تكون بركة هي أم أيمن ، فقد قيل أن أم أيمن كانت من مرضعه وكانت حاضنته ، فلو وضعنا بركة على مقياس الزمن لوجدنا أنها كانت في الرابعة عشرة على أقل تقدير يوم مولده صلى الله عليه وسلم ، والا لتعذر عليها أن ترضعه ، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد زوجها مولاه زيد بن حارثة بعد الاسلام ، فمعنى ذلك أن عمرها في ذلك الوقت كان قريبا من الستين أو الخامسة والخمسين على أحسن الظروف ، والمألوف أن من كانت في مثل هذه السن لا تصلح لانجاب ذرية ، فكيف جاءت من زيد بأُسامة ؟

هل بركة جارية حبشية لأبيه عبد الله وأنها غير أم أيمن ؟ هناك قول يقول : أن الحبشية إنما هي بركة أخرى جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة ، وكانت تكنى أم يوسف ، كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم • ترى هل اختلط الأمر على الرواة ؟ أظن أن الأمر كذلك ، وقد حرصت في هذا الجزء أن أروي قصة بركة الحبشية جارية عبد الله وحضانتها لمحمد صلى الله عليه وسلم بعد موت أمه ، ولم أخلط بينها وبين أم أيمن ، وسأروي قصة أم أيمن عندما أقص قصة خديجة بنت خويلد •

قد يحتج على ذلك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لأُم أيمن : « أنت أُمى بعد أُمى » ويقول « أُم أيمن أُمى »

وأظن أن ذلك الحديث ضعيف مثل ضعف الحديث الذي يروى عن عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على قبر أمه بالحجون بمكة ، فالمعروف أن قبر آمنة بالأبواء ، ومن ذلك الحديث قال الطبرى : ان قبر آمنة بشعب أبى ذر بمكة • وقال آخر : ان آمنة دفنت بالحجون بشعب أبى ذؤيب •

ودارس السيرة يرتطم بالاختلاف البيّن بين المؤرخين وكتاب السيرة ، فما من حادثة واحدة قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتفقوا عليها ، فبيننا أحدهم يقول ان محمدا (ص) قد ولد بعد موت أبيه ، فهناك من يقول ان عبد الله قد مات وعمر ابنه سنتان • ويقول أحدهم أن آمنة ماتت قبل جده عبد المطلب • ويقول آخرون ان عبد المطلب مات قبل آمنة • ولهؤلاء الكتاب العذر كل العذر فقد كانوا يعتمدون على الرواة ، فما عرف العرب قبل الرسالة التدوين ، ولولا القرآن ما كان للعرب تاريخ •

وقد أخذت فى ترتيب الحوادث بالمشهور والمتواتر ، وتركت كل غريب ما لم يكن ذلك الغريب يتفق مع منطق الأحداث ، ففي هذه الحالة كنت أفضله على المتواتر الذى يتنافر مع الحوادث ولا يتلاءم مع طبيعة الرسالة والرسول •

واهتم كاتب السيرة بقصة بحيرا الراهب وأفردوا لها فصولا وجعلوا مناديا (من الملائكة !) ينادى ويقول : ألا ان خير أهل الأرض ثلاثة : رباب بن البراء ، وبحيرا الراهب ، والثالث المنتظر ، يعنى النبى (ص) ؛ ذكره ابن قتيبة ، وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش وهو المطر الخفيف !

وانى أحلف يمينا على عدم صحة هذا الكلام كما حلف الذهبى

يمينا على عدم صحة حديث عائشة الذي جاء فيه أن النبي (ص) قال : « ذهبت لقبر أُمى فسألت ربى أن يحييها فأحيها فأمنت ورضاها الله » .

ان كتب السيرة تروى قصصا كثيرة كقصة بحيرا ، فما أكثر القصص التى تدور حول رهبان رأوا محمدا (ص) فى صباه وعرفوا أنه النبي المنتظر ، وان قصة بحيرا لا تزيد ولا تنقص عن أية قصة من تلك القصص ، ولكن المستشرقين وقفوا طويلا عند قصة بحيرا وحاولوا أن يؤكدوا أن بحيرا هو الذى وضع فى رأس محمد (ص) شجرة النبوة والرسالة . ومن الغريب أنهم حاولوا أن ينكروا قصص الارهاصات بالنبوة كلها الا قصة التقاء محمد بالراهب الذى كان فى صومعته على بعد ستة أميال من بصرى .

إذا كان المسلمون — كما يقول المستشرقون الذين درسوا حياة محمد — هم الذين وضعوا قصص الرهبان الذين تنبثوا برسالة محمد (ص) ليؤكدوا دينهم ، فلماذا يصرون على تمحيص قصة لقاءه ببھيرا ؟ اما أن تكون هذه القصص موضوعة كلها بما فيها قصة بحيرا ، واما أن تكون صحيحة كلها بما فيها قصة بحيرا ، أما أن ننكر كل القصص الا هذه القصة فأمر غير مفهوم ، ومن العجيب أن المستشرقين الذين ينكرون الارهاصات التى سبقت مولد محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه ، هم أنفسهم الذين يتحدثون عن البشارات التى سبقت مولد السيد المسيح كأنما كانت البشارات وفقا على رسول دون رسول !

انها مسألة اقرار مبدأ ، فاما أن نعترف بالارهاصات كلها واما أن ننكرها كلها ، مثلها مثل الوحي ، فإذا كان الوحي قد نزل على

ابراهيم وموسى وعيسى ، فلماذا لا ينزل على محمد ؟
وعندى أن لقاء بحيرا بمحمد صلى الله عليه وسلم لا أهمية
له فى حياة محمد ، فقد كان محمد صغيرا وكان لقاء عابرا لم
يتيسر فيه أن يلقن بحيرا محمدا (ص) أصول دين قويم كالدين
الاسلامى ! أنه لمن السخرية بالعقول أن يقال ان بحيرا قد ألهم
محمدا الحكمة والايمان والكتاب فى بضع ساعات تناولت فيها قريش
الطعام الذى أعده لهم بحيرا ؛ وانى أعتقد أن من حسن طالع
بحيرا أن التقى بالرسول الكريم ، والا لاندثر اسمه كما اندثر
أسماء آلاف الرهبان من قبله ومن بعده .

وسواء أكان بحيرا حقيقة واقعة أم كان من نسج خيال كتاب
السيرة . فما كان له من أثر فى محمد بن عبد الله وما ألهمه الرسالة ،
ولو كان عند بحيرا قبس من العلم الذى كان عند محمد صلى الله
عليه وسلم ، ما اعتكف فى صومعته ولخرج لهداية البشر .

وقد ظهرت طائفة من النساك قبيل بعثة محمد صلى الله عليه
وسلم كانت تبحث عن دين ابراهيم الخليل ، فعرفت الله الواحد
وهجرت عبادة الأصنام ولم تعتنق اليهودية ولا النصرانية ، وعرفت
هذه الطائفة بالحنفاء ، ولم يكن الحنفاء على رأى واحد ودين
واحد ، بل كان كل منهم يجتهد فى الاهتداء الى الله وعبادته على
طريقته ، حتى ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول : والله ما أحد
على دين ابراهيم غيرى !

لم تكن كلمة الحنفاء تعنى ديانة معينة ولا جماعة معينة ، فهى
ليست اسم علم انما هى صفة أطلقت على من عرف بنبذه الشرك
وميله للتوحيد ، ولو كانت ديانة خاصة كالصابئة واليهودية

والمجوسية لذكرت فى القرآن مع هذه الديانات التى أشار اليها كثيرا القرآن الكريم •

ولم يكن لهؤلاء الحنفاء أثر أى أثر فى ظهور الاسلام ، ولكن قبائل هؤلاء الحنفاء قد أضافوا اليهم فى عصر التدوين بعد الاسلام بسنين أفعالا وأشعارا توحى بأن الاسلام قد تأثر بأقوال بعضهم ، أو اقتبس من أفكارهم وأخذ عنهم ، وقد يكون ذلك بحسن نية أو لاثبات فخر للقبيلة تنبيه به على القبائل الأخرى • وقد كانت القبائل تنفق الأموال على الرواة ليرووا أن شاعرا من شعرائها قد روى شعره أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان فى ذلك شرف للشاعر وشرف للقبيلة التى تزهو به على القبائل كلها ، من ذلك ما جاء فى الأغاني من أن أبا نهشل قال :

— قال لى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وجئته أطلب منه مغرما : يا خال ، هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة :

ألا الله قوم و	لدت أخت بنى سهم
هشام وأبو عبد	مناف مدره الخصم
وذو الرمحين أشبال	على القوة والحزم
فهذان يذودان	وذا من كذب يرمى

وقل : سمعت حسان ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أعوذ بالله أن أفترى على الله ورسوله ، ولكن ان شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت ، فقال : لا ، الا أن تقول : سمعت حسان ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، فأبى على وأبيت عليه ، فأقمنا

لذلك لا نتكلم عدة ليال ، فأرسل الى فقال : قل أبياتاً تمدح بها
هشاماً — يعنى ابن المغيرة — وبني أمية ، فقلت : سمّهم لى ،
فسماهم وقال : اجعلها فى عكاظ واجعلها لأبيك : فقلت :

ألا لله قوم و لدت أخت بنى سهم

ثم جئت فقلت : هذه قالها أبى ، فقال : لا ، ولكن قل : قالها
ابن الزبعرى ، قال : فهى الى الآن منسوبة فى كتب الناس الى
ابن الزبعرى •

قال الزبير بن بكار : وأخبرنى محمد بن الحسن المخزومى
قال : أخبرنى محمد بن طلحة أن عمر بن أبى ربيعة قائل هذه
الأبيات •

وعمر بن أبى ربيعة هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بن
المغيرة ، فمدحه لأهله آل المغيرة ليس كمدح غيره لهم ، ولو أن
هذا الشعر قد نسب الى حسان بن ثابت ، ولو أن الرواة قبلوا
أن يقولوا أن حسان أنشد هذا الشعر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، لعلا ذكر بنى المغيرة ولكانوا كما قال عنهم حفيدهم عمر بن
أبى ربيعة :

أسود تزدهى الأقرا ن مناعون للهضم
وهم يوم عكاظ ما نعو الناس من الهزم

فان كانت أربعة آلاف درهم تدفع ليقول قائل : ان أربعة أبيات
من الشعر قد أنشدها حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم
يدفع للرواة لينسبوا أفعالا أو لينتحلوا أشعارا لأناس من قبائلهم
عرفوا الله الواحد القهار قبل الاسلام ، بل وعرفوا الجنة والنار
والبعث والحساب قبل أن ينزل بها القرآن !

وانى سأحاول فى الصفحات التالية أن أثبت أثر الوضع فيما نسب لهؤلاء الحنفاء من أقوال ، وسأبدأ بقس بن ساعدة •

جعل الاخباريون قس بن ساعدة الأيادى من المعمرين الذين عاشوا سبعمائة سنة أو خمسمائة سنة على أقل تقدير ، وقالوا انه اتصل بسمعان رأس حوارى السيد المسيح ، ولو أخذنا بهذا الزعم لأخرجنا قسا من الحنفاء وجعلناه فى النصارى الذين كانوا على دين ، وقال بعض الاخباريين ان قس بن ساعدة انطلق الى القيصر ، وأن القيصر أكرمه وسأله عن العلم ، قال :

— ما أفضل العلم ؟

قال قس :

— معرفة الرجل بنفسه •

— ما أفضل العقل ؟

— وقوف المرء عند علمه •

— فما أفضل الأدب ؟

— استبقاء المرء ماء وجهه •

— ما أفضل المروءة ؟

— قلة رغبة المرء فى أخلاف وعده •

— فما أفضل المال ؟

— ما قضى به الحق •

ومثل هذا الكلام منتشر فى كتب الأدب العربى ، وله أصل يرجع الى فلاسفة اليونان ، وأثر الوضع فيه وأضح •

وقيل : ان قس أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، ولا غرو فهو قد اتصل بحوارى السيد المسيح ونهل من الدين القيم قبل أن

يختلط بأساطير الشعوب ، وأول من توكأ على سيف أو عصا ،
وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول ما قال « أما بعد » ،
وأول من كتب « البينة على من أدعى واليمين على من أنكر » .

وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن
الرسول روى كلامه وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته ، وعجب
من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه ، وأنه قال فيه : « يُحْشَرُ أمة
وحده » .

وسأذكر الحديث من وجوهه المختلفة لنرى فيه رأيا .
قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه
هواتف الجان : حدثنا داود القنطري ، حدثنا عبد الله بن صالح ،
حدثنا أبو عبد الله المشرقي عن أبي الحارث الموراق عن ثور بن يزيد
عن موري العجلي عن عبادة بن الصامت ، قال : لما قدم وفد أياد
على النبي صلى الله عليه وسلم : قال : يا معشر وفد أياد ، ما فعل
قيس بن ساعدة الأيادي ؟ قالوا : هلك يا رسول الله . قال : لقد
شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر ، يتكلم بكلام معجب موق
لا أجدني أحفظه .

فقام إليه أعرابي من أقاصى القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول
الله . قال : فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال : فكان بسوق
عكاظ على جمل أحمر ، وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل
من فأت فأت ، وكل شيء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ،
وبحر عجاج ، نجوم تزهز ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، أن
فى السماء لخبرا ، وأن فى الأرض لعبرا . ما لى أرى الناس يذهبون
فلا يرجعون ؟ أرضوا بالاقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم

قس بالله قسما لا ريب فيه ، أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ،
ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولي	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يمضي الأصغر والأكابر
لا من مضى يأتي اليها	ك ولا من الباقيين غابر
أيقنت أني لا محصا	له حيث صار القوم صائر

وهذا اسناد غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الطبراني من وجه
آخر ، فقال في كتابه المعجم الكبير :

حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي ، حدثنا
محمد بن حسان السهمي ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجاهد عن
الشعبي عن ابن عباس ، قال :

قدم وفد عبد القيس على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادي ؟ قالوا : كلنا يعرفه يا رسول
الله • قال فما فعل ؟ قالوا هلك • قال : فما أنساه بعكاظ في الشهر
الحرام ، وهو على جمل أحمر ، وهو يخطب الناس وهو يقول :
يا أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات
فات ، وكل ما هو آت آت ، ان في السماء لخبرا ، وان في الأرض
لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار
لا تغور • وأقسم قس قسما حقا لئن كان في الأمر رضى ليكون
بعده سخط • ان لله لدينا هو أحب اليه من دينكم الذي أنتم عليه •
ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟

أَمْ تَرَ كَوْنَهُمْ أَفْئِدَةً ؟ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَفْئِدَةً
مَنْ يَرَوِي شَعْرَهُ ؟ فَأَنْشَدَهُ بَعْضُهُمْ :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأُولَى — نَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ

وَهَكَذَا أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ مِنْ طَرِيقِ
مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانِ السَّلْمِيِّ بِهِ • وَقَدْ كَذَبَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ
الرَّازِيُّ وَالِدَارِقُطْنِيُّ ، وَاتَّهَمَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْنُ عَدَى بِوَضْعِ
الْحَدِيثِ •

وَقَدْ رَوَاهُ الْبَزَّازُ وَأَبُو نَعِيمٍ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَجَّاجِ ، وَرَوَاهُ
ابْنُ دُرُسْتَوَيْهِ وَأَبُو نَعِيمٍ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ ، وَفِيهِ : أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي أَوْرَدَ الْقِصَّةَ بِكَمَالِهَا نَظْمًا وَنَثْرًا
بَيْنَ يَدَيِ الرَّسُولِ •
وَابْنُ الْكَلْبِيِّ عَرَفَ عَنْهُ أَنَّهُ قِصَاصٌ ، وَلَا أَقُولُ : كَذَابٌ كَمَا يَقُولُ
عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ •

وَأَخْبَرَنَا الشَّيْخُ الْمُسْنَدُ الرَّحْلَةُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْحَجَّارُ
أَجَازَةً أَنْ لَمْ يَكُنْ سَمَاعًا ، قَالَ : أَجَازَ لَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَلِيٍّ الِهْمْدَانِيُّ ،
قَالَ : أَخْبَرَنَا الْحَافِظُ أَبُو طَاهِرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
السَّلْفِيِّ سَمَاعًا ، وَقَرَأْتُ عَلَى شَيْخِنَا الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الذَّهَبِيِّ ،
أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْخَلَّالُ سَمَاعًا ، قَالَ :
حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَلِيٍّ سَمَاعًا ، قَالَ : حَدَّثَنَا السَّلْفِيُّ سَمَاعًا ، حَدَّثَنَا
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّازِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ
مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عِيْسَى السَّعْدِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ
أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقْرِيءُ ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ
دُرُسْتَوَيْهِ النَّحْوِيُّ ، قَالَ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ

السعدى — قاضى فارس — حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائى من أهل حران ، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن اسحاق ، حدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش ابن معلى العبدى نصرانيا ، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالما بسير الفرس وأقاويلها ، بصيرا بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال ، وأنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وافدا فى رجال بنى عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان ، فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وقف بين يديه ، وأثار اليه وأنشأ يقول :

يا نبى الهدى أنتك رجال
قطعت فدفدا وآلا
وطوت نحوك الصحاح تهدي
لا تعد الكلال فيك كاللا
كل بهماء قصّر الطرف عنها
أرقلتها قلاصتا أرقالا
وطوتها العتاق يجمع فيها
بكماة كأنجم تتللا
تبتغى دفع بأس يوم عظيم
هائل أوجع القلوب وهالا
ومزادا لمحشر الخلق طرا
وفراقا لمن تمادى ضلالا

نحو نور من الاله وبرها
 ن وبر ونعمة أن تتالا
 خصك الله يا بن آمنة الخيب
 ر بها اذ أتت سجالا سجالا
 فاجعل الحظ منك يا حجة الله
 ه جزيلا لا حظ خلف أحالا

قال : فأدناه النبي صلى الله عليه وسلم وقرب مجلسه ، وقال
 له : يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك • فقال الجارود :
 فذاك أبى وأمى • أما من تأخر عنك فقد فاتته حظه ، وتلك أعظم
 حوبة ، وأغلظ عقوبة ، وما كنت فيمن رآك ، أو سمع بك فعداك ،
 واتبع سواك ، وانى الآن على دين قد علمت به قد جئتكَ ، وها أنا
 تاركة لدينك ، أفذلك مما يمحس الذنوب ، والمآثم والحبوب ، ويرضى
 الرب على المربوب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ، ودع عنك دين
 النصرانية • فقال الجارود : فذاك أبى وأمى ، مد يدك ، فأنا أشهد
 أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله •
 قال فأسلم وأسلم معه أناس من قومه ، فسر النبي (ص) باسلامهم
 وأظهر من اكرامهم ما سروا به وابتهجو به • ثم أقبل عليهم رسول
 الله (ص) فقال : أففيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادى ؟ فقال
 الجارود : فذاك أبى وأمى كلنا نعرفه ، وانى من بينهم لعالم بخبره ،
 واقف على أمره • كان قس يا رسول الله سبطا من أسباط العرب
 عمر ستمائة سنة ، تقفز منه خمسة أعمار ، فى البرارى والقفار ،
 يضح بالتسبيح ، على مثال المسيح ، لا يقره قرار ، ولا تكنه دار ،

ولا يستمتع به جار • كان يلبس الأمساح ، ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ، يتحصى فى سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام ، يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحدا تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد ، وأقر وتعبّد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر فى الأقدار وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكبا ، ووعظ دائبا ، وحذر من الكرب ، ومن شدة الغضب ، ورسّل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم فى خطبه ، وبين فى كتبه ، وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفر ، وشوق فى الحنيفية ، ودعا الى اللاهوتية ، وهو القائل فى يوم عكاظ :

شرق وغرب ، ويتم وضرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وانات وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمّهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى اثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر واعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشو مولود ، وواد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء ، تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أباد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى ، أما بعد : فيا معشر

اياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد ، يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ، اذا نفخ فى الصور ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر الملاحظ ، فويل لمن صرف عن الحق الأشهر ، وانور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، اذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

اذا لم يكن هذا الكلام موضوعا فماذا يكون ؟ انه يتضوع بأريج القرآن ، وانه يصرخ بأعلى صوت يعلن أنه كتب فى عهد التدوين بعد الاسلام وبعد أن نزل القرآن ، وبعد أن عرف الناس يوم الفصل وميزان العدل والجنة والسعير .

ان بعض المستشرقين يرى أن قس بن ساعدة شخصية خرافية ، وانى لا أرى هذا رأى . ويروى بعض رواة الحديث أن الحديث ضعيف ، وانى أرى أنه على الرغم من ضعفه أن له أصلا ، وأن قس ابن ساعدة شخصية حقيقية ، ولكن الرواة أضافوا اليه من المبالغات ما جعله قريبا من الأسطورة ، وأضافوا الى حديثه ما وصل اليهم من علم الاسلام ، فجاء كأنما كان يستمد أصوله بل ألفاظه من القرآن الكريم .

وجعل لبيد لقمان دون قس فى الحكم ، قال :
وأخلف قسّاً نيتنى ولعلنى وأعيا على لقمان حكم التدبر
وقال الأعشى :

وأحلم من قس وأجروى من الذى
بذى الغيل من خفان أصبح جاردا

وقال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى
من الريح اذ مس النفوس نكالها

وكان زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد
الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر
من الحنفاء ، فهو من قريش من بنى عدى ، وهو شخصية لا شك
فيها قابنه سعيد بن زيد تزوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن
الخطاب ، وكان زيد رابع من أسلم ، ولعل من أسباب سبقه إلى
الدخول فى دين الله ما كان يسمعه من أبيه من تسفيه أحلام قومه
ولومهم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

وقد قصص قصة زيد بن عمرو فى هذا الجزء ، وسأقص باقى
قصته فى الجزء التالى ، ويلاحظ أن حياته لم يكن فيها مثل المبالغات
التي رويت عن قس بن ساعدة أو أمية بن أبى الصلت ، ولعل
السبب أن قوم زيد بن عمرو قد حسن اسلامهم فطلبوا الآخرة
وأعرضوا عن الدنيا وزينتها ، ولم يبحثوا عن مجد زائف للمقبيلة
بعد أن نبذوا عصبية الجاهلية ، ولو كانوا يبحثون عن فخر دنيوى
فقد كان فى مجد عمر بن الخطاب ما يشبع نهم بنى عدى إلى المجد
والفخار .

وكان أمية بن أبى الصلت أحسن الحنفاء حظا فى بقاء الذكر ،
(اليتيم)

بقى كثير من شعره (١) وحفظ قسط لا بأس به من أخباره ، وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث واتصاله بتاريخ النبوة والاسلام اتصالا مباشرا ، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلما ولم يرض أن يدخل في الاسلام لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه فيكون نبي العرب والعالم أجمعين ، فلما رأى النبوة في الرسول حسده وأثار المشركين عليه ورثى قتلهم في معركة بدر وحرض قريشا عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الوثنيون ، لم يمت مسلما ولم يمت على دين الوثنيين من قومه بل مات كافرا بالديانتين .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية مطلعها :

هلا بكيت على الكرا
م بنى الكرام أولى المادح
كبا الحمام على فرو
ع الأيك في الغصن الصوادح

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ودفنهم في القليب ، وفيهم « عتبة » و « ثعبة » ابنا « ربيعة بن عبد شمس » وهما ابنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة أن الذي حملة على قول هذا الشعر هو أنه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر وكان ذاهبا الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ،

(١) من هنا حتى نهاية أمية بن أبى الصلت من كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على .

قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدرى ما فى هذا القليب ؟ قال : لا ، قيل : فيه شبيبة وعتبة وفلان وفلان • فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وعاد الى الطائف •

وذكر أن أمة نال فى بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها « ابن هشام » صاحب السيرة ، وذكر أيضا أن النبى نهى عن روايتهما • ولكن الرواة رووهما وحفظوهما ودونوهما فى الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظهما وتدوينهما لو صح أن النبى نهى عن روايتهما على نحو ما يزعمه أهل الأخبار •

وأمة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام واتصل بأهلها ، وآوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمهم من مشكلات دينية ، وعما كان يجول فى خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم • وكان تاجرا يذهب مع التجار فى قوافلهم الى تلك الديار التى كانت فى أيدي الروم • ثم انه كان على ما يظهر من الروايات التى وردت فى ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين ، وشكه فى عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات • وقد بدا هذا التأثير فى الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة فى شعره ، وفى الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين العهد القديم والعهد الجديد ، ومن موارد أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب •

ومما ذكره الاخباريون ورواة شعر أمة لنا أمثلة على استعماله للكلام الغريب ، أنه استعمل « الساهور » للمقرم وهى كلمة لا تعرفها

العربية ، وأنه ذكر « السلطيط » أسما لله تعالى ، وأنه أطلق كلمة « التغرور » على الله تعالى فى موضع آخر من شعره ، وأنه سمي السماء « صافورة » و « حاقورة » ، وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه باستعمال الغريب رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره . وهذا الشعر المنسوب الى أمية وغريبة خاصة مادة مهمة جدا تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء فى أخبار الرواة عن هذه الكلمات ، وعن أصولها ومواردها الأولى ان صح أنها من شعر تلك الأيام حقا . اذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة منابع التى استقى منها هذا الشاعر علمه والهامه ، ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التى كانت فى مكة وفى خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

ولا يمكن بالطبع دراسة هذه الا بالوقوف على اللغات الأعجمية : الآرامية والعبرية واليونانية والحبشية ، وهى لغات أثرت فى الجاهليين بواسطة التجارة والدين ، لاستخراج أصول الكلمات المنسوبة الى هذا الشاعر ومشابهاتها من تلك اللغات .

وقد روى الاخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج أجوبتها فى نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة يقولون له : كادت النبوة تكون فيه لولا بعض النقص فى علاماتها عنده ، كما رووا قصصا عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر لتنظيفه وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له . وقد حاكى أهل الاخبار فى قصصهم هذا ما رواه زجال السير عن علامات النبوة عند الرسول . كذلك رووا أنه كان يتفرس فى لغات الحيوان

فيعرف ما تقولوه وما تريده ويقصه على الناس ، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب ، فجعلوه بأخبارهم هذه فى مرتبة تضاهى مرتبة سليمان •

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو — بالطبع — من القصص المصنوع الموضوع مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوى القلوب الطيبة من الرواة والاعباريين فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الأسرائيليات والأساطير ، وروى على أنه مما كان يعلمه الأخبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب •

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر فى أيام الحجاج عصبية وتقربا إليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف وكان أمية من ثقيف كذلك • وقد أنتج الوضاعون فى أيامه شيئا كثيرا من الأخبار فى قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئا فى ذمها وفى ذم رجالها نكاية به •

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبا عن قومه وتحنف لبس المسوح على زى المتهربين الزاهدين فى هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ليستلهم منها العلم والحكمة والرأى الصحيح ، ثم حرم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام وصام والتمس الدين وذكر ابراهيم واسماعيل ، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افنتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : « باسمك اللهم » وهى الجملة التى نسخت فى الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » •

وفى رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة

من أصحابه ، فدعاه الى الاسلام وقرأ عليه (سورة يس) ، حتى اذا فرغ منها وثب أمية يجبر رجله فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد أنه على الحق • قالوا : فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر فى أمره • فخرج الى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ترك الاسلام ، وقال : لو كان نبيا ما قتل ذوى قرابته ، فذهب الى الطائف ومات •

وفى هذه الرواية المنسوبة الى الزهرى عن سماع أمية بن أبى الصلت بنبوة النبى وهو فى البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقاءه بالرسول ومحاجته له فى ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ثم عودته منها ، تكلف ظاهر ، وفى تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضا •

وذكر أنه كان الشخص الذى نزلت فى حقه الآية : « وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » (١) وهى آية قيل أيضا انها نزلت فى « بلعام بن باعر » أو فى زوج البسوس أو فى « النعمان بن صيفى الراهب » وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى جئت به ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام • قال : فانا عليها • فقال عليه الصلاة والسلام : لست عايتها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، فقال : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، ثم خرج الى الشام ، وأرسل الى المنافقين أن استعدادوا السلاح • ثم أتى قيصر وطلب منه جندا ليخرج النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فمات بالشام طريدا وحيدا •

وأمية كأكثر الشعراء له شعر فى المدح وله تعريض • وأكثر مدحه فى « ابن جدعان » من أجواد العرب المعروفين المشهورين فى الجاهلية • وهو فى المدح أو الرثاء أو فى كل مناسبة أخرى مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين بالأفكار الدينية ، ولمصطلحات لا ترد الا نادرا فى الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الدينى عليه ، وتأثير ما قرأه أو ما أخذه من غير العرب فيه •

ويتلخص ما جاء فى شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء فى الاعتقاد بوجود واحد خلق الكون وسواه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض وأنبت النبات فيه ، وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق فى الجنة وفريق فى النار ، يساق الجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة والأغلال ، ثم يلقي بهم فى النار يصلونها يوم الدين يبقون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن فى الموت راحة لهم ، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبدا •

وسيق الجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال

أما المتقون فانهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفايح ورماني وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وحوار لا يرين الشمس فيها ، نواعم فى الأرائك قاصرات ، على سرر متقابلات ، عليهم سندس وجياذ رينط وديباج ، حلثوا بأساور من لحيين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ،

ولا غول فيها مثليم ، وكأس لا تصدع شاربها ، يلذ بحسن رؤيتها
النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيها سئيم (١) •

ويروى أن النبي كان يسمع شعر أمية ، وأن « الشريد بن
سويد » كان ينشد له شيئاً منه في أثناء أحد أسفاره ، فكان كلما
أنشد له شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت
قال النبي له : كاد يسلم ، أو كاد ليسلم في شعره • وذكر أن
الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن
لسانه وكفر قلبه ، وأنه قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :
ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم •

وللوقوف على آراء « أمية » وعلى معتقداته الدينية ، يجب
الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام • ففي هذا
التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، نتمثل آراء
ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل البعث ، وهي آراء قريبة
جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلامياً في لفظة وفي
معناه مسبوكاً في الشعر • وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء :
آدم ونوح وقصة طوفانه :

جزى الله الأجل المرء نوحاً جزاء البر ليس له كذاب

وقصة ذي القرنين :

(١) راجع القصيدة المنسوبة اليه في وصف الجنة والنار :

جهنم تلك لا تنبغى بغيا وعدن لا يطالهما رجيم

ديوان أمية ص ٥٣ (يشير يموت) •

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما
ملكاً علا فى الأرض غير معبد

وبلقيس وحكاية الهدهد :

من قبله بلقيس كانت عمتى حتى تقضى ملكها بالهدهد
وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى
وابن عاد :

حى داود وابن عاد وموسى وقريع بنيانه بالثقال
اننى زارد الحديد على النسا س دروعا سوابغ الأذيال
وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانبا وصفه
على نحو ما جاء فى القرآن الكريم عن تكون عيسى ، مضيفا الى
ذلك زيادات فى حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها ، كما
أورد فى هذا الشعر قصة « لوط أخى سدوم » وهى من القصص
المذكورة فى التوراة :

ثم لوط أخو سدوم أتاها اذ أتاها برشدها وهداها
وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل •

وفى أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية
ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق فى الرأى
جملة وتفصيلا لما ورد عنها فى القرآن الكريم ، بل نجد فى شعر
أمية استخداما للألفاظ وتراكيب وأردة فى كتاب الله وفى الحديث
النبوى ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه ؟ هل حدث
ذلك على سبيل الاتفاق ، أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم ،
أو كان العكس ، أى القرآن الكريم هو الذى أخذ من شعر أمية
فظهرت الأفكار والألفاظ التى استعملها أمية فى آيات الله وصوره ،

فكتاب الله اذن هو صدى وترديد الآراء ذلك الشاعر المتأله ، أو أن هذا التشابه مرده شيء آخر هو تشابه الدعوتين وانفتاحهما في العقيدة والرأى ، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم هو الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل وما لهما من شروح وتفسير ، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن وفي شعر أمية بن أبى الصلت ، أو أن كل شيء من هذا الذى نذكره ونفترضه افتراضا لم يقع ، وأن ما وقع ونشاهده سببه أن هذا الشعر وضع على لسان أمية في الاسلام . وأن واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول وهو فرض أخذ أمية من القرآن ، فهو احتمال ان قلنا بجوازه ووقوعه وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة وفي فترة محدودة تبعد بمبعث الرسول وتنتهى في السنة التاسعة من الهجرة ، وهى سنة وفاة أمية بن أبى الصلت . أما ما قبل المبعث فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن لأنه لم يكن منزلا يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا لأنه لم يكن حيا فلم يشهد بقية الوحي . ولن يكون هذا الفرض مقبولا معقولا في هذه الحالة الا اذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لجباىء الاسلام قد نظم في هذه المدة المذكورة ، أى بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وألا سقط الفرض . فاذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر امكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء في معناه وفي موضوعه من

آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة فلا تكون شاهدا على أخذ أمية منها ، لأنه كان قد توفى في السنة التاسعة فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه وتعيين أوقات نظمه ؟ ان في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبد الله بن جندعان أو معركة بدر ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم ان بعض هذا الكثير مدسوس عليه مروى لغيره ، وبعضه اسلامي فيه مصطلحات لم تعرف الا في الاسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم ان أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معاني القرآن الكريم وينسبها الى نفسه ، ولو كان فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ولكان الرسول نفسه أول القاضحين له .

بقى لدينا افتراض آخر هو أخذ القرآن الكريم من أمية ، وهو افتراض ليس من الممكن تصوّره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهدا من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبدا . ثم ان قريشا ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه لما سكتوا عنه ولقالوا له انك تأخذ من أمية كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقبلا بمكة ، واليه أشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا

لسان عربى مبين » (١) ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ولم يشيروا الى أمية بن أبى الصلت ، ثم ان أمية نفسه لو كان يعلم ذلك أن يظن أن محمداً انما أخذ منه لما سكنت عنه وهو خصم له منافس عنيد ، أراد أن تكون النبوة له وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ثم يتبعه الناس فيؤمنوا بدعوته • أما هو فلا يتبعه أحد • هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أى ظن وان كان بعيدا يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه أو من المورد الذى أخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شعر بذلك لنادى به حتما ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذاً من منبع واحد ، وأن محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شئ ، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به •

نعم ، لقد ورد فى الحديث كما قلت قبل قليل أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وأنه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بنا حاجة الى تثبيت الانشاد واثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات أن ما أنشد لم يكن قد نزل بمثله الوحي •

ومن ذهب الى هذا الافتراض من المستشرقين « كليمان هوار » الفرنسى و « بور Porwe » • زعم بور « أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم فان ذلك يدل على أن الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول » • وهذا الافتراض

مقبول كما قلت لو أثبتنا أن هذا النظم شعر أصيل صحيح وأنه
نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم وأنه لم يصف اليه في
الاسلام ، فان أثبتنا أنه له جاز لهما هذا الادعاء •

وأما الرأي الثالث — وأعنى به رأى من يرجع التشابه بين
سُعر أمية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أحد
الاثنين من التواترة والانجيل وتفسيرهما والى بعض « الصحف »
و « المجلات » التى أشير الى وجودها عند العرب — فهو رأى قديم
وليس بجديد ، رأى قيل عن الوحي كله لا عن القرآن وشعر أمية
أو غير أمية قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد
زعم « أن النبى يتعلم من غلام نصرانى اسمه جبر ١١ » وقد
أشير الى هذا الزعم فى كتاب الله ، وجاء الرد عليه فى قوله تعالى :
« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذين يلدون
اليه أعجمي وهذا لسان عربى مبين » • فلم يخف القرآن الكريم
ذلك الطعن والغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل انه كان
يعلمه ، فذكروا « جبرا » هذا وكان غلاما مقيما بمكة ، وقال بعضهم
بل هو رجل رومى اسمه غير ذلك •

ولو كان الرسول وأميه قد أخذوا من منهل واحد واستقيا من
مورد واحد لما سكنت قريش عن القول به ولما سكت أمية نفسه
وهو الغاضب الحاقدا على الرسول عن الجهر به ، وكيف يعقل سكوته
عن هذا وهو أمر مهم جدا بالنسبة اليه ، وسيف يحارب به الاسلام ؟
ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المنتبئين من الاشارة
اليه فى أثناء حروب الردة ، وقد كانت فرصة سانحة لظهار هذه
المقالة •

ثم ان التشابه على ما يثبتين من نقده وتمحيصه ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين • انما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ولكنها وردت في شعر أمية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل اسلامي لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب ، واستعمال هذا الشعر لجمل ألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة • فلو كان مرد هذا التشابه الأخذ من مورد واحد لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى •

ثم ان المقابلة بين نصين لمعرفة أصل أحدهما بالآخر وأخذ أحدهما من الآخر تستوجب التأكد من صحة نسب هذا الشعر لأمية • ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك في وصفه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصا على أنه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعر أمية لأن بعض أهل الأخبار نسبته اليه ، ولذلك استدركوا هذا الخبر بالإشارة الى اسم قائله الصحيح • فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين • وهذا القليل هو في الغالب أيضا تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين • ولما كان القرآن محفوظا ثابتا فلم يرتق اليه الشك • أما شعر أمية فليس كذلك ، وهو غير معروف

من حيث تعيين تاريخ النظم • فهذه المقابلة ان جازت فانها تكون حجة على القائلين بالرأى المذكور لا لهم • وقد كان عليهم أن يثبتوا أولا اثباتا قاطعا صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ، لا أن يفترضوا مقدما أنه شعر أصيل صحيح وأن يذهبوا رأسا الى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه • والحق أن العصبية تلعب بعقول بعض المستشرقين ، ومتى لعبت العصبية بعقل انسان أبعدته عن فقه أبسط قواعد النقد •

وممن قال باحتمال أخذ القرآن الكريم وأمية من مورد مشترك واحد ، « فردرش شولثيس » ناشر ديوان أمية • وقد زعم أيضا احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت منزلة يومئذ ونظمها في شعره • استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الانجيل والتوراة بل ذهب الى أنها « مجلة » و « صحيفة » تتضمن أحاديث وتفسير وقصصا دينيا قديما • أما دليله فافتراض واحتمال وليس له غير هذين ولا يقوم علم الا على دليل ملموس ، أما أنا (١) فأظن أن مرد هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال • لقد كان أمية شاعرا ما في ذلك شك لاجتماع الرواة على القول به ، وقد كان ثائرا على قومه ناقما عليهم لتعبدتهم للأوثان ، وقد كان على شيء من التوحيد

(١) الدكتور جواد على •

والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكن لا أظن أنه كان واقفا على كل التفاصيل المذكورة فى القرآن وفى الحديث عن العرش والكرسى وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . ان هذا الذى ذكره هو شئ اسلامى خالص لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ولا عند الأحناف ، فوروده فى شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية هو عمل جماعة فعلته فى عهد الاسلام وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه وأنه لم يكن لذلك غريبا ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور نبي عربى وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا فى أيامه أو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا ، وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر كما راج أمثاله فى كل دين من الأديان .

ويتبين آية الوضع فى شعر أمية فى عدم اتساقه وفى اختلاف أسلوبه وروحه ، فبينما نجد شعره المنسوب اليه فى المدح أو فى الرثاء أو فى الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين فى ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الدينى منه والحكمى فى أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريبا من شعر الفقهاء والصوفيين المقتزمتين ونسك النصارى ، فهو بعيد جدا من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل عدى بن زيد العبادى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة

بعض ذلك الشعر الى غيره من الشعراء • ولكن من الذى وضع هذا الشعر ثم أنكره على نفسه وأسنده الى أمية ؟ ومن الذى رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ولكنها أبيات اسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر فى ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ولكن أجوبتها مكانها كتاب يؤلف فى حياة هذا الشاعر وفى شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال واسع للتقريب عن هذه الأمور • روى أن الحجاج قال وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية » فهل ذهب العالمون به حقا قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخما واسعا ؟ أو هو قول وزعم من زعم الرواة وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار •

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيدا ، فالقصيدة التى مطلعها :

أنت الحمد والمن رب العباد
محمد أرسلته بالهدى
د أنت المليك وأنت الحكم
فعاش غنيا ولم يهتضم
ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطينه
وقد علموا أنه خيرهم
يعيبون ما قال لما دعا
به وهو يدعو بصدق التحدي
أطيعوا الرسول عباد الا
تتجون من ظلمات العذاب
دعانا النبى به خياتم
وخص به الله أهلك الحرم
وفى بيتهم ذى الندى والكرم
وقد فرج الله إحدى البهائم
ث الى الله من قبل زيغ القدم
ه تتجون من شر يوم ألم
ومن حر نار على من ظلم
فمن لم يجبه أسر الندم
(البيتيم)

نبي هدى صادق طيب
به ختم الله من قبله
يموت كما مات من قد مضى
مع الأنبياء في جنات الخلود
وقدس فينا بحب الصلاة
كتاباً من الله نقرأ به
رحيم رءوف بوصل الرحم
ومن بعده من نبي ختم
يرد الى الله باري النفس
هم أهلها غير حل القسم
جميعاً وعلم خط القلم
فمن يعتريه فعدما أتم

اقرأ هذه المنظومة ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول انه كان شاعراً مغاضباً للرسول وأنه مات كافراً وأن صاحبه رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الاسلام وفي الرسول ؟ اللهم لا يمكن أن يقال ذلك أبداً ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول ، انه مؤمن قلباً ولساناً مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعبه وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه مات وهو على كفره وعناده وحسنده للرسول . ثم أن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون اذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها اذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنهجية في شعر أمية . نحمد الله على أن صناعها لم ينتقوا صنعها ففضحوا أنفسهم بها ودلوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية وهي في وصف الجنة والنار ، استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقى بغيثاً وعدن لا يطالها رجيم

ثم استمر في قراءتها ، وفيما جاء فيها من وصف للجنة والنار ،
ثم أنعم النظر في عبارات هذه الأبيات :

وقمّح في منابته صريم	فذا غسل وذا لبن وخمر
خلال أصوله رطب قميم	ونخل ساقط الأكتاف عد
وماء بارد عذب سليم	وتفاح ورمان وموز
وما فاهوا به لهمم مقيم	وفيهما لحم ساهرة وبحر
على صور الدّمي فيها سموم	وحور لا يرين الشمس فيها
فهن عقائل وهم قروم	نواعم في الأرائك قاصرات
ألا ، ثم النصارة والنعيم	على سرر تثرى متقابلات
وديباج يرى فيها ققوم	عليهم سندس وجياد ريط
ومن ذهب وعسجده كريم	وحلوا من أساور من لّجين
ولا غول ولا فيها مثليم	ولا لغو ولا تأثيم فيها
يلذ بحسن رؤيتها النديم	وكأس لا تصدع شاربها
ومن ذهب مباركة رذوم	تصفق في صحاف من لّجين

ثم أحكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات • لقد حاول ناظمها
ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها لالباستها ثوبا جاهليا ولاظهارها
بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بل صيرها
في الواقع نظما لوصف الجنة والنار في الاسلام • وما بي حاجة
الى أن أحييك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه
من القرآن الكريم •

ومن الغريب أن بعض الاخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة
لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلا أن العرب في جاهليتها كانت

تؤمن بالجزاء ، وأن منهم من نظر فى الكتب وكان مقرا بالجنة والنار ، وحجته فى ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية ، وقد نسي أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب يناقض ما جاء فى القرآن الكريم وما أورده الاخباريون عن الجاهليين •

وقد كتبت قصة وكيع بن سلمة بن زهير الأيادى فى الجزء الرابع « العدنانيون » ، ورويت ما كان من تبيان أسعد وسيف بن ذى بزن وهم ممن كانوا على دين فى الجاهلية ، وسأكتفى بهذا القدر عن الحنفاء فى هذا الجزء وسأعود الكتابة عنهم ان شاء الله فى الجزء التالى « خديجة بنت خويلد » •

المراجع

- القرآن الكريم
صحيح البخارى
تاريخ الأمم والملوك
جمهرة نسب قريش وأخبارها
انسان العيون (السيرة الحلبية)
السيرة النبوية
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
البداية والنهاية
الأغاني
نهاية الأرب
بلوغ الأرب
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
تاريخ العرب قبل الاسلام
الروض الأنف
- للطبرى
للزبير بن بكار
لعلى بن برهان الدين الحلبي
لابن هشام
لتقى الدين محمد بن احمد الفاسي
لابن كثير
الأبى فرج الاصفهاني
للنويري
للألوسي
للمسعودي
للدكتور جواد على
للمسهلي
- Ency. Religion Ey Hastings
Philosophy & Theology, Rodwell.
- لأحمد أمين
للدكتور زكريا ابراهيم
للدكتور زكريا ابراهيم
لكريستينس—ترجمة يحيى الخشاب
للدكتور عبد الوهاب عزام
لنستيفن رنسيماي — ترجمة جاويد
للشهرستاني
لتوينبي
لابن عبد ربه
- فجر الاسلام
مشكلة الانسان
مشكلة الحرية
ايران فى عهد الساسانيين
موقع عكاظ
الحضارة البيزنطية
المال والنحل
مختصر للتاريخ
العقد الفريد

للمؤلف

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
إبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج يناير سنة ١٩٤٧		
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الأولى		
يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	أذرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاربي الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد

القَصَصُ الدِّيَنِيَّةُ

(للأطفال)

في ١٨ جزءاً	قصص الأنبياء
في ٢٤ »	قصص السيرة
في ٢٠ »	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءاً	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

١٩٦٥ أكتوبر	١ - ابراهيم أبو الانبياء
١٩٦٦ مارس	٢ - هاجر المصرية أم العرب
١٩٦٦ سبتمبر	٣ - بنو اسماعيل
١٩٦٧ فبراير	٤ - العدنانيون
١٩٦٧ مايو	٥ - قريش
١٩٦٧ يوليو	٦ - مولد الرسول
١٩٦٧ أكتوبر	٧ - اليتيم
١٩٦٨ يناير	٨ - خديجة بنت خويلد
١٩٦٨ مارس	٩ - دعوة ابراهيم
١٩٦٨ يونية	١٠ - عام الحزن
١٩٦٨ سبتمبر	١١ - الهجرة
١٩٦٨ نوفمبر	١٢ - غزوة بدر
١٩٦٩ يناير	١٣ - غزوة أحد
١٩٦٩ مايو	١٤ - غزوة الخندق
١٩٦٩ يونية	١٥ - صلح الحديبية
١٩٦٩ نوفمبر	١٦ - فتح مكة
١٩٧٠ فبراير	١٧ - غزوة تبوك
١٩٧٠ مايو	١٨ - عام الوفود
١٩٧٠ نوفمبر	١٩ - حجة الوداع
١٩٧٠ ديسمبر	٢٠ - وفاة الرسول

رقم الايداع ٢١٨٧

الرقم الدولي ٣ - ١١٥ - ٣١٦ - ٩٧٧

بعض ذلك الشعر الى غيره من الشعراء . ولكن من الذى وضع
هذا الشعر ثم أنكره على نفسه وأسنده الى أمية ؟ ومن الذى
رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ولكنها أبيات اسلامية ؟
ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر فى ديوان نسبه اليه ؟
هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ولكن أجوبتها مكانها كتاب
يؤلف فى حياة هذا الشاعر وفى شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك
مجال واسع للتتقيب عن هذه الأمور . روى أن الحجاج قال وهو
على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية » فهل ذهب العالمون به
حقا قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخما واسعا ؟ أو هو قول
وزعم من زعم الرواة وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى
دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صناعة الوضع
جيدا ، فالقصيدة التى مطلعها :

لك الحمد وألمن رب العباد د أنت المليك وأنت الحكم
محمد أرسلته بالهدى فعاش غنيا ولم يهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطينه وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم وفى بيتهم ذى الندى والكرم
يعيبون ما قال لما دعا وقد فرج الله إحدى البهائم
به وهو يدعو بصدق الحديد ت الى الله من قبل زيع القدم
أطيعوا الرسول عباد الاله ه تنجون من شر يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب ومن حر نار على من ظلم
دعانا النبى به خاتم فمن لم يجبه أسر الندم
(اللبيم)

نبي هدى صادق طيب
به ختم الله من قبله
يموت كما مات من قد مضى
مع الأنبياء فى جنان الخلود
وقدس فينا بحب الصلاة
كتابا من الله نقرأ به
رحيم رءوف بوصل الرحم
ومن بعده من نبي ختم
يرد الى الله بارى النسم
هم أهلها غير حل القسم
جميعا وعلم خط القلم
فمن يعتريه فقدا أتم

اقرأ هذه المنظومة ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول انه كان شاعرا مغاضبا للرسول وأنه مات كافرا وأن صاحبه رثى كفار قريش فى معركة بدر وأنه قال ما قال فى الاسلام وفى الرسول ؟ اللهم لا يمكن أن يقال ذلك أبدا ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول ، انه مؤمن قلبا ولسانا مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول . ثم أن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية كان قد توفى فى السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون اذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها اذن دليلا على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه فى شعر أمية . نحمد الله على أن صناعها لم ينتقوا صنعها ففضحوا أنفسهم بها ودلوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية وهى فى وصف الجنة والنار ، استهلكت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقى بغيًا وعدن لا يطالها رجيم*

ثم استمر في قراءتها ، وفيما جاء فيها من وصف للجنة والنار ،
ثم أنعم النظر في عبارات هذه الآيات :

وقمض في منابته صريم	فذا غسل وذا لبن وخمر
خلال أصوله رطب قميم	ونخل ساقط الأكتاف عد
وماء بارد عذب سليم	ونشاح ورمان وموز
وما فاهوا به لهم مقيم	وفيها لحم ساهرة وبحر
على صور الدمي فيها سموم	وحور لا يرين الشمس فيها
فهن عقائل وهم قروم	نواعم في الأرائك قاصرات
ألا ، ثم النضارة والنعيم	على سرر ترى متقابلات
ودياج يرى فيها قتوم	عليهم سندس وجياد ريط
ومن ذهب وعسجده كريم	وحلوا من أساور من لجين
ولا غول ولا فيها ملثم	ولا لغو ولا تأثيم فيها
يلذ بحسن رؤيتها النديم	وكأس لا تصدع شاربها
ومن ذهب مباركة رذوم	تصفق في صحاف من لجين

ثم أحكم بعد ذلك على صاحب هذه الآيات • لقد حاول ناظمها
ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها لالباسها ثوبا جاهليا ولاظهارها
بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بل صيرها
في الواقع نظما لوصف الجنة والنار في الاسلام • وما بي حاجة
الى أن أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه
من القرآن الكريم •

ومن الغريب أن بعض الاخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة
لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلا أن العرب في جاهليتها كانت

تؤمن بالجزاء ، وأن منهم من نظر فى الكتب وكان مقرا بالجنة والنار ، وحجته فى ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية ، وقد نسى أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب يناقض ما جاء فى القرآن الكريم وما أورده الاخباريون عن الجاهليين •

وقد كتبت قصة وكيع بن سلمة بن زهير الأيادى فى الجزء الرابع « العدنانيون » ، ورويت ما كان من تيان أسعد وسيف بن ذى يزن وهم ممن كانوا على دين فى الجاهلية ، وسأكتفى بهذا القدر عن الحنفاء فى هذا الجزء وسأعود الكتابة عنهم ان شاء الله فى الجزء التالى « خديجة بنت خويلد » •

المراجع

- القرآن الكريم
صحيح البخارى
تاريخ الأمم والملوك
جمهرة نسب قريش وأخبارها
انسان العيون (السيرة الحلبية)
السيرة النبوية
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
البداية والنهاية
الأغانى
نهاية الأرب
بلوغ الأرب
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
تاريخ العرب قبل الاسلام
الروض الأنف
للمطبرى
للزبير بن بكار
لعلى بن برهان الدين الحلبي
لابن هشام
لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسي
لابن كثير
للأبى فرج الأصفهاني
للنوريرى
للألوسى
للمسعودى
للدكتور جواد على
للسهيلي
فجر الاسلام
مشكلة الانسان
مشكلة الحرية
ايران فى عهد الساسانيين
موقع عكاظ
الحضارة البيزنطية
الملل والنحل
مختصر للتاريخ
العقد الفريد
لأحمد أمين
للدكتور زكريا ابراهيم
للدكتور زكريا ابراهيم
لكريستينس—ترجمة يحيى الخشاب
للدكتور عبد الوهاب عزام
لستيفن رنسيهان — ترجمة جاويد
للشهرستاني
تويني
لابن عبد ربه
Ency. Religion Ey Hastings
Philosophy & Theology, Rodwell.

للمؤلف

الطبعة الاولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٢
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج يناير سنة ١٩٤٧		
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الأولى		
يناير سنة ١٩٥٨	أم العروسة	
مارس سنة ١٩٥٨	وكان مساء	قصة
يونيو سنة ١٩٥٨	أنذر وسيقان	قصة
سنة ١٩٥٩	أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص
سبتمبر سنة ١٩٥٩	الحصاد	رواية
سنة ١٩٦١	القصة من خلال تجاربي الذاتية	
أكتوبر سنة ١٩٦٢	جسر الشيطان	قصة
ديسمبر سنة ١٩٦٣	ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص
يناير سنة ١٩٦٤	النصف الآخر	قصة
يونيو سنة ١٩٦٥	السهول البيض	رواية
يوليو سنة ١٩٦٧	وعد الله وإسرائيل	
يناير سنة ١٩٧٢	عمر بن عبد العزيز	قصة
أكتوبر سنة ١٩٧٢	الحفيد	قصة

القصص الديني

(للأطفال)

في ١٨ جزء ١	قصص الأنبياء
» في ٢٤	قصص السيرة
» في ٢٠	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزء ١	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

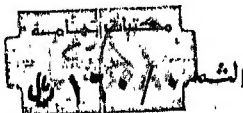
١ - ابراهيم ابو الانبياء	١٩٦٥ اكتوبر
٢ - هاجر المصرية ام العرب	١٩٦٦ مارس
٣ - بنو اسماعيل	١٩٦٦ سبتمبر
٤ - العدنانيون	١٩٦٧ فبراير
٥ - قريش	١٩٦٧ مايو
٦ - مولد الرسول	١٩٦٧ يوليو
٧ - اليتيم	١٩٦٧ اكتوبر
٨ - خديجة بنت خويلد	١٩٦٨ يناير
٩ - دعوة ابراهيم	١٩٦٨ مارس
١٠ - عام الحزن	١٩٦٨ يونية
١١ - الهجرة	١٩٦٨ سبتمبر
١٢ - غزوة بدر	١٩٦٨ نوفمبر
١٣ - غزوة احد	١٩٦٩ يناير
١٤ - غزوة الخندق	١٩٦٩ مايو
١٥ - صلح الحديبية	١٩٦٩ يونية
١٦ - فتح مكة	١٩٦٩ نوفمبر
١٧ - غزوة تبوك	١٩٧٠ فبراير
١٨ - عام الوفود	١٩٧٠ مايو
١٩ - حجة الوداع	١٩٧٠ نوفمبر
٢٠ - وفاة الرسول	١٩٧٠ ديسمبر

رقم الايداع ٢١٨٧

الرقم الدولي ٣ - ١١٥ - ٣١٦ - ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل مدني - النجيلة



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه